دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
بالمملكة المغربية

كيف انتشر الإسلام
عبر ثمانية قرون.

لماذا عيد المولد في الغرب الإسلامي
الأسباب التي كانت وراء إنشائه..
بعد أن لم يكن لا في عهد الأدارسة ولا في عهد المرابطين والموحدين

قصيدة المديح
في العصر المريني

حرب أفغانستان
وتأثيرها على الشعوب الاسلامية وعلى شعوب أوربا الشرقية



العدد 277 جمادى الأولى عام 1410 ـ دجنبر 1989

الثمن : 4 دراهم.

دعوة الحق

شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
الرباط - المملكة المغربية



أسسها
جلالة المغفور له
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957م

التحرير:
الهاتف: 623.60

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10



الاشتراكات : في المملكة المغربية : 70 درهماً
في العالم : 80 درهماً

الحساب البريدي : رقم 55-485 . الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

مطبعة فضالة . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3

صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله في خطاب سامي بمناسبة الذكرى الرابعة عشرة لانطلاق المسيرة الخضراء المظفرة:

نوجه تقديرنا واعتبارنا لرعايانا في الصحراء الذين برهنوا منذ 1975 عن تعلقهم بمغربيتهم ووطنهم وكانوا المؤخرة اللائقة النافعة للمقدمة التي هي جيشنا.

وجه جلالة الملك الحسن الثاني مساء يوم الثلاثاء 7 ربيع الثاني 1410 هـ، الموافق 7 نونبر 1989م خطابا إلى الأمة بمناسبة الذكرى الرابعة عشرة للمسيرة الخضراء.

وفي ما يلي النص الكامل لهذا الخطاب الذي كان جلالة الملك خلال توجيهه محفوفا بصاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد وصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد وصاحب السمو الأمير مولاي هشام.

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

شعبي العزيز...

نحتفل كل سنة بذكرى مسيرتنا الخضراء التي مكنتنا من تحقيق أمانينا وأماني الأجيال السابقة في الرجوع المشروع إلى الصحراء. ومنذ ذلك اليوم ونحن نقاسي ونعاني من حرب لم نردها ولم يكن أن نريدها. ولكن يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾.

فهذه المدة العصيبة التي اجتزناها مكنتنا من شيئين مهمين : الأول في الميدان الاقتصادي والاجتماعي والثاني في الميدان العسكري. ففي الميدان الاجتماعي والاقتصادي لم نكن لندفع المجهود الذي دفعناه لا من باب التفكير والتخطيط ولا من باب المال في تجهيز أقاليمنا الصحراوية تجهيزا يجعل بعض مدن الصحراء تتوفر على منشآت ليست موجودة في بعض أخواتها من مدن الشمال.

المغرب لم يأت للصحراء ليأخذ منها بل ليعطيها

فقد تمكنا من أن نفتح المدارس ونفتح آفاق المعرفة والتكوين لأبنائنا ورعايانا في الصحراء وتمكنا من أن نوفر لكل واحد منهم المسكن والشغل وتمكنا من أن نجعلهم يعيشون عيشه المطمئن الساكن المستقر لا معيشه الذين يتنقلون طلبا للمرعى والكلأ.

والحق يقال أن جهودنا وتضحياتنا لا قاها من لدن أبنائنا الصحراويين إقبال على العمل وشغف بالعلم والتعليم ولاقاها كذلك تشبث وإخلاص لمغربيتهم ودستورهم وملكيتهم.

وهكذا شعبي العزيز أصبحنا في ظرف يقل عن عشر سنوات نرى المنجزات الكبرى مثل المراسي والمطارات والمستشفيات تقوم ببنائها مقاولات مالها وأربابها صحراويون لم يتمكنوا فقط من المتاجرة والتجارة ليربحوا بل تمكنوا كذلك من نوع من التقنية في المستوى العالي حتى يبينوا ويظهروا للجميع أن المغرب حينما استرجع ترابه في الصحراء لم يأت للصحراء ليأخذ منها بل جاء للصحراء ليعطيها حتى يصبح جميع المغاربة من طنجة إلى الكويرة سواسية كأسنان المشط.

وإننا بهذه المناسبة لنوجه تقديرنا واعتبارنا لرعايانا في الصحراء الذين برهنوا منذ 1975 عن تعلقهم بمغربيتهم ووطنهم وكانوا المؤخرة اللائقة النافعة للمقدمة التي هي جيشنا.

جيش مرابط شاب يتجدد كل يوم

فلم يكن لجيشنا أن يتمكن من أن يعمل ما هو عامله ولا أن يقوم بمهمته العسكرية ولا أن يبلى البلاء الحسن لو لم يكن موقنا بأن من ورائه سند شعبي ليس فقط من المغاربة كلهم بل بالخصوص من سكان الصحراء الذين يضمنون لذلك الجيش بمواطنتهم وغيرتهم وحكمتهم أن يكون في المناخ اللازم له حتى يتسنى له أن يقوم بواجبه العسكري كما يريد وبكل اطمئنان.

فشكرا لرعايانا في الصحراء وهنيئا لهم على أن أظهر منهم الشيخ والشاب الرجل والمرأة هذا العمق السياسي رغم ما يجوس في بعض الأوساط ورغم ما يسمعونه في بعض الإذاعات. فلم يزل إيمانهم ثابتا راسخا ولم تزل مغربيتهم لاتزعزعها الزوابع ولا الرياح. وهذا الموقف الثابت الحكيم هو الذي جعلنا نحمد الله سبحانه وتعالى على أن وصلنا إلى الهدف السامي.

الهدف الأول كما قلت لكم إنشاء جيش مرابط شاب يتجدد كل يوم.

فعلا شعبي العزيز في سنة 1975 فرضت علينا حرب كما قلت لكم لم تكن لا لننتظرها كحرب، ولا لننتظر نوعيتها. فتمكنا ولله الحمد بفضل التجربة والصبر والتحمل وثبات ضباطنا وضباط صفنا وجنودنا وقيادتنا العليا في الرباط والدراسات التي قامت بها أولا من أن نكيف أنفسنا مع هذا النوع من حرب الصحراء. وثانيا من أن نقتني من التجهيزات والاليات ما يصلح لها وثالثا أن تتدرب عليها تدريبا جيدا وأخيرا وهو المهم أن نتعهدها بالإصلاح لأن التعهد في السلاح وفي ميدان السلاح هو أخطر بكثير من الثمن الذي يدفع لشراء السلاح. فكما خلقنا جيلا جديدا في الصحراء خلق المغرب لنفسه جيشا جديدا.

القوات المسلحة الملكية مثال يحتذى

ويمكنني كمواطن مغربي وكامير المومنين وكملك المغرب وكقائد أعلى للقوات المسلحة الملكية أن أكون فخورا بهذه الآلة التي هي بين أيدينا حيث أصبحت القوات المسلحة الملكية في جميع الميادين مثالا يحتذى وتمكن المغرب دون أن يكون قاصدا ذلك من أن يخلق لنفسه ويصنع لنفسه الدرع الحامي لمكتسباته ولاستقلاله ولسيادته وكذلك أن يكون جيشا تاما على الاهبة للدفاع عن مصالح

الأفارقة ومصالح العرب إن هم طلبوا منا في مشروعياتهم أو في جهادنا المشترك أن يشارك المغرب بأبنائه المسلحين.

ولم نكن لنصل لهذا لولا تلك الرابطة التي تربط بيننا كلنا وبين جذورنا الحقيقية. وجذورنا هي قبل كل شيء اما من الشرق واما من الصحراء.

وحينما أقول من الشرق أعلم ما أقول... فاغلب الدراسات تدل اليوم على أن سكان المغرب الأولون وهم البربر جاءوا من اليمن. فسكاننا الأولون جاءوا من الشرق والتحق بهم بعد ذلك إخوانهم العرب من الشرق والتحق بالجميع إخواننا الآخرون من الصحراء ومن جنوب المغرب. فربطنا بهذا حاضرنا بماضينا وأصبحنا حقيقة تتوفر في توازن واتزان على العناصر التي كانت هي المقوم لهذه الدولة والصانع لأمجاد هذه الأمة والكاتب لتاريخها المجيد الذي نقرأه ويقرأه أبناؤنا وسوف تقرأه الأجيال المقبلة بكل افتخار واعتزاز.

مقوماتنا هي التشبث بالدين وبالوطنية الغيورة

فلنحافظ شعبي العزيز على ما أعطانا الله سبحانه وتعالى من مقومات.

ومقوماتنا هي التشبث بالدين وبالوطنية الغيورة لكن السمحة. ومقوماتنا هي أن نكون دائما عند حسن ظن إخواننا وأشقائنا في السراء والضراء.

ومهمتنا هي أن نتعلم شيئا هو أنه كلما طال الليل ينبثق فجر النهار وكلما طالت المحنة لابد أن تنفتح أبوابها على النعمة، وكلما وجدنا أمامنا امتحانا وجدنا في آخر ذلك الامتحان النجاح بالتفوق.

فهنيئا لشعبنا من طنجة إلى الكويرة وهنيئا بالخصوص لرعايانا في الصحراء الذين أظهروا وطنيتهم وغيرتهم ومساندتهم وأكرر هذا مساندتهم لجيشنا.

وهنيئا لجيشنا الذي عرف كيف ينضبط وكيف يتحول وكيف يسيطر على الموقف العسكري والجغرافي دون كلل ولا ملل معطيا أغلى ما يمكن أن يعطي الإنسان.. حياته أو جسده ليعيش الآخرون في أمن واطمئنان.

ولم يبق لي شعبي العزيز بعد هذه الكلمات الوجيزة إلا أن نحمد الله سبحانه وتعالى ونشكره على أن كان لنا في اختياراتنا ملهما وفي مسيرتنا مصباحا منيرا وفي صمودنا مولى ونصيرا ﴿**واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير**﴾ صدق الله العظيم.



صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله يعلن عن تنظيم استفتاء حول إرجاء الانتخابات القادمة لمدة سنتين:

حياة السكان الصحراويين تحت أمانتنا ورعايتنا ومسؤوليتنا وعلينا أن ننصف إخواننا الصحراويين المرضيين مع وطنهم

وجه صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني الذي كان محفوفا بصاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد وصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد يوم الأربعاء 1989/11/22 على الساعة الواحدة وعشر دقائق خطابا إلى الأمة.

وقد حضر مراسم توجيه الخطاب الملكي السامي الوزير الأول الدكتور عز الدين العراقي ورئيس مجلس النواب السيد أحمد عصمان ومستشارو صاحب الجلالة وأعضاء الحكومة وكبار ضباط القيادة العليا للقوات المسلحة الملكية ومديرو الدواوين الملكية ورؤساء الأحزاب السياسية وأعضاء مكتب مجلس النواب ورئيس المجلس الأعلى والوكيل العام للملك به والأمين العام لرابطة علماء المغرب وشخصيات أخرى مدنية وعسكرية.

وقد أعطى صاحب الجلالة أوامره السامية لكي يشارك في عملية الاستفتاء كل من أفراد القوات المسلحة الملكية والأمن الوطني والقوات المساعدة.

وبعد ذلك أقام جلالة الملك حفل استقبال تكريما للحاضرين.

وفيما يلي النص الكامل للخطاب الملكي السامي الذي نقل على أمواج الإذاعة وشاشة التلفزة من القصر الملكي بالرباط.

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

شعبي العزيز،

مرة أخرى وجريا على عادتنا ها نحن نأخذ معك بالطريقة المثلى التي ألفناها والعادة المختارة التي سرنا عليها ألا وهي الحوار والتشاور والاشراك في ما يخص المسائل الحيوية بالنسبة لبلدنا حتى يكون دائما ذلك التيار الوطني والفكري والأدبي فاعلا مفعوله بينك شعبي العزيز وبين خديمك الأول وعبد ربه.

الاستفتاء يلزم الجميع بما فيهم ملك المغرب

شعبي العزيز،

حتى لا أطيل انتظارك في الموضوع الذي سأتطرق إليه أريد أن أقول لك بادئ ذي بدء أن موضوع هذا الخطاب هو أننا قررنا أن نجري استفتاء. وتعلمون أن الاستفتاء هو اسمى تعبير عن الإرادة الوطنية ذلك أن الدستور ينص على أن الاستفتاء يلزم الجميع بمن فيهم ملك المغرب. فالاستفتاء هو اسمى تعبير واسمى تفسير للإرادة الشعبية حتى تصبح قانونا محترما. فما هو موضوع هذا الاستفتاء ؟ كما تعلم شعبي العزيز فان ملف المغرب معروض الآن على هيأة الأمم المتحدة وذلك لتنظم هذه الهيأة الدولية الاستفتاء في أقاليمنا الصحراوية. وفكرة الاستفتاء ظلت تخامرني منذ القدم.

الصحراء طرف منا أو نحن طرف منها

وأول مرة فاتحت بها الاسبانيين كانت في عام 1965 بمدينة فاس بمناسبة عيد العرش حينما قابلت هناك السيد سوليس الذي كان في حكومة فرانكو مكلفا بشؤون الحزب. وقلت له لا أريد أن أدخل مع اسبانيا في حرب ولا أريد أن تنصب اسبانيا طرفا وجزءا لا يتجزء من الجسد المغربي ليختار شبه الاستقلال أو شبه الحكم الذاتي. فالصحراء هي طرف منا أونحن طرف منها وحتى لا تنطلي علينا أية حيلة فأنا أطلب من الجنرال فرانكو أن نجري استفتاء في الصحراء في عام 1965.

ومنذ ذلك الحين ونحن نطلب من العدالة الدولية أن تنصفنا وجاءت المسيرة الخضراء وكانت ولله الحمد مسيرة مظفرة ناجحة ولازلنا اليوم نجني ثمارها. ولازالت تلك المسيرة تدل على أن الصحراء طرف منا وعضو منا ولو ترك الخيار للمغاربة لشاركوا فيها جميعا. ولازال جميع المغاربة في ما إذا ظهرت مصلحة في تنظيم مسيرة أخرى مستعدين لنهج ذلك النهج.

وقد طلبت منا الجهات المعنية والدول التي لم ترد أن تعترف لنا بحقنا وكانت آنذاك تعتبر وجودنا وجود مستعمر دخيل على الشعب الصحراوي أن نجري الاستفتاء وكنا آنذاك نرفض أن نجري الاستفتاء. ولكن نزولا عند الرغبات المتنوعة والمتكررة لرؤساء دول أشقاء وإخوان عرب وغير عرب أوربيين وأسيويين وأفارقة قبلنا الاستفتاء.

ولولا تدخلهم ورغبتهم لا أقول ضغطهم لأن المغرب لا يعمل تحت الضغط ولن يعمل تحت الضغط لما قبلنا الاستفتاء. وحينذاك قلنا طيب. ذهبنا إلى نيروبي المرة الأولى والمرة الثانية وفوجئت منظمة الوحدة الافريقية حينما أعلنا في خطابنا الرسمي عن رغبتنا في إجراء الاستفتاء.

اديم كودجو ارتكب جريمة في حق افريقيا

وهنا يجب أن أؤكد نقطة مهمة للتاريخ وهي أنني أعتبر شخصيا أن اديم كودجو الأمين العام السابق لمنظمة الوحدة الافريقية ارتكب جريمة في حق افرقيا لن ينساها له التاريخ ذلك أنه فتح أبواب المجموعة الافريقية على مصراعيها لدخول الجمهورية المريخية أو الفضائية مضطرا المغرب لأن يغادر كرسيه بكل أسف وبكل حزن. فلو لم تدخل تلك الجمهورية المزعومة وبقي المغرب ضمن أسرته الافريقية وقد مر على ذلك الآن خمس سنوات في اليقين لوجدنا قبل هذا اليوم الحل الافريقي المطابق للأسرة الإفريقية والمنصف لحقوق الجميع.

فلهذا اعتبر أن منظمة الوحدة الافريقية وبالأخص الدول الافريقية التي صوتت لصالح دخول تلك الجمهورية إلى مجموعاتنا لازالت تتحمل مسؤولية أدبية.

فهي أولا لم تكن تظن أن المغرب سينسحب من المنظمة الافريقية وثانيا كانت تنتظر أن ترى المغرب قصير النفس وكانت تنتظر أن تركع المغرب وهذا البلد لا يركع إلا لله سبحانه وتعالى. فطيلة تاريخه الأصيل

والقديم وفي حاضره وفي مستقبله لن يركع إلا لله. ومن كان يظن أنه يمكن أن يركب مع المغاربة طريق العنف أو طريق الاغراء بدل أن يركب معهم طريق التعقل وطريق الفضيلة وطريق حسن الأخلاق فأنا أعتبر شخصيا أنه غالط كل الغلط.

حياة السكان الصحراويين هي تحت أمانتنا ورعايتنا ومسؤوليتنا

وحينما رفعنا ملفنا إلى هيأة الأمم المتحدة أصبحنا نجري اتصالات مع الأمين العام للنظر في إجراء هذا الاستفتاء ولازلنا منذ ذلك الحين إلى يومنا هذا ننتظر العمليات الأولية لتنظيم ذلك الاستفتاء. وقد ظهر لنا جليا أن خصومنا الظاهرين وغير الظاهرين لم يؤمنوا في أي وقت من الأوقات بالاستفتاء. فحتى في الوقت الذي كانوا يطالبون به وكان المغرب يرفضه كانوا لا يؤمنون بالاستفتاء لأن جل أولئك الخصوم كانوا أنفسهم في بلدهم لا يعيشون تحت ظل استفتاء أو مشاورة فقد كانوا كلهم مع الحزب الوحيد بحيث لا يؤمنون ولا يمارسون المشورة وأخذ الرأي والأخذ والعطاء. لقد كانوا في تربيتهم الضيقة لا يؤمنون إلا بالأمر العنيف الذي ليس له أي استيناف.

فتشككوا من أول وهلة في ما يخص طريقة الاستفتاء الديمقراطية والشعبية أي القاعدة ولا زالوا إلى حد الآن يضعون لنا العراقيل وسارت بهم الوقاحة - لا أقول أعضاء الجمهورية المزعومة بل حلفاؤها - إلى أن طالبوا بخروج الجيش والإدارة وعشرات الآلاف من السكان المغاربة من الشمال الذين جاؤوا واستوطنوا بالصحراء. فرفضنا ذلك كله وقلنا لهيأة الأمم المتحدة وللأمين العام إذا كنا سننسحب جميعاً. فسنقطع أسلاك الهاتف ونفكك جميع وسائل المواصلات ونردم جميع الابار ونأخذ معنا جميع السيارات ونسلح السكان لأن حياة السكان الصحراويين هي تحت أمانتنا ورعايتنا ومسؤوليتنا. فلا يجب أن نسمع فقط خصومنا وإذا بقينا دائما لا نأخذ بعين الاعتبار سوى ما قاله خصومنا دون أن ننصف الناس المرضيين مع وطنهم سنكون حقيقة مجرمين في حق إخواننا الصحراويين.

لا أريد أن أصل إلى هذه القطيعة

فإذا خرجت إدارتنا وخرج الجيش فكما أن أولئك الأشخاص الذين هم من الجهة الأخرى مسلحون بالدبابات فلن نخرج حتى نترك الدبابات. ونظرا لقدراتهم وعددهم لي اليقين أن الصحراويين المرضيين مع وطنهم سيحقون الآخرين. ولكن لا أريد أن أصل إلى هذه القطيعة وقلت مرارا وتكرارا إنه من واجبي ككل عربي ومسلم بالخصوص أن يتحلى بالأخلاق النبوية ومن جملة الأخلاق النبوية صلة الرحم وعدم القطيعة وعدم فصل الأسر. فلهذا ولكي لا أزيد في الأخذ والعطاء ويضيع لنا الوقت بخصوص هذا الاستفتاء لم أرد أن أعطيهم سببا آخر لجعلهم يقولون للناس انظروا إلى المغرب يعطي بيد ويأخذ بيد.

فما هو موضوع الاستفتاء ؟

الموضوع هو أنه في السنة المقبلة في شهر سبتمبر ربما كانت ستجري الانتخابات البرلمانية والبلدية.

وهذه الانتخابات إذا كانت ستنظم فيجب أن تنظم في جميع بقاع المغرب من الكويرة إلى طنجة. فلا يعقل أن نقول بما أن الاستفتاء سيجري نترك المناطق الصحراوية لا تنتخب ممثليها في البرلمان أو في البلديات. وحتى نظهر مرة أخرى للضمير العالمي ولأفراده ذوي النيات الحسنة وحتى ندحض حجج الخصوم قررنا أن نرجئ الانتخابات في جميع أنحاء المغرب لمدة سنتين وكما تعلم شعبي العزيز فإن مدة انتداب البرلمانيين سواء منهم الذين انتخبوا مباشرة أو الذين انتخبوا بكيفية غير مباشرة من طرف المجالس البلدية أو من طرف الغرف المهنية منصوص عليها في الدستور ولا يمكن أن يزاد فيها أو ينقص منها إلا باستفتاء لأن دستورنا لا ينص على طريقة أخرى لمراجعة الدستور الا الاستفتاء والاحتكام إلى الشعب.

نصيحتي لك هي أن تقول نعم...

فـإذن شعبي العزيـز من مصلحتنـا أن نمـدد فترة الانتـداب وثق بي أني لم أقدم على هـذا العمل إلا بعـد أن أخذتـه من جميع أطرافـه وفكرت في عواقبـه وحللت جهد المستطاع ـ وبالطبع أنا بشر كالجميع ـ إيجابياته وسلبياتـه وفي الأخير رجحت هـذه الفكرة في ذهني وفي وجـداني كذلك وفي تجربتي السياسية. ومعلوم أن هناك أناسا أعطاهم الله الحاسة السادسة وهناك أناسا لم يعطها لهم. وأنا أحمد الله سبحانه وتعالى أن لي هذه الحاسة سواء في قضية الصحراء أو في القضايا المصيرية بالنسبة لبلادي وبالنسبة لسيادتنا وهذا العطاء لا أقول إنه جاء من الله ونزل بل كان ثمرة ممارسة الشؤون. فمنذ 35 أو 40 سنة وأنا أمارس هذه الشؤون وكـان لي الحظ أن مـارستها مع رفاق محترمين منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وكلنـا أخـذنـا هـذه الحاسة السادسة من أستاذنا هذه الحاسة السادسة من أستاذنا جميعا ومربينا جميعا محمد الخامس طيب الله ثراه.

شعبي العزيز،

أقول لك بكل إخلاص إن وجداني وتحليلي ومنطقي يجعلني أطلب منـك أن تجيبني بنعم بكـل اطمئنـان فيما يخص هذا السؤال :

هـل تريـد أن نـزيـد في عمر هـذا البرلمـان سنتين ونؤخر الانتخابات كلها لمدة سنتين ؟ فنصيحتي لـك هي أن تقول نعم ولكن إذا ارتـأيت أنه لا ينبغي لنـا أن نمدد هذه الفترة فـالكلمة الأخيرة هي لـك وستكون دائمـا لـك. وحينما يكون الاستفتاء ترى شعبي العزيز أنني واحد منكم ولما يكون اقتراع آخر لا تراني في مكـاتب التصويت لكن لمـا يتعلق الأمر بقضية مصيريـة تتطلب الاستفتـاء أكـون واحدا من المواطنين.

وبمـا أن القـانون خـول لي حريـة المشـاركـة في الاستفتاء فمعنى ذلـك أن القـانون يقول لي أن (نعم) أو (لا) التي ستصوت بها يمكن أن تكون خـاطئـة ومع الطرف الخـاطئ لكن في هـذه القضيـة لا أظن أنني سـاكون على خطأ.

قضية الصحراء أعرفها وأعرف دقائقها جيدا

فقضية الصحراء أعرفها وأنت كـذلـك تعرفهـا ولكنني أعيشها صباح مساء وأعرف دقائقها جيدا لدرجة أنـه لو كـان لكـل حبـه رمـل في الصحراء ورقـة تعريف لظـل رقمهـا مرسوماً في بالي لأن هـذه أمـانـة أخـذتهـا على عنقي ومن اللازم أن أؤديها إلى النهـايـة وحتى يقدر الله أن يعطيها لآخر. لكن مـا دمت أنـا المؤتمن عليهـا فسـوف لن أعرف لا راحـة ولا اطمئنـان بـال إلا إذا انتهت هـذه القضيـة وستنتهي إن شاء الله بـانتصارنـا لأن الحق يعلو ولا يعلى عليه. وتذكروا دائما ما كان يقولـه سيدنـا محمد الخامس طيب الله ثراه «ما ضاع حق من ورائه طالب».

ولكن لماذا سنتين بالضبط وليس سنة واحـد فقـط أو ثلاث سنوات ؟

أعتقد أن مـدة سنتين هي فجوة من التـاريخ صـالحـة لتنظيم الاستفتـاء ونحن نظن الخير الكبير في صـديقنـا السيد بيريز دي كويار ومن هيأة الأمم المتحدة ومن جميع ذوي النـوايـا الحسنـة ونـأمـل أن لا يتـأخروا في تنظيم الاستفتاء. وليس هذا تهديدا لأنـه ليس من طبعي التهـديـد ولا ممارسة الضغط المعنوي. أبدا فليس من عادة المغرب أن يمارس الابتزاز ولم يسبق لـه أن ابتز أحـدا. وهو لم يـأخـذ إلا مـا هو لـه ولا يـدافـع إلا عمـا هو لـه. لكن إذا لم يجر الاستفتاء خلال هـاتين السنتين فـإنني سـأكون الأول لأقول لك شعبي العزيز إنه علينـا أن نستنتج من ذلـك التـأخر أو التماطل أو التبـاطؤ النتـائج التي يجب أن تخـامر كل بلـد مستقل وذي سيادة.

فـإذن لنتكـل على اللـه شعبي العزيـز ولنـزد لهـذا البرلمان مدة سنتين ولنقف صامـدين في حـدودنـا ولنواصل مسيرتـا التنمـويـة سـواء في أقـاليمنـا الصحراويـة أو في أقاليمنا الشماليـة ولنتفتح على العالم الـذي تجري فيـه الآن

أحداث قلبت التاريخ. لا أقول تاريخ قارات لأن المشكل المطروح اليوم ليس مشكلا جغرافيا ولا حتى إيديولوجيا بل هو مشكل إيجاد نموذج وطريقة معالجة الأمور وخاصة الأمور الاقتصادية.

هل تعالج بالديمقراطية أم باللا مركزية أن بالمسؤولية الفردية والجماعية أم تعالج ببيروقراطية جامدة لا تتحرك لطائفة ضئيلة من الناس دون أن يستمتع بها الآخرون بحيث ان المصارعة التي تجري حولنا الآن ليست مصارعة في الإيديولوجيا بل مصارعة في الطرق التنموية.

إذن لنفتح أعيننا على الخارج ولنفتح كذلك اذاننا وعقولنا ولنعط هذه الفرصة (فرصة سنتين) لأصدقائنا ولمنصفينا ليجروا ذلك الاستفتاء الذي أريد أن يكون استفتاء دوليا يعترف لنا من خلاله المجتمع الدولي بحدودنا نهائيا.

لقد كان بالامكان أن أتفق مع الجيران بكذا وكذا ولكن لننظر ما وقع بين إيران والعراق، لقد حصل اتفاق ثنائي وبمجرد ما جاءت الفرصة وقع ما وقع وها هي الأمور معلقة. ورغم إيقاف إطلاق النار لا زال كل يوم ينذر بأن يكون هو منطلق الحرب الجديدة. كلا أنا لا أريد ذلك لا بالنسبة لك شعبي العزيز ولا بالنسبة لجيراني ولا بالنسبة لقارتنا.

وما أريد هو حدود متفق عليها دوليا. ولا يمكن أن يعطينا الحدود المتفق عليها دوليا إلا الاستفتاء السليم والهادئ والمنصف وحتى يمكن لهذا الاستفتاء السليم الهادئ والمنصف أن يمر كما نريد أردت أن أتجنب إعطاء سبب آخر يقول الناس انطلاقا منه إنني استفزهم بتنظيم انتخابا في مكان هو موضوع استفتاء. فالصحراء مغربية ولكن ما داموا يقولون لنا تعالوا نطرح السؤال. في الحقيقة التحدي منطلق منا وليس منهم. فنحن الذين نتحداهم ونقول لهم إذا كنتم تعتبرون أن الصحراويين ليسوا مغاربة فليأتوا ليقولوا ذلك.

لهذا شعبي العزيز أريد أن تفهمني جيدا. لا أريد أن أؤثر على رغبتك أو إرادتك ولكن من واجبي أن أقول لك إن قلبي وضميري وتحليلاتي وكل شيء يميل إلى أن نزيد في عمر هذا البرلمان سنتين.

وإن شاء الله سنعطي للحملة الاستفتائية مدة عشرة أيام أو تسعة أيام ويوم الجمعة ما بعد القادم سنلتقي جميعا كل واحد في دائرته الانتخابية أمام مكاتب التصويت راجين من الله أن يكون قد ألهمنا حسن الاختيار وقائلين بفم واحد ﴿**بسم الله مجراها ومرساها أن ربي لغفور رحيم**﴾.

﴿**فإذا عزمت فتوكل على الله**﴾ صدق الله العظيم. والسلام عليكم ورحمة الله.



السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري، في حديث صحفي أجرته معه جريدة "الشرق الأوسط":

• ندعم الصحافة الإسلامية ونثق بدورها البناء في المجتمع

أجرى مبعوث جريدة الشرق الأوسط منصف السليمي بعددها 3993 يوم الجمعة 3 ـ 11 ـ 1989 حديثا شاملا حول القضايا الإسلامية الراهنة مع الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الذي قال بأن الشرور تتسرب إلى أمتنا عبر الهواء تفسد عليها عقيدتها وأخلاقها... وتمس كيانها في الصميم عن طريق ما تبثه قنوات أجنبية من برامج وأفلام هدامة.

وفيما يلي النص الكامل للحوار :

• تواجه الأمة الإسلامية تحديا حضاريا يمثل الاعلام إحدى أدواته الأكثر فعالية، ويعد المغرب جسرا يربط بين حضارتين وقارتين، وهو بذلك يلعب دور الفعال في مواجهة هذا التحدي. ولذلك نلاحظ أن المغرب من أوائل الدول الإسلامية التي صدرت بها الصحافة الإسلامية (منذ ما يزيد عن قرن) وقد لعبت هذه الصحافة دورها الحضاري والوطني تقطع في صدور الدوريات، ومحدودية في كفاءتها، وضعف في إمكاناتها. فهل فكرتم في دعمها ؟

ـ أود أن أسجل في بداية جوابي على سؤالكم أن الصحافة المغربية سواء منها الجرائد أو المجلات هي كلها صحافة إسلامية فلا تخلو جريدة أو مجلة من ركن أو صفحة

أو صفحات خاصة بالدعوة الإسلامية. وإلى جانب هذا فهناك صحافة مغربية إسلامية متخصصة أذكر منها : جريدة «الميثاق» التي تصدرها رابطة علماء المغرب وجريدة «النور» ومجلة «دعوة الحق» التي تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ومجلة «الإرشاد» ومجلة «الفرقان».

هذا بالإضافة إلى أن المغرب يفتح الباب على مصراعيه أمام الصحافة الإسلامية المتخصصة في العالم الإسلامي، وهو ما أعطى غنى فكريا خدمته هذه الصحافة المغربية والمنتسبة لباقي دول العالم الإسلامي كما ساعدت على خلق نوع من تبادل الرأي والتشاور غير المباشر والاطلاع على ما يجد في العالم الإسلام في هذا المجال. ونحن ندعم الصحافة الإسلامية لثقتنا في الدور الكبير الذي تؤديه الصحافة بصفة عامة في البناء الفكري والثقافي والعقائدي للمجتمعات.

مشكلة مجلة المجتمع

• يستقبل المغرب عددا مهما من الصحافة الإسلامية التي تصدر ببلدان إسلامية أخرى وهي تؤدي دورها بتعاضد مع شقيقتها المغربية. ولكن لاحظت أن بعضا منها لا يدخل المغرب، مثل مجلة «المجتمع» الكويتية ؟

ـ ليس عندنا أي مانع من دخول مجلة «المجتمع» الكويتية للمغرب، كلما احترمت قدسية الكلمة وأمانة القلم ومسؤولية الصحافة في فترة من الفترات كانت مجلة «المجتمع» تنشر معلومات خاطئة عن المغرب وبالاتصال المباشر مع المسؤولين عنها تبين لهم أن نشر هذه المعلومات الخاطئة ليس في صالح المجلة ولا قرائها ويبدو أنهم راجعوا موقفهم، ونحن نرحب بهم.

• يمكن القول إذن، بأن الطريق ممهد ؟

ـ ممهد تماما.

• نحن الآن في عصر تجند فيه الأقمار الصناعية لتبث في العالم برامج دعائية وتشويشا لأخلاق الشباب، وكان البعض قد اقترح إيجاد قمر صناعي إسلامي. ما رأيكم في هذه الفكرة ؟

ـ هذه فكرة إيجابية وبناءة ولا يسعنا إلا تأييدها التأييد الكامل لأن فيها وقاية لأمتنا من هذه الشرور التي تتسرب إليها عبر الهواء والتي تفسد عليها عقيدتها وأخلاقها وقيمها وتمس كيانها في الصميم عن طريق ما تبثه قنوات أجنبية من أفلام وبرامج هدامة ونحن مستعدون كامل الاستعداد للإسهام في أي عمل إيجابي من هذا النوع.

الدراسة بجامع القرويين

• انطلقت الدروس العلمية بالقرويين في العام الماضي، غير أننا فوجئنا هذا العام بتوقفها ؟

ـ إحياء الدراسة بجامع القرويين حلم تحقق، ولم يكن أمل المغاربة فقط بل أمل المسلمين في كل مكان. وقد شاءت إرادة الله أن يتحقق هذا الأمر على يد الملك الحسن الثاني الذي يعرف مكانة القرويين في تكوين الرجال ومكانتها في التاريخ وفي الكفاح الوطني من أجل الاستقلال، فهي التي أعطت من أجل الاستقلال، ذلك الجيل من الوطنيين العلماء المؤمنين بعقيدتهم وبقيمتهم الوطنية والذين يرسمون نموذجا ومثالا للإنسان كما أراده الإسلام، الإنسان الذي يأبى الضيم والاستعباد والذي له شعور بالكرامة، الإنسان المجدد والمتجدد والإيجابي والبناء والصالح في المجتمع. لقد كان العاهل المغربي يدرك هذا الأثر للقرويين تمام الإدراك، وهو أمر لا تراجع فيه. وإنما الخطة التي كانت لدينا عندما نفذنا التعليمات بإحياء الدروس العلمية بالقرويين تتمثل في كون الفوج الأول هو فوج الدراسة في المرحلة الابتدائية ولن يكون هناك فوج ثان في هذه المرحلة الثانوية، آنذاك يدخل فوج جديد للمرحلة الابتدائية. فمخططنا مخطط أفواج وليس مخطط سنوات أولى وثانية وثالثة... والذي

دفعنا إلى سلوك هذه الخطة هو أن البقية الباقية من العلماء الذين هم في مستوى تحمل أمانة إحياء دور القرويين هم قلة، وإذا فتحنا الباب لوجود السنوات المتتالية في وقت واحد فذلك أمر يتطلب عددا كبيرا من العلماء. ونحن نحرص على المستوى العلمي الرفيع، فلا نريد الكثرة بل نريد الكيف لذلك اخترنا أن نسهر على تكوين فوج ابتدائي ثم نسلمه إلى مجموعة من كبار العلماء، يتولون تكوينهم في التعليم الثانوي، ثم ندخل فوجا جديدا في المرحلة الابتدائية وهو ما يجري به العمل. والدراسة مستمرة.

وأود التأكيد أن هؤلاء الطلبة هم صفوة مختارة من بين الطلبة منهم من يحفظ مختصر الشيخ خليل بالإضافة إلى المتون الفقهية واللغوية والعقائد.. ولهم مستوى رفيع يمكنني مقارنته بمستوى الدراسات في الجامعة رغم أنهم لا يزالون في السنة الثانية ابتدائي.

الباب مفتوح للطلاب الأفارقة

• .المغرب هو إحدى البوابات الإسلامية على إفريقيا وخاصة الغربية منها بحكم عوامل تاريخية وجيوسياسية. فهلا فكرتم في تأسيس فروع للقرويين في افريقيا ؟

- أولا نحن نفتح باب القرويين أمام الأفارقة للدراسة به. ونتوفر على معهد عال لتكوين الأطر الدينية بالدار البيضاء، مفتوح للطلبة الأفارقة، ومستعدون لإعطائهم منحا للدراسة بهذا المعهد. وليس في إمكاننا أكثر من هذا في الوقت الراهن، لأن القضية هي قضية مكونين، وإذا كنا نهدف إلى التكوين الصحيح فإنه لا يوجد من هؤلاء العدد الكافي حتى بالنسبة من لمن نريد تكوينهم من المغاربة فأحرى أن نبعثهم إلى الخارج.

ولكن، عندما تتخرج هذه الأفواج من القرويين ستؤدي رسالتها في بلدان أخرى كما هو حال علماء القرويين الذين نشروا الإسلام في عدد من البلدان الافريقية ولا تزال آثارهم شاهدة على ذلك إلى يومنا هذا.

قضايا الجاليات الإسلامية

• يلاحظ أن الجاليات الإسلامية والمغربية منها بالخصوص، الموجودة بالبلدان الأوروبية، تحتاج إلى مؤسسات تربوية وتعليمية إسلامية، فهل هناك اتجاه لإنشاء مثل هذه المدارس لأبناء جاليات المغرب العربي التي تعيش وضعا ثقافيا واجتماعيا صعبا ؟

- الأمر ضروري ومهم، وعملنا من أجله بالفعل، ويكفي أن أعطيك مثالا : الاتفاقيات التي أبرمناها مع عدد من الدول الإسلامية، العراق، مصر، الأردن، الجزائر، وموريتانيا. وتشير كل هذه الاتفاقيات إلى ضرورة التنسيق والتعاون في خدمة الجالية الإسلامية في أوروبا، تعاون في تبادل الخبرات والمعلومات وفي تكوين وفود مشتركة من العلماء الذين يقومون بالدعوة والتنسيق لتعليم اللغة العربية لأبناء جاليتنا الإسلامية هناك. ونحن كوزراء للأوقاف والشؤون الإسلامية لهذه البلدان نعمل جاهدين لإخراج هذه الاتفاقيات إلى حيز التنفيذ. سيزورنا الأخ قاسم بوسنينة، ونحن نهيئ مشروع اتفاق بين المغرب وتونس، وسيكون هذا الموضوع في مقدمة اهتماماتنا نظرا لوجود جالية مغربية وتونسية تعيش نفس الظروف.

رابطة دولية لخطباء الجمعة مقرها في المغرب

• منذ عامين احتضن المغرب المؤتمر العالمي لخطباء الجمعة بفاس فهل تحدثونا عن هذا المؤتمر ؟

- كان المؤتمر الدولي الذي انعقد بفاس تحت الرعاية السامية للملك الحسن الثاني من أهم وأنجح المؤتمرات الإسلامية التي عقدت في المغرب على صعيد العمل المشترك للعلماء ورجال الدعوة الإسلامية وقدمت فيه بحوث على جانب كبير من الأهمية وهي الآن تحت الطبع وستصدر قريبا، ويعتبر صدورها في حد ذاته من

نتائج هذا المؤتمر ومن ثمراته. كما أنه تقرر إحداث رابطة دولية لخطباء الجمعة سيكون مقرها في المغرب وقد قرر العاهل المغربي إعطاءها مقرا خاصا من ماله الخاص.

ونحن نثير في جميع اتصالاتنا مع إخواننا وزراء الأوقاف والشؤون الإسلامية ما صدر عن هذا المؤتمر من توصيات وقرارات، ونسعى إلى جمع الكلمة حولها وإخراجها إلى حيز التنفيذ، فمتابعة أعمال المؤتمر جارية. وأقول إن هذه المؤتمرات الكبيرة لا تصدر قرارات سطحية يمكن استهلاكها إعلاميا وظرفيا. ولكنها تغرس جذورا في عمق الأرض ليكون لها اثر على المدى البعيد. ونأمل إن شاء الله إخراج التوصيات والقرارات وتنفيذها قبل عقد المؤتمر المقبل.

• متى سينعقد هذا المؤتمر ؟

ـ قريبا، ولكن بعد أن نقطع شوطا بعيدا في تنفيذ القرارات السابقة، والا ستكون مؤتمرات بعضها يقرر بعضا بدون جدوى.

ملتقيات الفكر الإسلامي

• في فترة ما فكرت وزارتكم في الدعوة إلى ملتقى للفكر الإسلامي يعاضد ملتقيات الفكر الإسلامي الدورية التي تعقد في الجزائر وكانت قد وجهت رسائل لعدد من المفكرين والعلماء المسلمين في هذا الصدد، فماذا تم في هذا الموضوع ؟

ـ فيما يتعلق بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية لم يسبق لها أن دعت لأي مؤتمر للفكر الإسلامي، والواقع أنه عندنا مؤتمر للفكر الإسلامي ينعقد كل سنة ويدوم شهرا كاملا ويرأسه الملك الحسن الثاني. ويتمثل هذا المؤتمر في الدروس الحسنية الرمضانية. وهي تدوم شهرا كاملا وتبثها التلفزة وتذاع عبر الراديو ويتناول فيها العلماء والمفكرون موضوعات تهم الأمة الإسلامية بكامل الحرية وبمحض اختيارهم، ويدور حولها النقاش. فيكون ملتقى فكريا فريدا من نوعه.

• قامت عدة جهات إسلامية منذ عدة سنوات، بعقد مؤتمرات عالمية للسيرة والسنة النبوية، في عدة عواصم إسلامية، واحتضنت الدوحة المؤتمر الثالث وتم تبني اقتراح بانعقاد المؤتمر الرابع في المغرب. ألا ينوي المغرب استضافة المؤتمر المقبل ؟

ـ المغرب لم يرجئ انعقاد المؤتمر فيه، إنما موضوع السيرة النبوية هو موضوع يتعلق به كل العلماء وكل الشعوب والدول الإسلامية قاطبة وتتنافس فيه، بل تتجاذبه. وهكذا عقد بعد الدوحة في باكستان، رغم أنه لم يكن مقررا كذلك ولكن حب الباكستانيين لرسول الله ﷺ ولسيرته جعلهم يقومون بجميع المساعي لينعقد عندهم. ثم عقد في القاهرة ونحن نعرف تعلق شعب مصر بالسيرة النبوية.

فهذا موضوع يتجاذبه المسلمون، ونحن ننتظر دورنا وسطهم. ومن ذلك عقدنا ندوة كانت على جانب كبير من الأهمية منذ سنتين في مدينة سلا، بالتعاون مع جمعية أبي رقراق، وكان موضوعها السيرة النبوية، حضرها عدد من العلماء والمختصين في هذا الموضوع.

• وهل هناك مبادرة مغربية جديدة لعقد مؤتمر عالمي للسيرة والسنة النبوية بالمغرب ؟

ـ نعم، سينعقد قريبا مؤتمر دولي للسيرة والسنة النبوية في المغرب إذا تفضل إخواننا وسمحوا لنا بذلك.

دراسات إسلامية

الزحف الحضاري الإسلامي

للدكتور محمد كمال شبانة

كانت سياسة العالم عند نشأة الدولة الإسلامية موزعة بين دولتين كبيرتين، ملكتا مصير العالم، وتحكمتا في شؤونه، إحداهما دولة الروم صاحبة النفوذ في أوربا الجنوبية، وفي جزء كبير من الشرق الأدنى وشمال إفريقية. هذه الدولة كانت قد حطمتها الحروب والمصادمات مع دولة الفرس، وهي ثانية الدولتين، وكان له نفوذ كبير في آسيا، وكانت بدورها تشهد نهايتها. وكانت أوربا في ذلك الوقت أسوأ حالاً من دولتي الفرس والروم؛ لأنها كانت فريسة لقبائل من الهمج الذين كانت أمورهم فوضى، وكان الأوربيون يعانون من الانقسامات التي نشرت الدمار في كل مكان، ولم يكترثوا بشيء من المبادئ القومية، ويقال : إن الوطنية أو الدين أو الاستقلال أو الأمة أو غير ذلك من المثل العليا التي تحرص عليها الشعوب المتمدنة لم تكن ذات معنى ثابت في أذهانهم، وربما كانت خيالاً بعيد التحقيق.

وفي الوقت الذي أبدع فيه الإسلام كثيراً من المثل العليا التي اهتدى بها الشعب العربي كانت الأمم ذات الحضارة السالفة قد فقدت مثلها العليا، فلم يبق لحب الوطن أو للأمجاد الدينية أثر في نفوس أبنائها الذين غلبت عليهم مصالحهم الذاتية، وشغلتهم عن كل شيء.

لم يلبث الإسلام أن منح العرب مصالح مشتركة، وآمالاً متماثلة، ووجه جهودهم نحو هدف واحد، مما أدى إلى تجانسهم الروحي في وقت كانت أركان العالم فيه متداعية. وفوق ذلك كانت أمة العرب تتمتع بصفات حربية ممتازة، ولم ينقصها ما يحتاجه الفاتحون من الشجاعة وحب القتال، فقد خبروا ذلك منذ كانوا يمارسون الحروب القبلية، ثم ازدادوا بالإسلام حبا في الشهادة، أملاً في الجنة التي وعدوا بها.

قوبل الدين الإسلامي في انتشاره بالكثير من ضروب المقاومة والتعويق، شأن أي مبادئ جديدة تقدمية تعمل على أن تحل محل تقاليد متوارثة ومثل بالية، وقد كتب للدين الإسلامي أن يخرج من كل معارك المقاومة والتعويق منتصراً، ولم يكن الدين الإسلامي في انتصاره مدينا للزحف البشري المدعم بالقوة الحربية ـ كما ذهب

١) راجع في هذا بالتفصيل «تاريخ الحضارة والفكر الإسلامي» للدكتور أبو زيد شلبي (ط 2. القاهرة).

إليه بعض الدارسين - بل إن الباحث المنصف يرى أن المثل العالية والمبادئ الإنسانية الرفيعة - التي نادى بها الإسلام، وعمل على تطبيقها في المجتمعات التي افتتحها - كانت هي العوامل الحاسمة التي حققت الانتصار.

انتشر الإسلام وبسط سيادته على مناطق شاسعة بالدعوة، وبالدعوة وحدها اعتنقت الشعوب - التي قهرت العرب كالأتراك والمغول - الإسلام، وبالدعوة انتشر الإسلام في الهند وغيرها من الأقطار التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل، وبالدعوة ما انفك عدد المسلمين يزيد يوما بعد يوم.

حينما اتصل العرب - منذ الوقائع الأولى - بسكان البلاد المجاورة وجدوهم على استعداد لتقبلهم؛ لأنهم كانوا يأملون فيهم العدل، ثم إن قادة المسلمين أحجموا تماماً عن حمل أي فرد بالقوة على الإسلام، ولكن جعلوا حسن السياسة رائداً لهم، وابتعدوا عن الالتجاء إلى السيف، وأعلنوا احترامهم لديانات الشعوب وعاداتهم، مكتفين في مقابل حماية هذه الشعوب بضريبة مالية لاتقارن في بساطتها بالضرائب التي كانت تدفع للسادة السابقين، والتزم العرب بالشروط التي عقدوها مع المغلوبين، وتمكنوا بحسن سياستهم من حمل الكثيرين على اعتناق الإسلام عن عقيدة واقتناع، وتعلم لغة الدين الجديد.

ظل نفوذ العرب الديني واللغوي ثابتاً في البلاد التي افتتحوها حتى بعد أن نزعت سيادتهم السياسية منها، ورسخ النفوذ الديني بخاصة في الأقطار التي فتحوها رسوخاً لم يستطع فاتح أن يزعزعه.

الحضارة العربية والإسلام

تعنى الحضارة عموماً تقصى مظاهرها المادية والمعنوية، تلك المظاهر التي يتألف من مجموعها تاريخ الأمة، ومدى ما بلغته حضارياً باعتبار مستوى الأمم الأخرى المعاصرة، ولن يكون بلوغها هذا المستوى فجأة أو قفزة واحدة، وإنما تبلغ ذلك على مدى الأجيال التي تتوالى، ويتكفل كل جيل منها بما تفرضه ضرورات الحياة نحو مستقبل أفضل، وعليه فالحضارة سلسلة متصلة الحلقات، كل منها ثمرة لسابقتها، وهذا مانلحظه جليا في حضارة الأمة العربية منذ القدم، حتى جاء الإسلام فكان نقطة ارتكاز لتطور حضاري جديد، وذا تأثير على جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعلى سبيل المثال - لا الحصر طبعاً - هذه الجوانب.

نرى الإسلام من الجهة السياسية قد دعا إلى حرية الرأي والشورى، وحدد العلاقة بين الحاكم والمحكوم، ومن **الوجهة الاجتماعية** نراه قد حارب التعصب للجنس أو العقيدة، ونادى بالمساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات، وبحرية العقيدة في ظل القانون، كما حارب استعباد الإنسان لأخيه الإنسان، وبالنسبة لقسيم المجتمع وهو المرأة نراه يضعها حيث أهلتها الطبيعة، موصياً بشأنها أيما إيصاء، منظماً للعلاقة بينها وبين الرجل. ومن **الوجهة الاقتصادية** نرى الإسلام يحترم الملكيات العامة لصالح المجموع، ولم يفته أن ينبه على الالتزامات الواجبة على الإنسان نحو فئات معينة في المجتمع، كما وضع نظاماً محدداً ودقيقاً للميراث، موضحاً كافة مستحقيه.. إلى غير ذلك.

وهكذا نلمس بوضوح وجلاء أن مثل هذه القوانين وتلك المبادئ قد صاغت الأمة العربية في تقويم مابعده تقويم، وأهلتها لدور حضاري عشنا على تراثه، واستقى من نبعه غير العرب كما سنرى في هذا العرض. لكن لامناص من القول أن بعض هذه المبادئ قد كان لدى العرب، تبعا لما قررناه من نظرية التطور الحضاري قبل الإسلام في صورة اتجاهات أو تقاليد، فإن نسبناها إلى الإسلام فإنما لأنها - أي هذه المبادئ - قد اكتسبت في هذا الدين طابعاً خاصاً، وتميزت بروح جديدة.

قلنا إن العالم آنئذ كانت تتنازعه دولتان لهما حجمهما ووزنهما، تتحكمان في شؤونه، أولاهما : دولة الفرس ذات النفوذ العظيم في آسيا، وذات النزاع الطويل المدى مع دولة الروم وهي الدولة الأخرى، التي بسطت نفوذها في أوربا الجنوبية، وفي مساحة

عظيمة من الشرق الأدنى والشمال الإفريقي، وكلا الدولتين كانت تسودهما علاقات سيئة للغاية، بحيث قد نالت الحروب الطاحنة من كليهما بفعل الاحتكاكات المباشرة. ولم تكن أوربا عامة حينئذ بأحسن حالاً، إذ كانت تعاني من عوامل انتشار الفوضى والانقسامات المذهبية ففقدت تلك الأمم مثلها العليا وسادت بينها المبادئ الذاتية والأنانية، في الوقت الذي منح الإسلام فيه أهله المثل العليا، والأهداف السامية، تجانس روح وحب أوطان ووحدة كفاح، وقد نمى كل هذا لدى العرب استعداد فطري لما تنشده النفس البشرية نحو سعادتها في الدارين، مروءة وشجاعة، وفروسية بلورها الإسلام، فأضحت حبا في أن ينال أصحابها شرف الشهادة، أملا في جنات عدن، «وعد الله، لا يخلف الله وعده».

ولم تكن الطريق أمام الدعوة الإسلامية مفروشة بالورود والرياحين، شأن أي دعوة تقدمية في مثل تلك الظروف العالمية، والتقاليد البالية المتوارثة، وهكذا كان لابد للإسلام من معوقات ومصادامات، ومع هذا فقد عقد الله للوائه النصر المبين. وغنى عن البيان أن ديناً يبشر بمثل هذه المبادئ الرفيعة السامية لصالح البشرية جمعاء ـ لجدير به أن يحقق الانتصار المنشود على المدى البعيد، لاسيما وأن تطبيقه لتلك المبادئ بين المجتمعات التي فتحها كان رائده الأول، ومن هذا المنطلق نستنتج ضعف بل بطلان نظرية بعض المستشرقين، تلك التي تقول : إن الدين الإسلامي مدين لانتصاراته بالزحف البشري المدعم بقوة السلاح.

لقد أدى الرسول ﷺ دوره كمؤسس للدولة الإسلامية في الجزيرة العربية. وكانت الوحدة السياسية بين ربوع الجزيرة نتيجة حتمية للوحدة الدينية التي غرس الرسول بذورها فأنبتها الله نباتاً حسناً، وتعهدها الخلفاء الراشدون بما أوتوا من حكمة الرأي، ورباطة الجأش والقدوة المثلى، بحيث لم تبزغ شمس القرن السابع الميلادي إلا وقد نشأت في العالم دولة عظيمة لأول مرة في التاريخ، حاملة لواء حضارة إنسانية فريدة، وأقبل البشر يدخلون في دين الله أفواجاً، واتسعت رقعة الأمبراطورية الإسلامية فشملت بقاعاً فسيحة الأرجاء، مترامية الأطراف، تجمعها وحدة الدين واللغة والهدف، وفي ظل هذه الوحدة خفق لواء الحضارة العربية في طول البلاد وعرض الأقطار ما يقرب من تسعة قرون، كان العرب والمستعربون خلالها يبذلون قصارى جهدهم في سبيل إسعاد الإنسانية قاطبة.

فخلال القرن الأول... استطاع الخلفاء الراشدون فتح أقاليم فارس وسوريا والعراق ومصر، وشارفت جيوش الخليفة عثمان أقاليم الهند، ثم جاء معاوية مؤسس دولة بني أمية واتخذ من دمشق عاصمة، ومن هذه البقعة بالشام زحفت جيوشه إلى إفريقيا الشمالية، وتمكن بأسطوله من الاستيلاء على عدد من جزر البحر المتوسط، وتبعه خلفاؤه من بعده لتصل جيوشهم حدود الصين، كما تم لهم فتح إسبانيا، التي ظلت دولة الإسلام بها نحواً من ثمانية قرون، كما توغلوا في جنوبي فرنسا، ولم يثنهم عن متابعة الفتوح في أوربا إلا نداء الخليفة في دمشق بإيقاف الزحف، لسبب أو لآخر...

ويأتي القرن الثاني... لنجد العرب قد صرفوا همهم إلى تنظيم وتنسيق الدولة، وأضحت بغداد عاصمة الخلافة العباسية التي أنشأها الخليفة المنصور عام 762م، وفي هذه الفترة بلغت الفتوحات أوجها، ولا سيما بعد أن فتح المسلمون شطراً لابأس به من آسيا، واتجهت الجهود العباسية وخاصة في العصر الأول ـ إلى الارتقاء بمركز العرب الحضاري، وهكذا نرى العلوم والفنون والآداب وقد ازدهرت أيما ازدهار في عصري الرشيد والمأمون، ثم ما لبثت بعدهما روابط الأمة الإسلامية تنحل عراها، وتجلى هذا في استقلال الأقطار الإسلامية الواحدة تلو الأخرى، وإن ظلت الحضارة العربية في مسيرتها، وتنافست الشعوب الإسلامية في سبيل ازدهارها.

ويأتي القرن الثالث... ليشهد تطورات هامة، لعل أبرزها أن الخضوع المفروض للسلطة المركزية في المدينة أو دمشق أو بغداد قد أصابه انسلاخ عن هذه المركزية، وأضحى العمال يستولون على السلطة، ومن ثم يستقلون بالأقاليم التي يهيمنون عليها. فمن هذه الظواهر قيام الدولة

الأموية الجديدة في الأندلس (أوائل العقد الخامس من القرن الثاني الهجري / منتصف الثامن الميلادي). وماثلا ذلك شمال الجزيرة، من ظهور الحسن بن زيد على الشاطئ الجنوبي لبحر قزوين، وتأسيسه دولة علوية هناك، وفي الجنوب كانت حركة الدعى العلوى صاحب الزنج، الذي قاد حركة قوامها طبقة العبيد الكادحين، فكانت ثورة مدمرة، ظهرت بادئ ذي بدء بالبصرة، وسرعان ما استولت على البلاد المجاورة. أما في مصر فقد استقل أحمد بن طولون بحكمها، بعد صراع عنيف مع الخليفة الموفق بالله العباسي، ويكاد يكون القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)... امتدادا للانقسامات التي أصابت العالم الإسلامي، بحيث فقدت بغداد مركزها القيادي، وتلقفت الراية القاهرة لتكون قاعدة الإسلام، ومنطلقا له. وفي ثنايا القرن الخامس (الحادي عشر الميلادي) يأتي الأتراك السلاجقة لينتزعوا السلطة من خلفاء بني العباس، وتدور رحى الحرب الصليبية، فتتضاعف المحن على الشرق الإسلامي خاصة، ويتقلص جسم الإسلام في بعض مناطقه، لاسيما في صقلية والأندلس.

وخلال القرنين السادس والسابع (الثاني عشر والثالث عشر الميلادي)... يتمكن المسلمون من طرد الصليبيين بعد صراع مرير، ولكن سرعان ماداهم المسلمين خطر المغول، بعد أن استولوا على بغداد (عام 656 هـ/1258م) وبذا سقطت الخلافة العباسية، بعد أن عمرت نحوا من خمسة قرون.

وفي القرن الثامن (الرابع عشر الميلادي)... يدخل المغول في صراع عنيف للاستئثار بالسلطة في المشرق العربي، ويتميز القرن التاسع (الخامس عشر الميلادي)، بانحسار دولة الإسلام عن الأندلس، بعد أن عمرت به نحو ثمانية قرون، وذلك بسقوط غرناطة بالتسليم في يد الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا (2 يناير 1492م).

هذا، وينبغي ألا يغرب عن أفكارنا أن هذه الحركات الاستقلالية في العالم الإسلامي، وتلك التطورات السياسية في هذا القطر أو ذاك، إنما هي على المدى البعيد تعبير جَلِيّ عن الأحاسيس القومية والإقليمية؛ فمن المعلوم أن الإسلام انتشر انتشاراً قوياً وسريعاً على مسافات جد فسيحة واسعة، وبسط سلطانه بمبادئه على أقوام ذوي عراقة حضارية مشهورة كالفرس والمصريين، فوجد هؤلاء وأولئك في قومياتهم - إبان خضوعها للسلطة المركزية في دمشق ثم في بغداد - متنفسا في الحركات الاستقلالية التي تهت في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وما تلاه، ومن الإنصاف القول هنا بأن هذه الحركات كانت خيراً وبركة من الوجهة الحضارية لا أكثر؛ فقد أضرمت نيران التنافس بين البيئات الإسلامية فكراً وإنتاجاً في شتى ألوان المعرفة، ذلك التنافس الذي بشر بالنهضة العربية الشاملة عندما بلغت الدولة أوجها في هذا المجال الإنساني، ولا أدل على ذلك من تلك الحضارة التي ظلت ماثلة للعيان، ومرتعا خصباً للدراسات العالمية.

القاهرة - د. محمد كمال شبانة

من الإعجاز القرآني

صيانة السنة

للأستاذ المكي اقلاينة

نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ لهداية الناس إلى الدين القويم، ومنقذا لهم من ضلالة الكفر، مقدما لهم الدليل تلو الدليل على صدق رسالة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، متحديا البشرية جمعاء أن يضاهوه، كما في قوله تعالى : ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا**﴾[1]. فلما ظهر العجز من القوم، تحداهم بالإتيان بعشر سور مثله، كما في قوله عز وجل : ﴿**أم يقولون افتراه، قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾[2]، إلا أنهم ما قدروا على ذلك، فانتقل بهم إلى أقصى التحدي عندما طالبهم بالإدلاء ولو بما يشبه سورة واحدة، كما يتضح من قوله تعالى : ﴿**أم يقولون افتراه، قل فاتوا بسورة مثله، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾[3].

وهذه الطريقة في مواجهة المنكر ومطالبته بالاستجابة للقدر الأدنى، لا تصدر إلا من جهة متيقنة كل اليقين أن لا مناص للطرف الآخر من الإذعان والإعلان عن العجز، وهي بالتالي أفضل وسيلة لإفحام المخالف.

يضاف إلى ما سبق ذكره إخباره تعالى بقضايا ستحدث، ما تزال مطوية في عالم الغيب، ثم تقع كما نص عليها القرآن الكريم، كما ورد في قوله عز وجل : ﴿**ألم، غلبت الروم في أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيغلبون، في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المومنون بنصر الله**﴾[4].

ويطلع علينا تحد آخر، يلمسه العالم والعامي، ألا وهو حفظه تعالى لكتابه من الزيادة والنقصان والتحريف، وبقاؤه إلى حد الآن محفوظا أكبر دليل على صيانة الله تعالى له بدفع المسلمين إلى حفظه منذ عهد الرسول المصطفى، وكتابته بشكل جماعي، ونقله عنهم بنفس الطريقة إلى أن وصل إلينا، ولو تجرأ أحد على تحريف آية، لقام أكثر من واحد ليصحح ذلك، إذ لا يمكن أن تتفق

1) سورة الإسراء، آية : 88.
2) سورة هود، آية : 13.
3) سورة يونس، آية : 38.
4) سورة الروم، آية : 1 ـ 2.

الأمة على السكوت على الضلال، وهكذا، يتحقق وعد الله : **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**[5].

ولو أنه أمكن وقوع الزيف في القرآن، لأدى ذلك إلى تحريف الشريعة وإدخال أحكام فيها لا تمت إليها بصلة. لكن، شاءت مشيئة الخالق أن يحفظ الدين الإسلامي، وأن يتنزه مصدره السامي عن كل الشوائب.

إلا أن المتأمل في القرآن، يجده محتاجا إلى البيان، وهو أمر موكول إلى رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام. وفي ذلك قال الباري سبحانه : **﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾**[6].

وسبب هذا البيان أن من الآيات ما جاءت مجملة تحتاج إلى تفصيل كما هو الشأن في الآيات المتعلقة بالأمر بالصلاة، فقد وردت دون بيان لكيفيتها ولعدد ركعاتها وسجداتها، فقام الرسول بتوضيح ذلك.

كما أن من الآيات ما وردت مطلقة في حين أن المراد قسم محدد، فقامت السنة بتقييدها بقيد يقلل شيوعها، فقد ورد الحكم الشرعي في الكتاب بقطع يد السارق في قوله تعالى : **﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾**[7] واليد في العربية تطلق على العضو المبتدى بالكتف والمنتهي بالأنامل، فيعتقد المرء أن القطع لكل هذا العضو، إلا أن السنة حددت القطع بالرسغ.

وبالإضافة إلى ذلك، جاءت آيات ذات حكم عام، كما في قوله عز وجل : **﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾**[8]، فكان الحكم عاما وشاملا لكل الأولاد، فقامت السنة بتخصيص هذا العموم بأن الذي يشمله الحكم هو الولد غير القاتل، أما الولد القاتل مورثه، فلا يرث، لقوله عليه السلام : «لا يرث القاتل».

5) سورة الحجر، آية : 9.
6) سورة النحل، آية : 44.
7) سورة المائدة، آية :
8) سورة البقرة، آية :
وبناء على هذه المسألة، قرر الفقهاء قاعدة فقهية : من تعجل الأمر قبل إبانه، عوقب بحرمانه.

وإلى جانب هذه الأدوار التي تقوم بها السنة، نجدها تضيف أحكاما جديدة لم ترد في القرآن، كتحريم لحم الحمر الأهلية، وكل ذي ناب من السباع[9]...

وإذا كان الأمر كما قلنا، فإن القرآن محتاج إلى السنة، إذ بدونها لا يمكن أن تفهم جملة من الآيات، ولا يمكن للمرء أن يعرف كيفية الصلاة، ولا مقدار الزكاة، الشيء الذي سيؤدي إلى تعطيل الأحكام لو أننا تجاهلناها لذلك، كان التأكيد في القرآن على ضرورة اتباع سنة رسول الله وطاعته، حيث قال عز وجل : **﴿وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا، واتقوا الله، إن الله شديد العقاب﴾**[10]، وقال أيضا : **﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾**[11]، وقال أيضا : **﴿فلا وربك، لايومنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم. ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت، ويسلموا تسليما﴾**[12].

والرسول قد أمر ونهى، فكان من اللازم اتباع قوله لأنه تشريع للمسلمين، فهل يتصور ضياع شيء منه ؟ ثم هل يتصور اختلاط السنة بافتراء المفترين ؟

إن تصور إمكان ذلك، يعني إمكان كون الشريعة ناقصة حاليا لجهلنا بكثير من الأحكام، كما يعني أن علماء الأمة الإسلامية قد فرطوا فيها بعد اكتمالها، وفي كتاب الله العزيز : **﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام دينا﴾**[13]، كما يعني أيضا اختلاط المنهج الرباني بكذب المدعين إلى حد عدم القدرة على التفرقة بين هذا وذاك.

9) هناك من العلماء من يقول إن ما يبدو أنه إضافة جديدة، إنما يعتبر من نوع البيان أو الإلحاق لما ورد في القرآن.
10) سورة الحشر، آية : 7.
11) سورة النساء، آية : 80.
12) سورة النساء، آية : 65.
13) سورة المائدة، آية : 3.

إن الدارس لكتاب الله، يجد قوله تعالى عن رسوله : **﴿وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى﴾**[14]، كما يجد أيضا : **﴿إن اتبع إلا ما يوحى إلي﴾**،[15] وقال عز وجل آمرا رسوله : **﴿لتبين للناس ما نزل إليهم﴾**[16]، وفي هذا الوحي قال سبحانه : **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**[17].

وبناء على ما سبق ذكره من الآيات، أكد ابن حزم على أن كلام رسول الله ﷺ كله في الدين وحي من عند الله عز وجل، وأنه لا خلاف بين أحد من أهل اللغة والشريعة أن كل وحي نزل من عنده سبحانه فهو ذكر منزل، وهو كله محفوظ بحفظ الله تعالى له بيقين، وكل ما تكفل الله بحفظه فمضمون أن لا يضيع منه وأن لا يحرف منه شيء أبدا تحريفا لا يأتي البيان ببطلانه، «فإذ كان ذلك كذلك، فبالضرورة ندري أنه لا سبيل البتة إلى ضياع شيء قاله رسول الله ﷺ في الدين، ولا سبيل البتة إلى أن يختلط به باطل موضوع اختلاطا لا يتميز عن أحد من الناس بيقين، إذ لو جاز ذلك، لكان الذكر غير محفوظ...»[18].

وهذه نظرة دقيقة لابن حزم تحسب له، ولنا أن نتساءل الآن عن كيفية هذا الحفظ ؟

لقد خلق الله أمة حريصة على نقل شريعة الله بأمانة، بعيدة عن الأهواء واختلاق الكذابين، هذه الأمة التي لما أمرها رسول الله ﷺ بالاحتشاد في المسجد ليخطب فيها، قالت جماعة : «دونك أول كلمة يتكلم بها رسول الله ﷺ، وأنت التي تليها، لئلا يفوتكم شيء من كلام رسول الله ﷺ»[19].

وكانت رواية الحديث تعتمد فيما تعتمد، على الكتابة[20]، فنجد عبد الله ابن عمرو بن العاص له صحيفة يسميها «الصادقة»، كتبها بين يدي الرسول، وعند أبي بكر الصديق صحيفة في الصدقات (أي الزكوات)، وعند علي بن أبي طالب صحيفة في الدماء (أي العقوبات المتعلقة بالجراح والقتل) معلقة في غمد سيفه...

إلا أن الرواية المكتوبة لم تكن منتشرة وشائعة، فقد كانت الصبغة العامة لنقل الحديث : الرواية الشفوية. فكيف تم ضبطها ؟

لقد كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه ويحدثهم في دار الأرقم أول الأمر، ثم في بيته، وبعد بناء المسجد، سينتقل التعليم إليه. والتعليم في المساجد مفضل عند العلماء، لأن هذه الوسيلة تقوم بتعميم المعرفة، وتجنب الناس الحرج الذي قد يحسوه في منزل يحتاج أهله إلى قضاء الحاجات. وفي ذلك، قال ابن الحاج العبدري : «...والمقصود بالتدريس كما تقدم، إنما هو التبيين للأمة، وإرشاد الضال وتعليمه، ودلالة الخيرات، وذلك موجود في المسجد أكثر من المدرسة ضرورة، وإذا كان المسجد أفضل،

---

14) سورة النجم، آية : 4.
15) سورة الأحقاف، آية : 9.
16) سورة النحل، آية : 44.
17) سورة الحجر، آية : 9.
18) ابن حزم : الأحكام 121/1 ـ 122، ويعتبر ابن حزم أول من صرح في تحليل متماسك، انه لم يضع من الحديث شيء.
19) الكتاني : التراتيب الإدارية 236/2، وأخرجه أبو نعيم عن أبي أمامة.
20) لقد وردت أحاديث تنهى عن كتابة الحديث، منها رواية أبي سعيد الخدري أن النبي عليه السلام قال : «لا تكتبوا عني شيئا سوى القرآن، فمن كتب عني غير القرآن فليمحه»، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نكتب الأحاديث، فقال : ما هذا الذي تكتبون ؟ قلنا : أحاديث سمعناها منك. قال : أكتابا غير كتاب الله تريدون ؟! ما أضل الأمم قبلكم إلا ما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله. قال أبو هريرة : فقلت : أنتحدث عنك يا رسول الله ؟ قال : نعم، تحدثوا عني ولاحرج، فمن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار».
إلى جانب ذلك، وردت أحاديث تبيح الكتابة، كما في رواية ابن عمر وقال : «يا رسول الله، أقيد العلم ؟ قال : نعم، قلت : وما تقييده ؟ قال : الكتاب» انظر التفصيل عند الخطيب : تقييد العلم. وقد فسر العلماء هذا التعارض بأقوال، منها أن المنع كان في بداية الأمر خشية اختلاط الحديث في القرآن، فلما أمن اللبس، أباح الكتابة.
21) إبن الحاج العبدري : المدخل 85/1، وانظر تفصيل ذلك في النظم التعليمية عند المحدثين في القرون الثلاثة الأولى ـ الفصل الأول ـ من تأليفنا ـ في مرحلة الطبع.

فينبغي أن يبادر إلى الأفضل ويترك ما عداه، اللهم إلا لضرورة، والضرورات لها أحكام أخر»[21].

وكان عليه السلام يبعث أصحابه أفرادا وجماعات إلى القبائل قصد تعليم أهلها الدين الإسلامي، كعمار بن ياسر الذي بعثه إلى حي من قيس[22]، ومعاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري اللذين بعثهما إلى اليمن[23]، وحرام ـ خال أنس ـ الذي أرسله في سبعين من الأنصار يقال لهم القراء، إلى قوم لتعليمهم[24].

وكانت الرحلة إلى الرسول للسماع منه، فانتشر حديثه بين الصحابة، يبلغ الحاضر الغائب لحثه عليه السلام على ذلك، إذ قال فيما رواه عنه عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه : «نضر الله امرأ سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع»[25].

وعلى هذا، نجد الصحابة في تمام التركيز وهم في مجلس رسول الله ﷺ، فإذا قام، تذاكروا فيما بينهم حديثه قصد حفظه وضبطه، فهذا أنس بن مالك رضي الله عنه يقول : «كنا نكون عند النبي ﷺ، وربما كانوا نحوا من ستين إنسانا، فيحدثنا رسول الله ﷺ، ثم يقوم، فنتراجعه بيننا هذا وهذا، فنقوم وكأنما قد زرع في قلوبنا»[26].

وهذه المذاكرة ازداد عمقها وأثرها في عهد الصحابة، خصوصا وقد التحق الرسول بالباري عز وجل، إذ أحسوا، أكثر من أي وقت مضى، بضرورتها لضبط الحديث ونشره، لذلك نراهم يحثون طلبتهم عليها، لأن تركها يؤدي إلى تفلت الحديث من الذهن، فعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : «تذاكروا هذا الحديث وتزاوروا، فإنكم إن لم تفعلوا يدرس»[27].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : «تذاكروا الحديث، فإن ذكر الحديث حياته»[28].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ردوا الحديث واستذكروه، فإنه إن لم تذكروه ذهب، ولا يقولن رجل لحديث قد حدثه : قد حدثته مرة، فإنه من كان سمعه يزداد به علما، ويسمع من لم يسمع»[29].

ونتيجة ذلك، أنه إذا أخطأ أحد الرواة، يصحح له آخر خطأه، فلما روى عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال : «الشهر تسع وعشرون، وأخبرت عائشة بذلك، قالت : «يرحم الله أبا عبد الرحمن، إنما قال : الشهر يكون تسعا وعشرين»[30].

وبهذا، يتضح أن الصحابة كانوا حريصين على ضبط السنة ضبطا دقيقا، يصل إلى درجة الوقوف عند الحرف الواحد، ويتكبدون مشاق الرحلة إلى من سمع معهم حديثا معينا قصد التأكد من ضبطهم له. من ذلك، ما رواه عبد الله بن بريدة «أن رجلا من أصحاب النبي ﷺ رحل إلى فضالة بن عبيد، وهو بمصر، فقدم عليه وهو يمد لناقة له، فقال : مرحبا. قال : أما إني لم آتك زائرا، ولكن سمعت أنا وأنت حديثا من رسول الله ﷺ، رجوت أن يكون عندك منه علم. قال : ما هو ؟ قال : كذا وكذا...»[31].

وبهذه الطريقة، حافظ الصحابة على حديث رسول الله ﷺ، ونشروه في الأصقاع علما وعملا. وهم أنفسهم ما كانوا ينتقلون من آيات إلى أخرى حتى يعلموا ما فيها ويعملوا بمضمونها، يدل على ذلك، ما رواه أبو عبد الرحمن السلمي قال : «حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر

---

22) المنذري : الترغيب والترهيب 91/1.

23) أبو نعيم : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء 256/1.

24) صحيح البخاري : وتر 7، مغازي 28، وصحيح مسلم : مساجد 301، إمارة 147، ومسند أحمد بن حنبل 270/3.

25) جامع الترمذي 372/3 وقال : حديث حسن صحيح، وانظر سنن أبي داود : علم 10، وسنن ابن ماجة : مقدمة 18، ومناسك 76، وسنن الدارمي، مقدمة 24، ومسند أحمد 437/1، 225/3، 80/4 ـ 82، 183/5.

26) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه 127/2.

27) سنن الدارمي 150/1، ومستدرك الحاكم 95/1، وابن عبد البر : جامع بيان العلم 101/1.

28) مستدرك الحاكم 95/1.

29) سنن الدارمي 147/1.

30) مسند أحمد بن حنبل 51/6.

31) سنن الدارمي 142/1.

آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا : فعلمنا العلم والعمل»[32].

وعن علي بن أبي طالب قال : «يا حملة العلم، اعملوا به، فإنما العالم من علم ثم عمل، ووافق علمه عمله»[33].

ومما لا شك فيه، أن التطبيق العملي للعلم يزيده رسوخا في الذهن. وهذا الارتباط الوثيق بين العلم والعمل راجع إلى كون المسلم مأمورا بتطبيق التعاليم الدينية، سواء ورد الأمر في كتاب الله عز وجل، أو في حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام، الأمر الذي يجعلنا نجزم أن هذا الجيل ما كان ليحيد عن تطبيق ما بلغه عن الخالق من أوامر، خصوصا مع العلم بالوعيد الذي ينتظر من يعلم ولا يعمل.

وعلى هذا الأساس، فرواية الحديث كانت عن طريق الكتابة منذ عهد الرسول، والمشافهة التي عمل على ضبطها كل من المذاكرة والرحلة والتطبيق. فبقيت السنة نقية من الشوائب لوعي المسلمين بخطورة القضية، إذ أن عدم ضبطها يعني إمكانية دخول أحكام في الشريعة في حين أنها براء منها، لذلك، نجد عن الصحابة من يستحلف الراوي، كصنيع علي بن أبي طالب مع ثقة الراوي. وفي هذا الشأن قال : «كنت إذا سمعت عن رسول الله ﷺ حديثا، نفعني الله عز وجل بما شاء أن ينفعني منه، وإذا حدثني غيره استحلفته، فحدثني أبو بكر، وصدق أبو بكر...»[34].

وكصنيع عمر بن الخطاب مع أبي موسى الأشعري عندما استأذن عليه ثلاثا فلم يؤذن له فرجع، فأرسل في إثره فقال : «مالك لم تدخل ؟ فقال أبو موسى : سمعت رسول الله ﷺ يقول : الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك فادخل، وإلا فارجع. فقال عمر : ومن يعلم هذا ؟ لئن لم تأتني بمن يعلم ذلك لأفعلن بك كذا وكذا. فخرج أبو موسى حتى جاء مجلسا في المسجد يقال له مجلس الأنصار، فقص عليهم الأمر وقال : فإن كان سمع أحد منكم فليقم معي. فقالوا لأبي سعيد الخدري : قم معه - وكان أبو سعيد أصغرهم - فقام معه، فأخبر بذلك عمر بن الخطاب»[35].

وما كان ذلك بتكذيب منهم لبعضهم، فهم عدول والحمد لله بشهادة الخالق وشهادة رسوله، وإنما هو للاطمئنان القلبي، كالذي قاله إبراهيم لربه : «وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى. قال أو لم تومن. قال بلى ولكن ليطمئن قلبي»[36]، وإلا، فإن عليا إنما كان يستظهر بالأيمان على بعض من حدثه ليسوق لفظ النبي ﷺ كما حدثه ولا يرويه على المعنى[37]، وهذا منه زيادة في التحري والضبط. وأما موقف عمر، فإنه يتضح عند دراستنا للحديث كاملا، حيث نجده يقول لأبي موسى : «أما إني لم أتهمك، ولكني خشيت أن يتقول الناس على رسول الله ﷺ». وقد احتمل ابن عبد البر أن يكون عمر رحمه الله كان عنده في ذلك الحين من لم يصحب رسول الله من أهل العراق والشام وغيرهم، لم يستحكم الإيمان في قلوب جماعة منهم، وهؤلاء ممن يجوز عليهم الكذب عند الرهبة والرغبة أو طلبا للحجة، وفرارا إلى الملجإ لقلة علمهم بما في ذلك عليهم، فأراد عمر أن يريهم أن من فعل ذلك منهم ينكر عليه، ويجب التثبت فيما يرويه إذا لم تعرف حاله حتى يصح قوله، ففعل ذلك مع أبي موسى، وإن كان عنده معروفا بالعدالة غير متهم، ليكون ذلك أصلا وقاعدة عندهم[38].

لما دخل الإسلام إذن، أقوام في نفوسهم مرض، هدفهم من إسلامهم تقويض صرح الدين من الداخل بعد فشلهم من هدمه من الخارج، وأرادوا أن يتزيدوا على الرسول، نجد من

32) مسند أحمد 410/5، وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى بنحوه 172/6.

33) ابن عبد البر : جامع بيان العلم 7/2.

34) أخرجه أحمد والنسائي والترمذي وابن ماجة وغيرهم.

35) أخرجه البخاري ومسلم ومالك وغيرهم.

36) سورة البقرة، آية : 260.

37) أبو الوليد الباجي : إحكام الفصول، ص : 335.

38) ابن عبد البر : التمهيد 200/3.

يقف في وجههم، وقد تبين لنا أن المحدثين، ابتداء من عهد الصحابة، يتقصون كلام رسول الله تقصيا دقيقا.

ثم سيظهر البحث في الرجال منذ وقت مبكر جدا، كما يثبته لنا النص المنقول عن محمد بن سيرين - وهو من علماء التابعين - الذي قال فيه : «لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة، قالوا : سموا لنا رجالكم. فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع، فلا يؤخذ حديثهم ومن طريف الوقائع التي تثبت حرص المحدثين على السنة وأخذهم عن العدول من الرواة، ما رواه عفير بن معدان قال : «قدم علينا عمر بن موسى حمص، فاجتمعنا إليه في المسجد، فجعل يقول : ثنا[40] شيخكم الصالح، ثنا شيخكم الصالح، فلما أكثر، قلت له : ومن شيخنا الصالح ؟ سمه لنا حتى نعرفه. فقال : خالد بن معدان، قلت : في أي سنة لقيته ؟ قال : لقيته سنة ثمان ومائة. قال : قلت : وأين لقيته ؟ قال : لقيته في غزاة أرمينية. قال : قلت له : اتق الله عز وجل يا شيخ، لا تكذب، مات خالد بن معدان سنة أربع ومائة، فأنت تزعم أنك لقيته بعد موته بأربع سنين. وأزيدك آخر، إنه لم يكن يغزو أرمينية، كان يغزو الروم»[41].

وهذه الطريقة التي استعملها عفير مع عمر بن موسى داخلة في لب منهج المحدثين، إذ يقومون بتحديد تواريخ الولادات والوفيات والرحلات لمعرفة مدى إمكان لقاء الراوي للمروي عنه. وفي ذلك، قال سفيان الثوري : «لما استعمل الرواة الكذب، استعملنا لهم التاريخ».

☆ ☆ ☆

ثم تدخل السنة طورا جديدا، ألا وهو التدوين الرسمي لها، ويجد الباحث تلك المحاولة الأولى التي قام بها عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي (ت 85 هـ) - والد عمر بن عبد العزيز - فيما رواه الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب أن عبد العزيز كتب إلى كثير بن مرة الحضرمي - توفي ما بين سنة 70 هـ و80 هـ[42] وكان قد أدرك بحمص سبعين بدريا من أصحاب رسول الله ﷺ، يطلب منه أن يكتب إليه بما سمع من أصحاب رسول الله ﷺ من أحاديثهم، إلا حديث ابن هريرة، «فإنه عندنا» كما قال،[43] فقد كان سمعه منه[44].

وإذا أخذنا بعين الاعتبار المدة التي كان فيها عبد العزيز أميرا - وهي تمتد ما بين سنة 65 هـ و85 هـ - ووفاة كثير الحضرمي، استطعنا أن نحدد الفترة التي وجه فيها عبد العزيز طلبه ما بين سنة 65 هـ و80 هـ.

وإذا علمنا أن عبد العزيز كان محبا للعلم وأهله، متفانيا في خدمة الدين[45]، استطعنا ترجيح كون النداء في السنين الأولى من إمارته، ومن البدهي أن يستجيب كثير الحضرمي لهذا النداء، خصوصا وأنه وجه إليه من الأمير، ولأنه قادر على تنفيذه لعلمه، لكن، ما لناعن كتابه خبر. فلعله لم يكتب له الذيوع ولم يطلع عليه إلا الأمير، أو هو وبعض خواصه، وإلا فإنه يبقى احتمال أخير، وهو أن الطلب وجه إلى كثير في السنين الأخيرة عن حياته فلم يتمكن من تنفيذه، ولم ينتشر الخبربين الناس لأن الأمير لم يأمره بحث العلماء على تدوين الحديث.

في جميع الحالات، كان الشعور بضرورة التدوين منذ وقت مبكر جدا، وعدد غفير من الصحابة على قيد الحياة يمكن سؤالهم.

ثم سيتكرر هذا النداء على عهد عمر بن عبد العزيز الذي تولى الخلافة سنة 99 هـ، وتوفي سنة 101 هـ، إذ أرسل إلى أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم (ت 120 هـ) عامله وقاضيه على المدينة : «انظر ما كان عن حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب

39) مقدمة صحيح مسلم 84/1.

40) ثنا : اختصار لكلمة : حدثنا.

41) يعقوب البسوي : كتاب المعرفة والتاريخ 152/1.

42) ابن حجر : تهذيب التهذيب 429/8.

43) ابن سعد : الطبقات الكبرى 157/2/7، وابن حجر : تهذيب التهذيب 429/8.

44) ابن حجر : تهذيب التهذيب 356/6.

45) يوسف بن تغري بردي : النجوم الزاهرة 171/1 - 174.

العلماء»، كما أرسل أيضا إلى ولاة الأمصاركلها، وكان أول من استجاب لذلك : محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت 124 هـ) الذي يفتخر بأنه «لم يدون هذا العلم أحد قبل تدويني»[46].

فهل هذا يعني أن الحضرمي لم يكتب له الامتثال للطلب الموجه إليه ؟

أم أن الزهري لم يكن عالما بما قام به الحضرمي ؟

أم أنه يقصد أنه لم يسبق إلى فضل تدوين الحديث للأمة ؟ لأنه كان يخرج الأجزاء الحديثية إلى طلبته ويمليها عليهم، بخلاف عمل الحضرمي.

كل ما سبق ذكره ممكن ما دامت الأدلة الدامغة تعوزنا.

ثم شاع التدوين بعد ذلك. فأول من جمع الحديث بمكة : ابن جريج (ت 150 هـ)، وابن إسحاق (ت 151 هـ).

وبالمدينة : سعيد بن أبي عروبة (ت 156 هـ)، والربيع بن صبيح (ت 160 هـ)، والإمام مالك بن أنس (ت 179هـ).

وبالبصرة صنف حماد بن سلمة (ت 176 هـ).

وبالكوفة : سفيان الثوري (ت 161 هـ).

وبالشام : أبو عمرو الأوزاعي (ت 156 هـ).

وباليمن : معمر بن راشد (ت 153 هـ).

☆ ☆ ☆

ولضبط هذا المكتوب، يعمد المحدث إلى العرض والمقابلة، وقد طبق مبدأ العرض منذ عهد الرسول الكريم، وهي عبارة عن قراءته لما في كتابه على المروي عنه للتثبت من سلامة كتابه من الخطإ كما كان يفعل زيد بن ثابت عندما ينتهي من كتابة ما يملي عليه الرسول من الوحي أو غيره، يقرأه عليه، حتى إذا ما كان فيه سقط، أقامه[47].

وقد أكد المحدثون على ضرورة العرض، فنجد الأوزاعي يقول : «مثل الذي يكتب ولا يعارض، مثل الذي يدخل الخلاء ولا يستنجي»[48].

أما المقابلة، فقد ظهرت وانتشرت بانتشار الكتب. فكان المملى عليه أو من حصل على كتاب، يتوجه إلى الشيخ أو إلى من بيده الكتاب الأصل ليقابل كتابه بكتابه حتى يتأكد من سلامة المنقول من الزيادة أو النقصان أو التحريف وهي مثلها مثل العرض، يقوم المصحح بوضع دارة بعد نهايته من مقابلة كل حديث حديث.

ووضع الدارات علامة على أن الحديث قد قوبل إما على كتاب أصل، أو فرع صحيح عرض على الشيخ فأقر صيغته على نحو ما هو مكتوب. وهناك من يضع النقط داخل الدارة قد تصل أحيانا إلى الثلاثة، علامة على أن الحديث قد قوبل ثلاث مرات، زيادة في الضبط كما كان يفعل الإمام أحمد بن حنبل.

فإذا وجد صاحب الكتاب خطأ عنده، كأن يكون أخطأ في كتابة كلمة مثلا، أو وضع كلمة عوض أخرى، فإنه يضع خطا عليها على ألا يمحو أثرها لتبقى مقروءة، ويعلم الناظر فيه حسن نية صاحبه وأنها ليست من فعل فاعل. وفي ذلك، قال الرامهرمزي : «قال أصحابنا : الحك تهمة، وأجود الضرب ألا يطمس المضروب عليه، بل يخط عليه من فوقه خطا جيدا بينا، يدل على إبطاله، ويقرأ من تحته ما خط عليه»[49].

وإذا ما وجد عنده كلمة وخاف أن تشكل عليه أو على غيره، وضع علامة تميزها عن غيرها للتأكيد على صحتها كما فعل عبد الله بن ادريس الكوفي لما حدثه شعبة بحديث أبي الحوراء السعدي عن الحسن بن علي، كتب أسفله : «حور عين»، لئلا يغلط فيقر «أبا الجوزاء» لشبهه في الخط[50].

---

46) محمد بن جعفر الكتاني : الرسالة المستطرفة، ص : 4.

47) القاضي عياض : الإلماع، ص : 161.

48) القاضي عياض : نفس المرجع، ص : 160، وابن عبد البر : جامع بيان العلم 78/1.

49) الرامهرمزي : المحدث الفاصل، ص : 606.

50) القاضي عياض : الإلماع، ص : 155.

وبهذا، يكون للمحدثين فضل السبق في الضبط والأمانة العلمية التي نفتقدها اليوم عند الكثير، فيحرفون النصوص لخدمة أهدافهم، أو لا يتثبتون مما ينقلون. وفي هذا خطر كبير على البحث العلمي، وأي ما خطر !!

في سبيل خدمة الحديث النبوي، تطورت مناهج المحدثين في التصنيف، فألفوا في السنن، ثم في المسانيد، إلا أنها كانت تجمع بين الصحيح والحسن والضعيف إلى أن جاء البخاري (ت 256 هـ)، فأفرد كتابا للصحيح، ثم تبعه تلميذه مسلم (ت 261 هـ) فألف فيه أيضا كتابا. وفي ذلك قال العراقي[51]:

أول من ألف في الصحيح ... محمد وخص بالترجيح

ومسلم بعد وبعض الغرب مع ... أبي علي فضلوا ذا لو نفع

والاسم الكامل الصحيح البخاري هو : الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، صنفه في ست عشرة سنة، خرجه من ستمائة ألف حديث، كما قضى مسلم خمس عشرة سنة في جمع صحيحه، وسماه : المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ، طوفا في البلدان، ولقيا الرجال، وميزا بين العدل[52] الضابط من غيره.

☆☆☆

هذا النوع من الدراسة للرجال، سيظهر نوعا جديدا من التصنيف يتعلق بنقد الرجال لتبيين مدى عدالتهم وضبطهم واتصال الراوي بالمروي عنه وسماعه منه. فظهرت كتب خاصة بالثقات، ككتاب «الثقات والمتثبتون» لعلي بن عبد الله المديني (ت 234 هـ) و«تاريخ الثقات» لأحمد بن عبد الله بن صالح العجلي (ت 261 هـ)، و«الثقات» لأبي العرب القيرواني (ت 333 هـ)، و«الثقات» لمحمد بن حبان البستي (ت 354 هـ)...

وكتب خاصة بالضعفاء، «كالضعفاء من رجال الحديث» لأبي الحسن المدائني (ت 225 هـ)، و«الضعفاء» ليحيى بن معين (ت 233 هـ)، و«الضعفاء» لعلي بن المديني (ت 234 هـ)، و«الضعفاء» لعمرو بن علي الفلاس (ت 249 هـ)...

وكتب تجمع بين الثقات والضعفاء، «كمعرفة الرجال» ليحيى بن معين (ت 233 هـ) و«كتاب يحيى وعبد الرحمن في الرجال» لعلي بن المديني (ت 234 هـ)، و«العلل والرجال» لأحمد بن حنبل (ت 241 هـ)، و«علل الحديث ومعرفة الشيوخ «لأبي جعفر الموصلي» (ت 242 هـ)، و«الجرح والتعديل» للحسين بن علي بن يزيد الكرابيسي (ت 248هـ)...

وكتب تهتم بالأسماء والكنى، فقد ألف في ذلك يحيى بن معين، وعلي بن المديني، وأبو بكر بن أبي شيبة (ت 235 هـ)، وأحمد بن حنبل (ت 241 هـ)[53]...

كما ظهر نوع جديد من التأليف، ألا وهو جمع الأحاديث المكذوبة في كتب خاصة، ككتاب الأباطيل للجورقاني (ت 543 هـ)، وتذكرة الموضوعات لمحمد بن طاهر المقدسي (ت 507 هـ)، والموضوعات الكبرى لابن الجوزي (ت 597 هـ)...

ومما تجدر الإشارة إليه، أن المحدث لا يكتفي بكتابة الحديث وترك كتابه عرضة للتلف، بل نجده يهتم بضبط كتابه عن طريق حفظه وكمثال على ذلك : ابن حزم الأندلسي (ت 456 هـ) الذي أعاد كتابة جملة من كتبه من حفظه بعد أن أحرقت في إشبيلية، وفي ذلك،

51) العراقي : التبصرة والتذكرة 39/1.

52) مقومات العدالة أربعة، وهي : أ ـ الإسلام، وعلى هذا، فرواية الكافر غير مقبولة. ب ـ البلوغ، ولذا، فرواية الصبي غير مقبولة على قول ابن السمعاني، وقيل : تقبل إذا لم يجرب عليه الكذب، ج ـ العقل، فلا تقبل رواية المجنون والمعتوه ـ د ـ السلامة من أسباب الفسق وخوارم المروءة.

53) انظر تفصل ذلك في المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل للدكتور فاروق حمادة، ص : 38 ـ 58.

يقول :[54]

فـإن تحرقوا القرطـاس لا تحرقوا الـذي
تضمنـه القرطـاس، بـل هـو في صـدري

يسير معي حيث استقلت ركـــائبي
وينـزل إن أنـزل، ويـدفن في قبري

دعـوني من إحراق رق وكـاغـد
وقولـوا بعلم كي يرى النـاس من يـدري

وإلا فعـودوا في المكـاتب بـدأة
فكم دون مـا تبغـوه للـه من ستر

والهدف من حفظ الكتـاب هو القدرة على استذكار الأدلة دون حاجة إلى الرجوع إلى الكتـاب لصعوبة حمل المؤلفـات دومـا، ولأن الإنسـان في حـالـة المنـاظرة يجب أن يكون حـاضر البديهة، وأيضا حتى لا يزاد عليه، كأن يعير كتابه لشخص، فيضيف هذا الأخير في الكتـاب حديثـا من عنده إما لاختبار مدى حفظ المحدث، فإذا حدث به حكم عليه بالضعف، وإما أن يكون ذلك الشخص زنديقا يريد فقط أن يلقن الشيخ : وأيضا حتى إذا ما ضاع منه الكتـاب، استطاع كتابته من جديد.

لهذا، نجد من المحدثين من يحفظ كتابه حفظا تاما، ومنهم من يكتفي بصيـانتـه حتى لا تمتـد إليـه الأيـدي بالتحريف.

من جهـة أخرى، نجـدهم يملون كتبهم على طلبـة الحديث الذين يأتونهم من كل حدب وصوب، ويكثر عليهم الجمع حتى إنهم يستعينـون بمستملين يبلغـون عنهم، بلـغ عددهم مرة ثلاثـمائـة وستـة عشر مستمليـا[55]، يرددون كلام الشيخ حتى يسمع الجميع بما أنه لم يكن يوجـد مكبر صوت.

ثم ينقـل عنـه كتـابه بطريقة جمـاعيـة بعد العرض والمقـابلة. لـذلـك، لا يجرؤ أحـد على أن يزيـد شيئـا في صحيح البخاري مثلا أو مسلم أو مسنـد أحمد أو غيرهـا من الكتب، لأنهـا منقـولـة إلينـا بهـذه الطريقـة، وأيـة زيـادة ستخالف صحيح المنقول، وسترد على صاحبها.

وبهـذا الشكـل، حـافظ المحدثـون على سنـة رسـول الله ﷺ، وبينوا المـدسوس من الحـديث ونصوا عليه إما مفرقا في طيـات الكتب أو مجموعـا في كتب خـاصـة، ولا يمكن لأحـد أن يـدعي أننـا لا نستطيـع التمييـز بين الغث والسمين، كما لا يستطيع أحد أن يدعي أنه غـاب عن الأمـة الإسلامية قسم من الحديث الصحيح، إذ كل سنة صحيحة تم نقلها إلينا. وفي ذلـك، قـال ابن حزم : «حـديث النبي ﷺ محصي مضبوط مجموع مستقصى ولله الحمد»[56].

صـدق وعـد اللـه، «إنـا نحن نـزلنـا الـذكر وإنـا لـه لحـافظون»[57] فـالسنـة الصحيحـة مميزة ومضبوطـة لم يضع منهـا شيء أبـدا، والمـوضـوع منصـوص عليـه لا يختلـط بـالصحيـح. أو ليس هـذا من أوجـه الإعجاز القرآني إذ بقي الوحي محفوظا كما وعد الله تعالى ؟ إي وربي، إنه لحق.

تطوان : المكي اقلاينة

54) ابن بسام : الذخيرة 171/1/1، وانظر : المكي اقلاينـة : ابن حزم الأندلسي وأثره في الدراسات الحديثية 57/1 ـ 68.

55) السمعاني : أدب الإملاء والاستملاء، ص : 18.

56) رسالتان له أجاب فيهما عن رسالتين سئل فيهما سؤال التعنيف ضمن رسائل ابن حزم 98/3.

57) سورة الحجر، آية : 9.

كيف انتشر الإسلام عبر ثمانية قرون

للدكتور
ابراهيم حركات

التساكن الديني

قبل الإسلام التعايش مع الديانات السماوية وفقا للشروط المادية والمعنوية التي وضعها والالتزامات التي ارتبط بها، من غير ضرر ولا ضرار وليس هناك تساكن عقائدي مع الوثنية والوثنيين ما دام الحكم في يد المسلمين، وقد رفض الخليفة أبو بكر وثلة الصحابة من مساعديه، ارتداد العرب، وحارب المرتدين بصرامة، اعتبارا لأخطار الوثنية التي تفل إلى عبادة الأصنام وتحول مجتمعاتها إلى مطايا للشعوذة وأباطيل الكهان، وحتى عندما عاد المرتدون إلى الإسلام منع عليهم أبو بكر ركوب الخيل وحمل السلاح حتى تثبت توبتهم، وكان بينهم كبار الزعماء كطليحة الأسدي والأشعث بن قيس الكندي وآخرين.

وبديهي أن التساكن لم يكن ممكنا على الدوام حيث تحدث تجاوزات من هذا الجانب أو ذاك، غالبا بسبب خيانة من بعض أهل الذمة أو لعدوان أو تعصب قد يكون من بعض الأفراد أو من السلطة، أو لرد فعل ضد أهل الذمة على إثر أحداث روعت العالم الإسلامي في معركة أو سقوط بلد مقدس وما إلى ذلك. ومن الأمثلة التي اعتبرتها السلطة الإسلامية اعتداء استوجب أفظع العقوبات أن مدينة الكرك التي كانت في الأصل ديرا للنصارى بالبلقاء (جنوب الأردن) ثم أصبحت مدرسة كبيرة على عهد الصليبيين، أخذت تصنع بها مراكب في القرن السادس وتحول بعد ذلك إلى بحر القلزم (البحر الأحمر) استعدادا لهجوم يقوم به الصليبيون على الحجاز. واكتشف المسلمون التدبير في الوقت المناسب، وأمر صلاح الدين بذبح المتهمين عند جمرة العقبة، وانتزعت الكرك من أيدي النصارى. وفي هذه الفترة بالذات يظهر نصارى لبنان بوجه مضئ متسامح، ويقول عنهم ابن جبير، وهو يخصص النصارى المجاورين للجبل : «إذا رأوا أحد المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت، وأحسنوا إليهم، ويقولون : هؤلاء ممن انقطع إلى الله عز وجل، فتجب مشاركتهم. وعندما زار ابن جبير عكا وهي يومئذ بيد المسيحيين، صلى بمسجد بجوارها حول جزء منه إلى مصلى لهم، والباقي حافظ على محرابه القديم وكل يمارس شعائره على مشهد من الطرف الآخر. وما ذكره ابن جبير من ارتسامات عن استضافة نصارى جهل لبنان للمنقطعين من المسلمين ذكر مثله ابن بطوطة في

القرن الثامن عن نصارى دير القاروص خارج اللاذقية وكانوا يستضيفون من نزل بهم من المسلمين.

وخلافا لما يظنه البعض، فإن بعض المجتمعات المجاورة لبلاد العرب لم يكتسحها الإسلام كعقيدة، بالسرعة التي انتشر بها لدى العرب وبعض الأقطار البعيدة كإفريقيا الشمالية. ولذلك كان على العرب أن يساكنوا لعقود عديدة، وربما لبضع مآت السنين، مجتمعات يحكمونها ولا يدين إلا قليل من أهلها بالإسلام أولا يدين به أحد. وهذا ليس وجها سلبيا للإسلام ولا لحكامه، بل هو دليل على احترام السلطة الإسلامية لمبدإ «لا إكراه في الدين» وترك الناس أحرارا فيما دانوا به من العقائد التي قبلها الإسلام. وهكذا ظل الإسلام محدودا لفترة طويلة بالأمبراطورية الفارسية القديمة وفي مصر وجهات أخرى، وتألف الخلفاء الراشدون المجموعات الإسلامية من غير العرب، ورحب عمر ابن الخطاب بدخول الأساورة في الإسلام بعد أن اشترطوا شروطا كلها لصالحهم بما في ذلك تمتيعهم بعطاء متميز، وقبل الخليفة شروطهم حتى يكسبهم للإسلام، وهو ما فعله من أجل عودة جبلة بن الأيهم إلى الإسلام ولكنه رفض العودة إلى الإسلام والتحق بالأساورة آخرون من جيش الفرس.

ويذكر الاصطخري أن سكان جبال البارز بكرمان ظلوا على المجوسية طوال العصر الأموي ولم يعتنقوا الإسلام إلا في العهد العباسي وحتى القرن الرابع لم تكن بمنطقة الغور من خراسان إلا أقلية من المسلمين، وبينهم من يظهر الإسلام وليسوا مسلمين. ومنطقتهم غنية خصبة بزروعها ومعادنها، مما يفسر موقفهم من الإسلام وسلطاته مع أن الجباية الشرعية في الإسلام ليست مما يثقل كاهل السكان، لكن تجاوزات السلطة المحلية قد تشوه الوجه الحقيقي للإسلام. والديلم لم يدخلوا الإسلام إلا منذ مطلع القرن الرابع من طريق حوار عقائدي على يد الحسن بن علي المعروف بالأطروش والذي يصفه المسعودي بأنه كان ذا فهم وعلم ومعرفة بالآراء والنحل. ويذكر المسعودي أن قسما منهم ظل على الشرك إلى زمن تأليف كتابه مروج الذهب، أي إلى قريب من منتصف القرن الرابع، والترك أسلموا على مراحل استغرقت عدة قرون، وخلال منتصف القرن بالذات أسلم ما يعادل سكان مائتي ألف خركان (خيمة) أي حوالي مليون نسمة على يد معز الدولة البويهي.

☆ ☆ ☆

ومع الدعوة الإسلامية أو بعدها تبحث المذاهب لنفسها عن مركز تحتله وقد تتشابك في صراعات قاعدية أو يغذيها بعض فقهاء المذاهب أو ذوو السلطة. فإذا كانت خراسان من المناطق التي دخلها الإسلام مبكرا حتى ولو بقيت جهات عديدة منها على المجوسية فترة طويلة، فقد وجد التشيع أنصارا له بها وبقم منذ سنة 83 حيث سرى منهما إلى باقي مناطق الفرس.

وكل هذه النماذج وكثير غيرها يفسر مدى المرونة في تعامل السلطات الإسلامية والمسلمين مع عشرات الألوف ممن لا يدين بعقيدتهم وهم محكومون لهم. وهذا يؤكد بوضوح أن الإسلام لم ينشر بحد السيف خارج جزيرة العرب. وحتى ما استعمل فيه السيف لم يستقر على نجاح حتى كان الإسلام التلقائي أو بطرق بعيدة عن العنف تماما (دور التجار، الفقهاء، الزوايا، الخ) وأحيانا بإكراه من مسلمي المنطقة المجاورة كما في إسلام عدد من القبائل الوثنية بإفريقيا على يد المسلمين من جيرانهم الزنوج.

الإسلام بإفريقيا

إن ما يروى في المصادر العربية عن إسلام النجاشي أصحم (أو أصحمة) في العهد النبوي قد يكون أول ما شق الإسلام طريقه إلى الأرض الإفريقية بعد أن تسلم النجاشي رسالة الرسول ﷺ في أواخر السنة السادسة. وقد كان طبيعيا أن تبدأ الدعوة النبوية بعد جزيرة العرب بمن حولها، وتابع الراشدون الخطة النبوية في تعميم الدعوة بإفريقيا وآسيا، واستقر الإسلام شيئا فشيئا منذ فتح مصر أيام الخليفة عمر، وعلى مراحل بعد ذلك، حيث يسجل

الجغرافيون في القرون اللاحقة وجود جاليات قبطية تتوغل أحيانا في بعض المراكز الليبية في عمق الصحراء، مما يدل على لجوء أعداد من الأقباط إلى هذه المراكز انطلاقا من مصر، خصوصا أمام الزحف الإسلامي، ويذكر اليعقوبي في القرن الثالث أن الإسلام بمصر ينتهي إلى بولاق بعد أسوان، وهنا لايعني انتشاره الكلي بمصر، كما أن النوبة ما زالت بعيدة عن اعتناق الدين الإسلامي.

☆ ☆ ☆

أما إسلام الأمازيغ فقد تطلب هو أيضا وقتا طويلا، لكن منطقة ليبيا كانت سباقة بحكم جوارها لمصر التي يشملها حكم واليها، وذلك ابتداء من ولاية عمرو بن العاص، وقام عقبة بعد ذلك بنشر الإسلام في عدد كبير من المراكز الليبية، وبعد بداية الجولة الكبرى لعقبة عبر الشمال الإفريقي حتى منطقة السوس، بنحو ثلاثين سنة تعاقب خلالها عدد من الولاة، يتحدث ابن عبد الحكم عن ولاية اسماعيل بن عبيد الله سنة 99 هـ وينوه بحسن سيرته، مما جعل كل البربر الذين لم يكونوا قد أسلموا يهرعون إلى اعتناق الإسلام، والأغالبة لم يكن لهم نشاط كبير في نشر الدعوة، وحتى في المجال السياسي لم يتجاوز وامدن الزاب ولم يستطيعوا إخضاع الإباضية غرب المغرب الأوسط. والمذاهب السنية انتشرت بإفريقية بعد التراجع الخارجي، وهكذا بدا انتشار المذهب المالكي فقد انتشر بإفريقية على يد سحنون التنوخي تلميذ ابن القاسم الذي درس على مالك.

وقد أسلم عدد كبير من الروم الذين وجدهم الفاتحون العرب بإفريقية، وكان بينهم أكثر روم منطقة قسطيلية من بلاد الجريد. ويتحدث مؤلف الاستبصار عن مدينة الحامة بقسطيلية، في القرن السادس، ويذكر أنها تدعى في عصره بحامة بني بهلول الذين هم من بقايا الروم الذين أسلموا على أموالهم وهم أغنى سكن قسطيلية، وبالمغرب أيضا مدينة البهاليل بضواحي فاس، ويقال إن سكانها من أعقاب الروم أي الرومان (لأن البيزنطيين لم يصلوا إلى المنطقة).

وقد توغل الفاتحون في مناطق الشمال الإفريقي، ووصلت سرايا الفاتحين إلى مناطق مسوفة والسنيغال أيام حبيب بن عبيدة حفيد عقبة بن نافع، ولكن لايبدو أن الإسلام كعقيدة، أخذ موقعه بهذه المنطقة، حيث كان التوغل مجرد استطلاع وربما مقايضة لا نعرف عنها شيئا دقيقا، والبكري يذكر في القرن الخامس أن آخر الإسلام بالمغرب هو نول، وهي مدينة بعيدة عن الصحراء الغربية شمالا وفي نفس الوقت كانت قبائل جدالة قد متنت إسلامها كمعظم صنهاجة الصحراء. والواقع أنه لم يكن هناك عمران يذكر بين نول والمناطق النائية من الصحراء الغربية جنوبا حيث تبدأ مواقع صنهاجة، ومد الأدارسة نفوذهم كما عند ابن «خرد اذ به» إلى قبائل الزغاوة بالنيجير. والأرجح أنهم قاموا بدور هام في التوعية الإسلامية بهذه الجهة، وبالإضافة إلى هذا المد الإسلامي الذي يبقى حجمه وشكله غامضا مع ذلك لصمت المصادر، فهناك ما ذكره البكري عن وصول عدد من الأمويين إلى غانا أو بالأصح استقرار عناصر من الجند الأموي وهو بدون شك جيش حبيب المذكور سابقا والذين كان لهم دور ما في الدعوة الإسلامية، لكن هذه الجهود كلها لم تعط للوجود الإسلامي إلا أقليات مبثوتة هنا وهناك، ونكاد نجهل عنها كل شيء فيما عدا الإشارات التي زودنا بها بعض الجغرافيين ثم إن صنهاجة أيضا أسلمت على يد الأدارسة خلال القرن الثالث حيث نشطت القوافل بين تامدولت الإدريسية المغربية وعدد من جهات إفريقية الغربية، لكن هذا الإسلام صححه وقومه في مرحلة لاحقة، عبد الله بن ياسين الجزولي الصنهاجي.

وكان من أسبق المناطق إلى الإسلام بالسودان الغربي، مملكة التكرور شمال السنيغال الحالي.

وكان أهل التكروروثيين فأسلموا على يد وارجابي بن رابيس الذي توفي سنة432 هـ وهو زعيم التكرور، وكانت قبيلة التكرور على وفاق مع المرابطين في انطلاقتهم، ويذكر مؤلف الاستبصار أن إسلام التكرور على يد هذا الزعيم كان بحد السيف، ولكنه يؤخر وفاته إلى

435. وحسب الحميري ومصادره، فإن صنغانة على المحيط كانت آخر مدن الإسلام، وموقعها أيضا محل خلاف مادام نهر السنيغال كان فيما يظهر بالنسبة لبعض الجغرافيين يعتبر امتدادا لنهر النيل الغربي أي النيجير، وكيفما كان الأمر فقد كان دور المرابطين قويا في نشر الإسلام سواء عبر القبائل السودانية أو الصنهاجية الأمازيغية.

ويتحدث ياقوت في القرن السابع 13م عن تخلف قبائل الزغاوة الذين كانوا يعبدون ملوكهم وينسبون إليهم أنهم يميتون ويحيون، وكانوا يعمرون النيجير الحالي وينبثون رحلا فيما وراءه شرقا.

ويعتقد أن الزغاوة وهم أمازيغ ينحدرون على ما يحتمل من هوارة قد حلوا بالمنطقة حوالي القرن 9/3. وهذا يفسر مدى التقارب بينهم وبين أدارسة تامدولت في هذه الحقبة بالذات. وقد امتزج الزغاوة بسودان النيجير، وحتى القرن العاشر/16م ما زال القسم الشمالي من نيجيريا الحالية، والذي عرف بمملكة بورنو متخلفا يعتنق شيوعية النساء والأطفال ولا يدين بعقيدة سماوية، وهذا على الأقل، ما يذكره الحسن الوزان، وهناك شعب آخر امتزج بالسودان، وهو من البربر، وهو شعب الزافون المتصل بمناطق الملثمين، ويذكره البكري باسم (زافقو) وحافظ هذا الشعب فيما يظهر على وثنيته، حيث يبدو أن المرابطين هادنوه مدة قبل أن يعتنق الإسلام، وهكذا ورد ملكهم على مراكش في طريقه إلى الحج فاستقبله يوسف بن تاشفين بترحاب حتى قيل إنه تلقاه راجلا وبقي الملك السوداني على فرسه. وقد انشغل المرابطون بالمغرب والأندلس وتولى أبو بكر بن عمر مجاهدة الوثنيين، بالسودان حتى وفاته، وبين صنهاجة من حافظوا على وثنيتهم فترة طويلة، فقد كان في قبيلة مداسة منهم كفار ومسلمون، وكانوا متخلفين جميعا حيث كانت عبادة الوثنيين منهم الشمس، ويتزوجون من المسلمين، وهذا مالا تقبله الشريعة الإسلامية في الحالين. وكانوا مع هذا يأكلون الميتة، ويظهر أن عبادة الشمس وأكل الميتة كانت فاشية على امتداد مسافة كبيرة من إفريقيا الغربية، وهكذا كان سكان أودغشت حيث أسلم جماعة من أهلها على يد عبيد الله الفاطمي. وتدل كثرة المساجد بها في القرن الخامس، مع توفرها كلها على معلمين لتحفيظ القرآن، على استقرار الإسلام بالمنطقة، بل إن عاصمة غانا كان بها علماء، وحركة ثقافية، لكن الوثنية ظلت مع ذلك سائدة بغانا، ويحتمل أن موقع هذه العاصمة هو ما اكتشف من آثار كمي صالح على مسافة تتجاوز ثلاثمائة كيلومتر شمال باماكو، وذلك سنة 1939م، ويضعها البعض بموريتانيا أي بعيدا جدا على باماكو.

☆ ☆ ☆

أما دولة كانم شمال تشاد فلا يبدو أن الإسلام قد نفذ إليها قبل القرن السادس، فالبكري يتحدث عن أهلها كمشركين ولو أنه يروي عنهم وجود أسر عربية الأصل تزعم أنها من بني أمية الذين لجأوا إليها من بني العباس، وانتشر الإسلام على يد شخص اسمه الهادي العثماني الذي ادعى أنه من سلالة الخليفة عثمان.

وتكونت حول حوض النيجير شعوب ودول كثيرة، ومن أقواها دولة سنغاي التي نشأت على ضفتي النيجير بين إقليم تمبكتو وحدود نيجيريا الحديثة، وتتضح معالم هذه الدولة منذ القرن الرابع/10م. وسكانها مزيج من بربر لمطة (الطوارق) والزنوج المحيلين، والسوركو الذين كانوا شعبا يعيش على صيد الأسماك من بحيرة تشاد ويكتنف الغموض مع ذلك تاريخ سنغاي القديمة وتكوينها، وفي أوائل القرن 11م (5 هـ) استولى ضياء بن قيس على غاو Gao على ضفة النيجير (بمالي الحالية) وجعل منها عاصمة لسنغاي التي كانت تجاور لمتونة أدرار الموريتانية. وكان الاسم الحقيقي لهذه العاصمة غاوغاو Gaogao والتي كانت موجودة قبل ذلك بوقت طويل، ويحتمل أن ضياء بن قيس اعتنق الإسلام على يد لمتونة من جيران المنطقة في نهاية القرن الرابع، أي حوالي سنة 1009، وهذه الفترة بعيدة ببضع عشرات السنين عن التدخل المرابطي.

ومعلوم أن إسلام القبائل الصنهاجية كان خلال العهد الإدريسي ولكنه كان مشوباً بتعاليم وثنية وغيرها قبل حلول عبد الله بن ياسين، وكيفما كان الأمر، فقد أسلمت سنغاي على يد زعيمها ضياء المذكور، ثم كانت حملة التصحيح المرابطية بعد ذلك، بل يظهر أن المرابطين كان عليهم أن يحملوا أغلبية أهل سنغاي على الدخول في الإسلام، فقد تحدث البكري عن انشطار كاغو إلى قسمين أحدهما مسلم والآخر وثني، وإذا كان هذا في عاصمة سنغاي فبالأولى خارجها.

☆ ☆ ☆

وأسلمت مالي حسب الحسن الوزان على يد أبي بكر بن عمر اللمتوني الذي دانت لحكمه ولعقبه حتى عهد إمارة أسرة اسكيا، ولكن الإسلام لم ينتشر بسهولة في هذه المنطقة الشاسعة، لأن المرابطين تابعوا غزوها وظل قسم منهم يؤدي الجزية، لكن الجزية عادة لايؤديها إلا أهل الكتاب، وكانت مالي وثنية في أصلها. وحتى القرن الثامن سجل العمري وجود أكلة لحوم البشر بين بعض قبائل مالي، وتوسعت مالي كثيرا في القرن 13/7 وأخضعت لحكمها غانا. ومن جهة أخرى فقد انتشر المذهب المالكي على يد منسا سليمان، وإن كان من المرجح أن تطبيق المذهب بدأ على يد المرابطين، أما عمل منسا سليمان فهو جلب عدد من الفقهاء لتوطيد المذهب وتدريسه وإشعاع الإسلام عبر الأمبراطورية الواسعة التي ضمت سنغاي أيضا بالإضافة إلى غانا ومالي الأصلية.

وفيما بين شرق النيل من الجهة الجنوبية للقاهرة، وسواحل بحر القلزم (البحر الأحمر) حتى حدود الحبشة مع النوبة كانت تعيش قبائل البجاة الرحل، وهم سود يرتدون الزي العربي، ويمتدون إلى ساحل عدن، وكان بينهم أسلاف الشعب الصومالي الحالي. وفي القرن الرابع كانوا شعبا مسالما لا زال يواصل عبادة الأوثان كما كان أسلافه، وفي الربع الأخير من القرن السادس سجل ابن جبير جهل بجاة عيذاب (جنوب مصر على ساحل البحر الأحمر) بتعاليم الإسلام وأنهم لايعرفون منه إلا الشهادتين ليظهروا ولاءهم لحكام مصر، وما عدا ذلك فهم منحرفون ويدينون بمذاهب فاسدة. ولا يفصح ابن جبير عن حقيقة هذه المذاهب وكيفما كان الأمر فقد حافظوا على وثنيتهم أو على الكثير من ظواهرها مدة طويلة، وينقل المقريزي نص عهد أمان مشروط، من قائد حملة وجهها المامون العباسي، إلى سكان البجاة وأميرهم بأسوان، وكان المسلمون يترددون تجارا على مناطق البجاة، وبفضلهم انتشر الإسلام شيئا فشيئا لدى البجاة، وفي منتصف القرن الثالث استقر بينهم جيش عربي كبير من جهينة وربيعة وغيرهم، واختلطوا بالبجاة وتزاوجوا، وكان الاختلاط خصوصا بعنصر الحدارب منهم، وانشغل التجار بنقل المعادن الثمينة خصوصا الذهب، وباقي شعب البجاة تأخر إسلامهم كما رأينا، ويحتمل أن يكون أصل البجاة من البربر، وبين روايات المقريزي مايفيد أن الدعوة الإسلامية بلغت البجاة من عهد عبد الله ابن أبي سرح، لكن لا يظهر أنه كان لها أثر كبير. على أن العمري ينوه بتدين أهل زيلع الصومالية والتي كانت في وقته تدخل ضمن ما كان يسمى بمنطقة الطراز الإسلامي.

وكان رقيق النوبة وربما ذهبها أيضا على غرار منطقة البجاة، هدفا لحملات الفاتحين، ومع وجود مصر شمال النوبة، فإن الإسلام لم ينفذ إلى شعبة النوبة إلا منذ إسلام أحد ملوكها تسلى في بداية القرن 14/8م ثم تلاه كرنبس وبه توقفت الجزية عن النوبة، فهل كانت رغبة السلطة الإسلامية في المحافظة على الجزية كل هذه المدة بدلا من نشر الإسلام، أم أن التحملات المادية ستكون باهظة لو استعملت القيود من أجل نشره ؟ ويسجل ابن خلدون انتشار مجموعات جهينة بالنوبة بعد إسلامها، وتأثيرهم على الوضع الاقتصادي حتى انتزعوا الحكم من يد ملوكها وتمزقت أوضاعها السياسية (فصاروا شيعا لهذا العهد) كما يقول ابن خلدون.

وكانت مناطق شرقي إفريقيا قد عرفت الاستقرار العربي السياسي منذ عصر ما قبل الميلاد، وبعد الفتح

الإسلامي تقاطر عليها عرب عمان لتبادل الذهب والعبيد بمنتجات الهند وفارس، وعلى الرغم من أنهم لم يستخدموا القوة لنشر الإسلام، فقد فتح هذا الدين لنفسه طريقا سلميا منذ القرن الأول. وكون العرب إمارات متعددة، كما تكونت في القرن الرابع الهجري مملكة إسلامية بزغبار بينها فرس وسكان محليون، وبزامبيا تمكن الإسلام من التوغل خصوصا منذ القرن الثامن على يد مسلمين شرق ووسط إفريقيا.

الإسلام بأفغانستان والهند

يصطبغ تاريخ الإسلام في أفغانستان بنوع من الأسطورية، حيث تذكر بعض الروايات الشعبية أن خالد بن الوليد دعا شعب أفغانستان إلى الإسلام، فقدم وفد منهم على الرسول ﷺ وأسلم على يده، وتزوج منهم خالد بن الوليد فتكون من سلالته كتلة البطهانيين الأفغانية. وفي رواية أخرى أنهم اعتنقوا الإسلام على يد بعض اليهود الذين كانوا قد أسلموا، والحقيقة أن الفتح الإسلامي بدأ في عهد الراشدين، بالنسبة للمناطق الأفغانية، غير أن الفتح لم يؤد إلى إسلام عدد كبير من السكان، فتطلب ذلك مراحل بل قرونا كما هو الشأن في كثير من المناطق التي فتحها المسلمون، ومن ثم كان فتح عدة مراكز أفغانية وغيرها من الأمبراطورية الفارسية القديمة، يتكرر عدة مرات وعلى فترات، وعلى سبيل المثال كانت سجستان (موزعة حاليا بين إيران وأفغانستان) تثور من وقت لآخر، لأسباب جبائية أو وطنية أو لجور إداري، وفي القرن الرابع يسجل الاصطخري وجود مسلمين ومعاهدين بها، وكان للأفغان مساهمة كثيفة وفعالة في فتوح الهند والسند حتى قيل إن المسلمين، الأولين منهم، ساهموا في فتوح العصر الراشدي، ودور الغوريين والغزنويين معروف في مجال الفتوح خلال القرن السادس وبعده، وكانت المنصورة (بَرْهَمْنا باذ) والملتان بالباكستان من المراكز التي عمها الإسلام أو كان له بها وجود قوي خلال العهود الأولى بفضل استقرار جاليات كبيرة من تجار قريش، وكان فتح الملتان على يد محمد بن القاسم في عهد الوليد بن عبد الملك، وقد استطاع المسلمون أن يفرضوا وجودهم حتى وهم أقليات في مدن الهند وأقاليمه، فكانت شؤونهم الإدارية ترجع إلى ممثلين عنهم والواقع أن المحاولات الأولى لفتح السند والهند بدأت منذ أوائل عهد معاوية سنة 44، ولم يستكمل فتح السند إلا في عهد الوليد بن عبد الملك، أما الهند فتوالى فتح عدد من مناطقها خلال العهد الأموي ثم العباسي. وبدأ نشر الإسلام على أوسع نطاق بالهند، على يد الدولة الغزنوية (366 ـ 582 هـ) التي اتخذت مزغزنة بأفغانستان عاصمة لها، وكان من أعظم ملوكها ثالثهم محمود بن سبكتكين الذي حمل ملوك الهند على أداء الجزية واعتنقت جهات من هذه البلاد الإسلام على عهده، وتكررت الحملات الغزنوية إلى الهند وإخضاعها أو قسم منها سياسيا، واستعان بالمسلمين الأتراك وغيرهم من أهل ما وراء النهر كما فعل أعقابه أيضا، على أن الغزنويين اكتفوا لوقت طويل بغارات خاطفة وعقد معاهدات مع ملوك الهند لإلزامهم بسيادة الدولة الغزنوية على مناطقهم، ولذلك كثر خراج الهند لصالح الخزينة الإسلامية بغزنة خصوصا في عهد يمين الدولة الذي أرغم بعض الجهات على اعتناق الإسلام، ومع كل ذلك ظل الغزو الإسلامي سياسيا واقتصاديا أكثر منه عملا عقائديا خلال التدخل الغزنوي، وبالمقابل، فإن الدولة الغزنوية وجدت بعد زحف الغوريين بأفغانستان ملجأ آخيرا لها في البنجاب. وتكونت دولة الغوريين ابتداء من 543 إلى 612 (1148 ـ 1215). وهم الغزنويين من الأتراك، وركز الغوريون اهتمامهم على الهند فبسطوا سلطتهم على شمالها بعد صراعات عنيفة مع سكانها، ونسب إليهم أنهم فتكوا بالعلماء، والفنانين وحطموا الخزائن، وبدون شك فإن الصراع هنا كان راسا بين حضارتين إحداهما تقدس الأصنام والصور وتقول بتناسخ الصور ويفرض الكهنة فيها سطوتهم على الجماهير. والأخرى تناهض كل ذلك، ووصل شهاب الدين الغوري في القرن السادس إلى جهات من الهند لم يتوغل فيها المسلمون قبله

حتى قارب حدودها شرقا مع الصين وفي سنة 1192/589م تكونت سلطنة إسلامية غورية بدلهي، وبذلك يكون هذا الاستقرار الإسلامي في عين المكان وفي قلب عاصمة الهند التاريخية، بداية عهد جديد كليا في التحرك الإسلامي العقائدي، حيث السلطة الإسلامية مباشرة في المجالات المختلفة، وبالرغم من الأزمات الداخلية التي عكرت صفو هذا الاستقرار، بما في ذلك الخطر المغولي الرابض بالتخوم فإن دولة جديدة نشأت لفترة قرن تقريبا، هي دولة بني تغلق الأتراك (721 ـ 1320/818 ـ 1414) نشطت لا في مد فتوحها فحسب، بل كذلك في القيام بإنجازات دينية ومعمارية وثقافية عديدة، خصوصا على عهد السلطان غياث الدين.

وفتحت السلطة الإسلامية أبوابها لكل المسلمين الوافدين سواحا وتجارا بعد أن تضاءل الخطر ضد القوافل وحركة التنقل، ويذكر ابن بطوطة أن السلطة لا تتعرض لمال الغرباء ولا تورثه بيت المال، وقد حفلت البقاع ذات الأقليات والأكثريات المسلمة، بكل المذاهب شيعية وسنية، وهناك جاليات إسلامية من الشام والعراق خراسان ومصر والمغرب الإسلامي، ولقي ابن بطوطة فقهاء من بغداد ومقدشو ومن مختلف جهات العالم الإسلامي، ولم يفته أن يشير إلى صراعات أمراء المسلمين على السلطة، ولم يمنع ذلك من مواصلة المد الإسلامي سيره.

الإسلام بالصين وعموم الشرق الأقصى

ظهر المسلمون لأول مرة كفاتحين، في أواخر عهد الوليد بن عبد الملك الأموي، حيث وصل جيشه إلى كاشغر بتركستان الصينية، وهي محط تجاري يتعامل معه أهل سمرقند المسلمون، وكانت قيادة هذه الحملة لقتيبة بن مسلم الباهلي، وينسب إلى كاشغر عدد من العلماء المسلمين ذكر ياقوت اثنين منهما وألف أحدهما عدة مؤلفات، وهو الحسين بن علي الألمعي الكاشغري، وهاجم العرب تركستان في القرن الثاني، ثم استقر بها عنصر الويغور الأتراك منذ القرن الثالث، وبعد ذلك اتسع الإسلام بالمنطقة منذ القرن الرابع كما عم مناطق ما وراء النهر، ومن مدن تركستان الصينية فاراب التي ينسب إليها الفيلسوف الفارابي، ومن المدن الكبرى التي حل بها الإسلام مبكرا في الصين، مدينة خانقو (كنتون) حيث كانت تتعايش الديانات السماوية وغيرها، وكانت دولة التانغ Tang على جانب عظيم من التسامح الديني. ولقد وجد معتنقو الديانة الكونفوشيوسية بالصين في الإسلام وعادات المسلمين.

☆☆☆

بعض التشابه مع تقاليدهم في احترام الأسرة والوالدين، وفي الالتحام العائلي والتسري من أجل إنجاب المزيد من الأطفال وضرورة الزواج وغير ذلك، وكل هذا أسهل دخول أفواج كبرى من الصينيين في الإسلام. وقام الويغور الأتراك بجهد مهم في نشر التعاليم الإسلامية. ولقد افتتن المسلمون بالصين من مختلف الأقطار وقصدها عدد كبير من الرحالة والعلماء فضلا عن قيام علاقات تجارية بينها وبين العالم الإسلامي، وتعلم بها اللغة الصينية عالم أندلسي هو سعد الخير. وظهر أثر الإسلام حتى في التبت حيث تعايشت الديانات السماوية والبوذية. ونجد أثر الاهتمام بالتبت في مؤلفات بعض الجغرافيين المسلمين إلى درجة أنهم يرجعون أصل سكانها إلى حمير، ولهم تجارة مع أقطار ما وراء النهر خصوصا فرغانة، واهتم التجار العرب خصوصا بمسك التبت، وكانت بوادي المنطقة معمورة بالعنصر التركي، لكن البوذية ظلت سيدة المنطقة حتى الآن. ويوجد ببكين حتى الآن مسجد في الجنوب الغربي منها يعرف بمسجد نيوجيه، ويعود إنشاؤه إلى سنة 991/382م وينسب إلى تاجر اسمه قوام الدين الذي وإن كان اسمه عربيا فيحتمل أن يكون من أصل تركي، وتولى هذا التاجر الدعوة إلى الإسلام بإذن عاهل من أسرة سونغ، وبصحن المسجد قبر إيراني اسمه أحمد برتاني وآخر عماد الدين من بخارى وكلاهما كان يعمل على نشر الإسلام بالصين في القرن السابع.

وكما بدأ الإسلام يفسح طريقه بالصين منذ العصر الأموي قد توغل إلى بعض الجهات من الشرق الأقصى في العصر نفسه، وهكذا أسلم عدد من سكان برمانيا (أو بورما) البوذية على يد تجار العرب، ولم تستطع الجماعة الإسلامية أن تنشىء أول منطقة مستقلة ذاتيا عن السلطة المركزية إلا منذ 1430م. في إقليم أركان المتاخم لبنغلاديش. وبدأ الإسلام بسيلان (سيريلانكا) في وقت غير محدّد. وكان تجار عمان واليمن يقصدون بها جزيرة سرنديب المعروفة بالأحجار الكريمة وعدد من العطور والبهارات، وكذلك كان المسلمون من مختلف الجهات يقصدون بعض جبالها للتبرك بأثر قدم نسب إلى آدم عليه السلام. وعلى هذا فإن المسلمين الأولين تلقوا تعاليم الإسلام على يد تجار العرب. وبدأ دخول الإسلام إلى أندونيسيا منذ نهاية القرن السابع/الثالث عشر للميلاد باعتناقه من لدن بعض ملوك البلاد، ثم تتابع نشر الإسلام على مراحل عن طريق التجار والزهاد وإسلام زعماء القبائل والسلاطين، خلال أجيال عديدة.

مسلمو الثغور

المقصود الثغور التي كانت موضع صراع بين المسلمين والروم (البيزنطيين) لكونها على التخوم من هذه الجهة أو تلك. وكانت عرضة لهجمات المرابطين والمحاربين، وكانت ديار ربيعة تهاجم الروم وتتلقى ضرباتهم فيأسرون منها ويقتلون، ثم يتولى المسلمون ضرب ثغور العدو، وتستمر العلاقات على هذا المنوال، وربما عقدت معاهدات سلم وحسن جوار بين حين وآخر، وكان من عادة الروم إذااستولوا على مدينة بيد المسلمين، إلزام من أراد البقاء بها منهم بأداء الجزية على غرار ما كان يفعله المسلمون مع أهل الذمة، ومن أهم المراكز التي انتزعوها من المسلمين سنة 342 كل من انطاكية وطرسوس وأقريطش (كريت)، وسجل الاصطخري قبل هذا التاريخ بوقت قليل أن أقريطش كان سكانها جميعا مسلمين، ويعايشهم قليل من النصاري. وسجل من جهة أخرى أن سكان قبرص كانوا في هذه الفترة كلهم نصارى. ويظهر أن طرطوس تجدد فتحها من لدن الروم سنة 965/354م. وكانت في يد سيف الدولة الحمْداني. ومع أن المدينة تم تسليمها على الصلح والأمان فقد اشترط نقفور تخريب الجامع والمساجد، وسمح لمن تنصر بالمحافظة على أمواله، وفرض الجزية على من بقي مسلما، ودخل في النصرانية عدد من المسلمين وهجر المدينة آخرون، والباقي أقام على الجزية. وامتنعت أمهات الأولاد من الجواري عن مغادرة طرسوس، وبقي عدد من أولادهن فنشأوا على النصرانية، كما حرم المهاجرون من أموالهم إلا ما يحمل على ظهورهم، ويعلق ياقوت على هذه الحالة بقوله : «هذا وسيف الدولة حي يرزق بميافارقين، والملوك كل واحد مشغول بمحاربة جاره من المسلمين، وعطلوا هذا الفرض (فرض الجهاد)...». وكانت أصعب الفترات التي يمر بها المسلمون هي فترات الحرب بالنسبة للأقليات الإسلامية التي تصبح أكثر تعرضا للخطر وتتلقى ردود فعل الروم إذا هزموا في معركة حاسمة على يد المسلمين، وعمد بسيل الثاني سنة 992/383م الرجال من المسلمين لديه، وزودهم بالسلاح لصد هجوم قوي للصقالبة، بعد أن هددوا القسطنطينية وأصبحت في موقف دفاعي. وتمكن المسلمون من تحقيق نصر حاسم إلى جانب القوات البيزنطية، وخشي الأمبراطور خطرهم وانتزع منهم السلاح وفرقهم في جهات الأمبراطورية بدل مكافأتهم. وكانت الدولة البيزنطية تشهد حينئذ أحد أجمل فترات تاريخها. وغالبا ما كان احترام العهود من الجانب الإسلامي أثبت وأطول استمرارا، وعلى الرغم من صرامة معاملة أهل الذمة في بعض الظروف عبر الأقطار الإسلامية، خصوصا في حالات الخيانة ضد المسلمين في الداخل أو الخارج، فنادرا ما كان أهل الذمة يقحمون في الفتن الداخلية بين المسلمين، كما أنه لم يكن يضايق المجتمع الإسلامي أن تتوفر بعض المدن على أكثرية من أهل الذمة أكبر عددا

من المسلمين أصحاب الحكم، بينما حاول بعض ملوك الحبشة تنصير المجموعات الإسلامية بالحبشة وإيريتريا التي اكتسحوها أول القرن التاسع، وحتى الصومال. والأمثلة كثيرة..

مسلمو الخَزَر، وأوضاع الروس والأرمن

الخَزَر شعب ينحدر من الهياطلة les Huns ذوي الأصل المغولي التركي. أنشأوا دولة غرب بحر قزوين الذي عرف عند العرب ببحر الخزر، وذلك بمنطقة القوقاز (في الاتحاد السوفياتي حاليا) خلال القرن الأول/7م وكثيرا ما كانت لهم صدامات قوية مع المسلمين. ومن ذلك أنهم قصدوا في عهد هرون الرشيد، انطلاقا من باب الأبواب (دربند) الواقعة على بحر الخزر، من بجوارهم من المسلمين وأهل الذمة الذين معهم، فأوقعوا بهم وبلغ سبيهم عشرات الألوف حتى قدره صاحب البدء والتاريخ بمائةوأربعين ألفا وقاموا بإحراق المراكز الحضرية والسكانية. وفي أواسط القرن الرابع انتشر بينهم الإسلام فأصبح يكوّن مع النصرانية غالبية السكان بعد أن كانت اليهودية دين الأغلبية، وبقي للوثنية وجودا أيضا حسب الاصطخرى الذي قدر مسلمي العاصمة «إتل» بما يزيد على عشرة آلاف لهم حوالي ثلاثين مسجدا، وكان الملك وحاشيتهم لازالوا على اليهودية. ويذكر الاصطخرى أيضا أن الخزر لشدة سمرتهم فهم أقرب إلى الصنف الهندي منهم إلى الترك الذين لايشبهونهم كما قال، وتركت أحكام كل طائفة إلى شخص منها، ولا يقبل الملك اعتداء الطوائف بعضها على بعض، فقد غضب عاهل الخزر سنة 310 عندما علم أن مسلمي العاصمة هدموا كنيسة النصارى فعمد إلى الجامع فهدمه وقتل المؤذنين، ونسبت المدن القديمة بالمنطقة إلى كسرى أنوشروان حسبما نقله الحميري، ومن بينها سمندر التي كان بها في القرن الرابع مسلمون لهم مساكن خشبية شأن مدن أخرى بما وراء النهر، وكان الخزر يقطنون في أوائل دولتهم الخيام المصنوعة من اللبود وأحيانا بيوتا مطينة. وفي تاريخ الطبري ذكر المؤلف في أحداث 22 هـ أن المسلمين وصلوا في فتوحهم إلى باب الأبواب، بالنظر لكونهم وصلوا إلى مناطق قريبة أو مجاورة كجرجان وطبرستان، لكن الفتح في كل هذه الجهات وغيرها تكرر عدة مرات، وكيفما كان الأمر، فقد بدأ الإسلام يتلمس طريقه بين الخزر في القرن الأول، وإن كان لم ينتشر على نطاق واسع إلا ابتداء من القرن الرابع كما سبق، حيث أصبح اليهود أقلية.

ويجاور الخزر عدد من الشعوب التي توغل فيها الإسلام أو تقلص بتنصرها كالروس والأرمن، وقد اعتنق الروس النصرانية في القرن الرابع/10م على إثر مصاهرة بين عاهلهم وأرمانوس البيزنطي، وزارهم رسول المقتدر، أحمد بن فضلان قبل تنصرهم ونعتهم بالقذارة وغرابة العوائد، وبعضها من تأثر البوذية، وكانت منطقة برطاس مجاورة لكل من الروس والخزر وتدين بالإسلام وقدر عدد مسلميها بعشرين ألفا قبل أن يخربها الروس ويشردوا سكانها، وبعض المجموعات الروسية كانت ترفض الغرباء وتصفيهم، وتقع منطقة برطاس على أحد روافد نهرالفولجا، ودخل الإسلام منطقة الكرج (جيورجيا حاليا) منذ عهد الخليفة عثمان، وكان العرب يطلقون عليها اسم أرمينية، لأن الكرج عنصر أرمني، ونقل ياقوت نص عهد صلح كتبه القائد حبيب بن مسلمة لأهل تفليس عاصمة الأرمن التي حافظت على الإسلام، ولم يكن الكرج قد عمروا المنطقة بعد، لكن كان هناك أرمن غيرهم، فلما كانت أوائل القرن 12/6م هاجم الكرج المناطق الإسلامية المجاورة بما فيها تفليس، وكانت أرمينية تعاني من أزمات سياسية بسبب نزاع السلاجقة على الحكم، ثم دخل الكرج تفليس بالقوة، وواصلوا الضغط على المسلمين بالمنطقة حتى كانت 623 هـ قد خلت جيوش جلال الدين بن خوارزم شاه واسترجعت تفليس وألزمت الكرج بالدخول في الإسلام وسبت نساءهم واسترقت أولادهم، وكان خطر الكرج قد امتد إلى مناطق بعيدة بما فيها تخوم الروم، فطاردتهم الجيوش السلجوقية في عدة جهات. غير أن الكرج

استرجعوا تفليس بعد سنة، نظرا لضعف الحامية وسوء سيرة الوالي السلجوقي، وعاش المسلمون في كنف الكرج، ثم حالف الكرج المغول وكانوا لهم سندا. وفتح المسلمون بعد ذلك سيس عاصمتهم بأرمينيا الصغرى في منطقة قيليقيا Cilicia وذلك سنة 1362/764، وهذه المنطقة يسودها الإسلام حاليا.

الإسلام والمسلمون بأوروبا

لم يخل من الإسلام عدد من أقطار أوروبا خلال العصر الوسيط فأحرى بعده عندما توسعت الفتوحات العثمانية، فحتى وسط الصقالبة الذين يمثلون أغلب شعوب أوروبا الشرقية وقسما كبيرا من سكان روسيا التي سمتها المصادر العربية بسبراوير (سبريا ؟) كان للإسلام وجود يتفاوت انتشارا، وفي هذ المنطقة بالذات ولو أنها داخلة في آسيا الشمالية ينقل القلقشندي عن العمري وصف طقسها البارد المصحوب بالثلج الذي يستغرق نصف السنة، وأن بعض أهلها بعثوا بطلب فتوى عن كيفية الصلاة في بلد لا يغيب فيه الشفق حتى يطلع الصبح. ويتحدث ياقوت عن إسلام الصقالبة وملكهم في أوائل القرن الرابع، ويظهر أن هذا الإسلام لم يكن عاما، وكان في مملكة هنغاريا في هذا الوقت، وحسب ما ذكر عن ابن فضلان مجموعة تركية مسلمة من قبيلة باشغرد تشغل حوالي ثلاثين قرية وقد منع على المسلمين تسوير مدنهم وأصبح لسانهم كلسان الهنغاريين ويرتدون نفس الزي. وكان إسلامهم على يد جماعة من مسلمي البلغار. وشغل البلغار جزءا من اهتمام ابن فضلان كما تناولهم أكثر من جغرافي ومؤرخ. ومن أهم أصولهم السكانية، الصقالبة منذ القرن السادس الميلادي (قرن 1 ق.إ) وأتراك العنصر المغولي في القرن السابع (القرن الأول للهجرة). وقام البلغار بهجمات قوية على الأمبراطورية البيزنطية وانتشروا في تراب الصقالبة حتى ألبانيا، وبدا اعتناقهم للمسيحية منذ القرن الثالث (9م)، ثم كونوا في القرن التالي أمبراطورية ضخمة تمتد من سيبريا إلى البوسنة الشرقية لكن تمزقت بسرعة على يد جيرانهم من الروس والبيزنطيين، وينسب ابن فضلان سكان بلغاريا إلى العنصر الصقلبي فقط وهو غير صحيح كما تقدم. وصادف ذهابه إلى عاصمة البلغار موفدا من المقتدر، أوج عظمة الأمبراطورية البلغارية، ويتحدث ابن فضلان عن إسلام ملك البلغار وتوجيه وفد من قبله إلى المقتدر يطلب إيفاد بعثة إسلامية لبث الدعوة وتلقين الشعائر للشعب البلغاري، ولا يفصل ابن فضلان أسباب إسلام العاهل البلغاري، بل يؤكد أنه يجهلها، وتوضح رسالة الملك البلغاري وجود مخالفين له من حكام البلدان التابعة لنفوذه، والذين لايقبلون الإسلام، واسم هذا الملك سيميون الأعظم Siméon le Grand (ت. سنة 927/317)، ويذكر ابن فضلان أن سازل البلغار تمتد على نهر راثل le Valga، غير أن الإسلام لم ينتشر بين البلغار في هذه الفترة بالمنظر لوفاة هذا العاهل بعد سنوات قليلة من إسلامه، ولم يكن عدد المسلمين حسب الحميري يتجاوز خمسمائة بيت وكانت لهم تجارة مع الخزر ولغتهم واحدة، ويتحدث الاصطخري عن سكان عاصمة البلغار بوصفهم مسلمين لهم مسجد جامع. وكانت العاصمة هي بلار على ضفاف الفولجا ويسميها الجغرافيون المسلمون بالبلغاريا أيضا، وكان السكان المسلمون ببُلار على المذهب الحنفي. واكتسحت النصرانية من جديد شعب البلغار في مرحلة لاحقة قبل الزحف العثماني بوقت طويل، لكن لا تزال توجد أقلية تركية كبيرة العدد.

واستقر الإسلام بصقلية على يد الأغالبة بقيادة أسد بن الفرات منذ سنة 827/212م، وبدءا بسرقوسة، ثم استولى عليها النرمان ابتداء من 1091/484م فعاش المسلمون أو من رضي بالبقاء منهم في كنفهم قبل أن تبدأ عملية تنصيرهم وتشريدهم، وكان من أهم أسباب زوال السيادة الإسلامية على صقلية، انشغال الحكم المركزي في إفريقية بدخول بني هلال والنزاعات الداخلية بين مسلمي الجزيرة، ولم

يكتف النرمان بصقلية فحسب، بل احتلوا عددا من موانئ إفريقية نفسها في فترة لاحقة. ولم تكد صقلية تسقط في يد النرمان حتى عمد روجار الأول إلى الاستيلاء على أملاك المسلمين ثم خلفه نجله روجار الثاني، فسلك تجاه المسلمين سياسة أكثر تفتحا، بل تشبه بهم في مؤسسات الحكم وحتى في الزي وشملهم برعايته، وأنشأ ديوانا للمظالم، وخصص ابن جبير، كشاهد عيان في القرن السادس، عدة صفحات، لأوضاع المسلمين بصقلية، وكانت زيارته لصقلية خلال السبعينات من هذا القرن، وهو يسجل ما عليه الأوضاع الأمنية من استقرار حتى بالنسبة للغرباء الذين لايعترضهم أحد، ولاحظ خصب الجزيرة، أو بالأحرى المناطق التي زارها. والمسلمون حينئذ يحتفظون بحقوق الملكية العقارية والزراعية ويؤدون الضرائب مرتين في السنة، لكن لم تعد لديهم ملكيات واسعة كثيرة، وبالعاصمة بالرمو عدد كبير من المسلمين لهم أسواقهم وأحياؤهم ومساجدهم، ويستعمل غليوم في قصره عددا من المسلمين من بينهم فتيان أخضعوا لعملية الإخصاء ولكن لا أحد في القصر يظهر الإسلام مع محافظة أكثر المسلمين على شعائره، وكان بحاشية غليوم عدد من العبيد السود المسلمين أيضا، ولا يبعد أن يكون قد استقدمهم عبر إفريقية أو منها، كما أن حظاياه وجواريه كلهن.. مسلمات، وكلما حلت نصرانية بالقصر عملن على إدخالها في دين الإسلام، وأعجب ما يذكره ابن جبير عن فريق الفتيان الذين اعتمد عليهم غليوم في مراقبة وتسيير عدد من قطاعات الدولة، أنهم «...مسلمون، ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعا وتأجرا، ويتصدق تقربا إلى الله، ويفتك الأسرى ويربي الأصاغر منهم ويزوجهم...»، وكان على هؤلاء الفتيان أن يتمسحوا بحكم وضعيتهم كأرقاء أسندت إليهم مهمات تقتضي الثقة، غير أنهم حافظوا سرا على أداء شعائرهم، ويتسترون في ذلك مع تعاطفهم الشديد مع المسلمين الوافدين والمارين. بل كان نصارى صقلية أيضا، يرحبون بهؤلاء المسلمين وهم في طريقهم إلى أقطار المغرب الإسلامي أو مارين منها.

وهكذا كان المسلمون بصقلية فئتين، إحداهما يعيش تحت الرق أو يعمل في كنف الدولة وتستر إسلامها وتظهر المسيحية، وثانيتهما مسموح لها بالعمل الحر وممارسة شعائرها علانية وإن كانت منعزلة عن النصارى، وهذا هو ما كان العمل يجري به في ظل الحكام النصارى بإيبيريا. بل كان التسامح على درجة واسعة تجاه المسلمين بصقلية حتى إن المؤذنين تسمع أصواتهم بالعاصمة بالرمو، غير أنهم لم يكونوا يؤدون صلاة الجمعة بالنظر لمنع الخطبة عنهم، وواضح أن ذلك لما يمكن أن يكون لها من تأثير سياسي وتحريض ضد السلطة، لكن كان يسمح لهم بخطبة العيد والدعاء للخليفة العباسي، وهذا في الوقت الذي كانت توجد خلافة موحدية قوية، بينما الخلافة العباسية قد فقدت نفوذها من زمان، والأرجح أن يكون ذلك بضغط من حكام صقلية، نظرا لما قام به الموحدون من إقصاء النرمان عن سواحل إفريقية. وتأثرت المسيحيات أيضا بالزي النسوي الإسلامي فالتحفن وتخضبن كالمسلمات واتخذن حليهن.

ولم يقتصر التأثير الإسلامي على صقلية النرمانية وحدها، فحتى منطقة لمبارديا الإيطالية كان يعيش بها عدد مهم من المسلمين، وبمركزها بابيه Pavia أحصى الإدريسي ما يزيد عن أربعمائة من كبار التجار المسلمين، وثلاثمائة فقيه مسلم كانوا يقومون بتحرير عقود التجارة لدى اللمبارديين ويفصلون في نزاعاتهم أيضا، والأرجح أن هذه العقود كانت تحرر بالعربية وهذا العصر كان عصر احتكاك واسع النطاق في مجال التجارة بين المسلمين والنصارى عبر المتوسط، ثم إن الأوروبيين لم يلجأوا إلى مدونة جوستينيان والاحتكاك بالقانون الروماني إلا منذ هذا العصر بالذات (القرن 12/6م)، وهذا ما يفسر تخلف مجال التشريع والتوثيق بلمبارديا كما في غيرها، وبفضل التشجيع الكبير الذي خص به روجار الثاني، الشريف الإدريسي، تمكن هذا الجغرافي الفذ من إعداد كتابه القيم : نزهة المشتاق، والكرة الفضية الأرضية وخارطة الأقاليم التي تميزت بدقتها.

وتغيرت أوضاع المسلمين في صقلية بشكل مفاجئ منذ تولي أسرة (السواب) عرش الجزيرة سنة 1194/592م، فبدأ اضطهاد المسلمين وملاحقتهم في موارد عيشهم، مما اضطر أفواجا ضخمة منهم تعد بالآلاف، إلى مغادرة الجزيرة والالتحاق غالبا بإفريقية. وبقي عدد من الأسر التي شملها الرق والإقطاع، فصارت تخدم الأرض وتباع معها، وابتداء من أواسط القرن 13م (7 هـ) بدأ تعميد أبناء المسلمات قهرا ومنع علىالمسلمين حمل السلاح، وحمل بقايا المسلمين شعارا يميزهم عن النصارى.

وكانت فترات التسامح تجاه المسلمين في الممالك النصرانية الإيبيرية محدودة في مجملها، ولا ريب أن الأسرى لدى الجانبين معا كانوا أسوأ وضعا، وعلى العموم يعتبر الأسرى المسلمون لدى النصارى أرقاء لا يحصل أحدهم على حريته إلا بالتنصر. وعندما يدخل النصارى بلدا مسلما فإنهم يحولون المساجد إلى كنائس، على غرار ما كان يفعله المسلمون بالكنائس إذا لم يهدموها. وعلى المسلمين أن يشاهدوا الأجراس على الصوامع ويسمعوا رنينها بدل صوت المؤذنين. وقام خايمي عاهل أراغون بطرد المدجنين ابتداء من 652 هـ والاستغناء عن المزارعين المسلمين، على إثر ثورة قام بها مدجنو بلنسية، ثم حرمت عليهم وظائف الدولة في الممالك النصرانية شأن اليهود أيضا، وبدأت عملية التنصير بالقوة على نطاق واسع قبل أكثر من ستين سنة على سقوط غرناطة، وأجيز استرقاق كل مسلم بصفة مباشرة إذا وقع في أسر نصراني. وأوضاع الموريسكوس بعد سقوط غرناطة معروفة، مع ما تلا هذا السقوط من اضهاد وتنصير وإحراق وتشريد.

أوضاع المسلمين الجُدُد

يعامل كل مسلم دخل الإسلام بعد كفر، كأي مسلم آخر أصيل في دينه. وهناك أشخاص كثيرون كانوا خاملي الذكر قبل إسلامهم فرفع الإسلام من شأنهم. ويتم إسلام الشخص أو بالأحرى إتمام إجراءات دخوله في الإسلام على يد القاضي أو من يقوم مقامه عند عدمه، كفقيه أو زاهد، ويتعين إشهار إسلامه بالمسجد على رؤوس الملاء وربما وقع الإشهار به في سوق أو مكان عمومي حتى يعرف إسلامه ويعامل على أساسه، أي من حيث الحقوق والالتزامات، فإذا ارتد عومل كأي مسلم نشأ على الإسلام وكبر عليه ثم ارتد، أي يستتاب، ثم يقتل إذا لم يجدد إسلامه.

وقد أسلم عدد كبير ممن كانت لهم مسؤوليات أو وظائف في الدولة الإسلامية. إما للاطمئنان على وظائفهم أو اقتناعاً بقيم الإسلام أو امتنانا للجهة التي عاملتهم بالتكريم ووفقا للتسامح الإسلامي. وهؤلاء المسلمون ليسوا كالموالي الذين يكونون أرقاء أصلا ثم ينضمون إلى الأسرة التي عاشوا في كنفها. وعدد كبير من هؤلاء المسلمين الأحرار الجدد نالوا مناصب رفيعة أو ساهموا بنصيب بارز في العمل الثقافي والفكري.. وهكذا أسلم الحسن بن سهل وأسرته على يد البرامكة، وكانوا مجوسا. وعرف الحسن بن سهل، وقد تولى منصبا وزاريا رفيعا، بترفه المفرط. وكان هو وأخوه الفضل من الأدباء المتميزين، وكان والد أبي سعيد السيرافي مجوسيا يدعى بهزاد، فأسلم وأنجب نجله هذا فكان من أبرز شخصيات النحو العربي وعلوم القراءات مع ضلاعته في الفقه والكلام والعروض. وكان زاهداً ورعا كما يقول ابن تغري.

وكان يعقوب بن كلّس يهوديا يقطن بغداد، ثم عمل سمارا، وتاجر لمصلحة كافور الإخشيدي، ثم أسلم على يده، ولجأ إثر ذلك إلى إفريقية خشية بطش أحد الوزراء، ورحب به العزيز الفاطمي، وبدون شك كانت له يد في تحميس الفاطميين للاستيلاء على مصر. وبعد وفاته دفنه العزيز في قبة كان خصصها لنفسه وتوقفت دواوين الدولة حدادا على وفاة يعقوب الذي كان العزيز قد استوزره.

ومهيار الديلمي فارسي من الديلم بجيلان (في إيران). كان مجوسيا، درس الأدب وصناعة الشعر على يد الشريف الراضي، فكان إسلامه وتشيُّعه من توجيه أستاذه. ومن أبرز

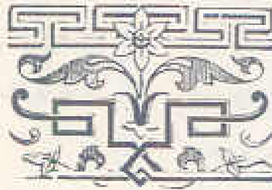
شخصيات مصر والشام في عهد الناصر بن قلاوون، نائبه بالشام سيف الدين أرغون شاه، وأصله من الصين، أهداه أحد ملوك التتار إلى ابن قلاوون، وعرف بغلظته وثروته.

وأسلم شمس الدين إبراهيم المعروف بكاتب أرنان، وهو من أقباط مصر، أيام الظاهر برقوق، وكان من موظفي ديوانه، ثم أكرهه على قبول الوزارة فضبط شؤون الدولة الجباية في ظروف أزمة اقتصادية، وكف أيدي الولادة عن الجور.

وهذه الأمثلة ليست إلا غيضا من فيض، فقد تعد بالمآت، بل بالآلاف عبر العصر الوسيط وفي مجموع العالم الإسلامي، وقد عرفنا أن إسلام عدد من ذوي الطموح ليس دائماً منزها عن الروح النفعية، لكن هذه الروح تجدها حتى لدى المسلم العريق أبا عن جد في الإسلام، فأغلب الذين أسلموا حسن إسلامهم وانتفع المجتمع الإسلامي بهم كل في دائرة توجُّهاته وإمكاناته، وكثيرا ما يحظون بتكريم المجتمع والسلطة معا، لأن المسلمين يعتبرون إسلام مثل هذه الشخصيات كسبا للإسلام وهي في مستوى يسمح لهابالاختيار العقائدي لا عن طريق الإيمان والتسليم فحسب، بل كذلك عن طريق العقل والدراسة والمقارنة.

وقد رأينا أن انتشار الإسلام تطلب صبرا طويلا ومر بتطورات عديدة في غالب الجهات قبل أن يستقر أو يصبح دين أقلية أو أغلبية، وفرق بين الفتح السياسي الذي يحتاج إلى استعمال القوة للتغلب على الأرض ومن فيها، والفتح العقائدي الذي يتطلب غزو القلوب والعقول ليتمكن منها ويستقر فيها.

الرباط : ابراهيم حركات



لغة الضّاد

وأفق ملازمتها للإسلام في افريقيا

للأستاذ
عبدالله كابوس

أخشى أن يكون الحديث عن الإسلام في إفريقيا السوداء يستلزم بالضرورة اختصاصا معمقا في تاريخ هذه القارة، حتى تكون الإحاطة شمولية ودقيقة، وتحصل بالتالي الغاية في توضيح الرؤية، باعتبار التاريخ عنصر قوة في كثير من العلوم الإنسانية، وإن كان الكثيرون من ذوي النباهة في علوم الشريعة الإسلامية قد دخلوا الميدان من بابه الواسع وأعطوا ـ بحق ـ الكثير عن العقيدة السمحاء ودورها في تطور شخصية وفكر الإنسان الإفريقي الذي طالما عاش الحيرة وعايش الغموض وسط زحمة غياهب الأساطير، ثم لم يلبث أن أدرك أن الإسلام دين حق ودعوة حق، ومنهج كامل ومتكامل للحياة البشرية وأن الباطل هو بقاء العقل في حيرة دائمة أمام سلوكات صاحبه في غياب تمييزه الخبيث عن الطيب.

غير أن دافع الفضول يجعلني أقبل على الموضوع من زاوية بعيدة قريبة ـ ولو من ثقب الباب ـ أنها جانب اللغة، لغة القرآن ولغة خاتم الأنبياء والرسل سيدنا محمد ﷺ، والطريق السوي المستقيم نحو الاعتناق الصحيح للدين الصحيح.

فإذا كان القرآن الكريم المنزل بلسان عربي مبين يعتبر أن الكفار إنما يحيون حياة الحيوان، إذ ليس لهم رسالة كريمة ولا غاية نبيلة ولا هدف سام. وحياة الحيوان هذه لاتتجاوز المتاع واللهو، لقول الله تعالى : ﴿**والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوي لهم**﴾.[1] فالمسلمون يحيون مع حياة الإسلام واستمراريته، وهم مطالبون ـ بصرف النظر عن انتماءاتهم الجغرافية ـ بدعم وملازمة لغة التنزيل، وقد أثبتت جميع الدراسات اللغوية أن نمو اللغة العربية واتساعها وشمولها وتطورها تم بفضل القرآن الكريم قبل غيره، وقد تبين هذا منذ عهد الرسول ﷺ. حينما وردت ألفاظ جديدة ضمن الكتاب المنزل، والتي لم يفهم المسلمون دلالاتها من أول وهلة.[2]

1) سورة محمد، آية 13.

2) أنور الجندي، الفصحى لغة القرآن، الموسوعة الإسلامية العربية (10) ص. 52 بتصرف.

وقد يخطئ من يضع الإسلام في المكان الثاني بعد اللغة العربية، فالإسلام يدفع إلى تعلم اللغة العربية، واللغة العربية قد لا تدفع إلى اعتناق الإسلام، ومن هذا المنطلق فإن الواقع التاريخي للشعوب الإسلامية يؤكد التلازم بين اللغة العربية والإسلام فاللغة العربية ـ التي هي لغة القرآن ـ سارت في ركاب الإسلام وحلت حيثما حل، ثم إن أهل البلاد الناطقة باللغة العربية كانوا ولا يزالون أقدر على فهم الإسلام لقدرتهم على فهم القرآن والحديث وهما المصدران الأساسيان لتعاليم الإسلام.[3] وإذا كان العمر لا يتسع لجميع العلوم، فإن على المرء أن يصرف همه الأول على أشرف العلوم وأحسنها، وليس أشرف ولا أحسن عند المسلم من القرآن الكريم الذي ارتبطت به اللغة العربية وتأثرت به، وكان التحدي الخطير الذي واجه الاستشراق والغزو الثقافي والتبشير في العصر الحديث. فقد كانت الخطة ولا تزال تهدف إلى فصم العلاقة بين القرآن ولغة القرآن، والعمل بقوةعلى عزل اللغة العربية عن القرآن ودفعها إلى الطريق الذي سارت فيه كثير من اللغات حتى انتهى أمرها إلى مجموعة من اللهجات، فالخطر كله من لغة القرآن، والهدف كله هو الفصل بين اللغة والقرآن لابل القضاء على قاعدة الثبات الوطيدة الأصيلة في الفكر الإسلامي والعقيدة الأسلامية حتى تفقد اللغة ذلك الشرف والمستوى المرتبط بالقرآن وبيانه وبلاغته،[4] بيد أن الله تعالى حفظها حفاظا على العروة الوثقى بين الإسلام ولغة الضاد التي آمن بها المسلمون منذ فجر الدعوة الإسلامية وربطوا أنفسهم باللغة العربية رباطهم بالإسلام، إذ أن القرآن بنصه العربي المنزل المحفوظ حتى يومنا هذا هو وحده القرآن، وأن ترجمته إلى لغة أخرى لا تسمى قرآنا وليس لها أحكامه فلا يكون مصدرا للاستنباط ولا يتعبد بها.[5]

ومن هنا كان من الأجدر والأليق بالإنسان الإفريقي الذي رأى في الإسلام طريقه الصحيح وملاذه الأخير أن يراعي ما به صار إنسانا أكرم المخلوقات بسر الروح الذي نفخ فيه، وبسر خلافته في أرض الله وبسر تسخير الكون كله له وبسر حمله الأمانة وبسر قيامه بأمر الله وعبادته.[6] أن يعلم أن اللغة العربية ليست كسائر اللغات، وأن صلتها بالإسلام وارتباط القرآن بها قد منحها طابعا ووضعا مختلفا أشد الاختلاف، فإذا كانت اللغة العربية هي اللغة القومية لمائة مليون من العرب، فإنها لغة الفكر والثقافة والعقيدة ـ ولغة المستقبل أيضا ـ[7] لألف مليون من المسلمين وهي لم تتراجع عن أرض دخلتها لتأثيرها الناشيء من كونها لغة دين ولغة مدنية، وساعدها على النماء أنها كانت لغة السياسة والتجارة، وقد كان لها أثرها الواضح في الفارسية والتركية والهندية وبفضل القرآن الذي جعل منها لغة فكر إذ ألقى إليها وإلى الفكر الإنساني كله أضخم شحنة من القيم والمبادئ.[8] بلغت ـ اللغة العربية ـ ذلك الاتساع، وبفضل الإسلام حققت هذا النمو بما لم تعرفه لغة أخرى من لغات العالم.[9] ثم إن اللغة العربية تتميز بأنها أقرب لغات الدنيا إلى قواعد المنطق بحيث إن عبارتها سليمة طيعة تهون على الناطق أن يعبر بها عما يريده من دون تصنع أو تكلف.[10]

فلا ريب إذن، في أن العربي تجاوزت التعريف القائل بأن اللغة وسيلة التعامل وآلة التفاهم،[11] بدليل اتساعها ونموها المرتبط بالقرآن، واعتقاد المسلمين الحق أن

3) أنور الجندي، المرجع السابق، ص 56.
4) المرجع السابق ص 41 بتصرف.
5) المرجع السابق، ص 43.
6) سيد حوى، الإسلام، ص 220.
7) عكس ما يتباهى به من يرون في «الإنجليزية» لغة المال.
8) من مظاهر قوة الإسلام وعزة أهله ما ترويه بعض المصادر الإنجليزية القديمة عن ملك أنجلترا (جوهن) حين أرسل إلى الخليفة الناصر الموحدي بعد بضع سنوات من بناء جامع حسان بالرباط.. يعرض فيه ـ كدليل على الامتنان ـ أن يعتنق هو وأفراد رعيته الإسلام، مقابل أن يمده العاهل المغربي بالعون. (عن الدكتور عبد الهادي التازي في كتابه : «الإلمام بمن وافق حكمه للمغرب استهلال المائة عام». ص 22).
9) أنور الجندي، المرجع السابق ص 8.
10) المرجع السابق، ص 10.
11) محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، ص 282، ج 8.

لغة التنزيل إنما هي جزء من حقيقة الإسلام لأنها كانت ترجمانا لوحي الله ولغة لكتاب الله ومعجزة لرسوله ولسانا لدعوته.[12]

ولما كان القرآن حافزا لانتشار العربية في الخافقين، إذ لولا القرآن لظل أهل كل بلد من البلدان التي انضت إلى الإسلام ينطقون بلهجة يستعجمها أهل البلد الآخر، ولولا القرآن لما أدرك أعداء الإسلام مدى الصلة بين المسلمين ولغتهم ولما ازدادوا ضراوة في الهجوم عليها ومكرا في الكيد لها، ولما كان القرآن ضروريا في حياة المسلم، لقول النبي ﷺ، عن ابن عباس رضي الله عنه : «أن الرجل الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب».[13] فإن اللغة العربية التي هي باب القرآن وباب السنة تحمل أصحابها من الجانبين - الملقن والمتلقن - مسؤولية تبليغها وإيصالها إلى من هم ضعاف جهلة ويطلبون من يعلمهم اللغة العربية للوصول إلى تعلم القرآن والإسلام، خاصة وأن فقرهم يحول بينهم وبين هجرتهم للتعلم..[14]

ولما كانت غاية الدين الإسلامي هي سعادة الدارين إذ لا يمكن الوصول إليها إلا بتزكية النفس بالإيمان الصحيح ومعرفة الله والعمل الصالح ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال لا بمجرد الاعتقاد والاتكال ولا بالشفاعات وخوارق العادات،[15] وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿**وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا، وجعلنا قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا، وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا**﴾.[16] ويقول سبحانه جل وعلا : ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا**﴾. من هذا المنطلق إذن وجب على المسلم في إفريقيا أن يتطلع إلى قبلة لغة التنزيل باعتبارها الممر الضروري والسبيل القويم لمعرفة شريعة الله تعالى وإثبات الهوية الحقيقية للمسلم الذي لايميزه ربه - سبحانه عز وجل - لجنسه أو للونه... وإنما لعمل صالح وعلم نافع له في الدنيا والآخرة، وفي هذا قال النبي ﷺ حينما سئل عن رجلين كانا في بني إسرائيل، أحدهما كان عالما يصلي المكتوبة ثم يجلس، فيعلم الناس الخير، والآخر يصوم النهار ويقوم الليل أيهما أفضل : «فضل العالم الذي يصلي المكتوبة ثم يجلس فيعلم الناس الخير على العابد الذي يصوم النهار ويقوم الليل كفضلي على أدناكم رجلا».[17] هذا التوجيه الحكيم الصادر عمن نزهه الله تعالى من أن ينطق عن الهوى يدعو - وينادي - المسلم في إفريقيا (الغربية خاصة) التي يعد فيها الإسلام أهم أديانها وهو الدين الذي اصطفاه قلبها،[18] اعتماده كقاعدة أساسية ثابتة للحفاظ على الهوية الإسلامية ضد خطر المؤسسات التبشيرية التي تجد في الإسلام خطرا حقيقيا وندا قويا لنشاطها وجهودها ليس بما يمتلك المسلمون[19] من إمكانات الدعوة والانتشار في أرض إفريقيا ففي هذه

---

12) أنور الجندي، المرجع السابق، ص 45.

13) سنن الدارمي (الجزء الثاني) ص 429. كتاب فضائل القرآن - باب فضل من قرأ القرآن - دار إحياء السنة النبوية.

14) عماد الدين خليل. مأساتنا في إفريقيا. الحصار القاسي. (وثائق من تاريخنا المعاصر). ص 15.

15) الدكتور عبد القادر حاتم، الأعلام في القرآن الكريم. ص 139.

16) سورة الإسراء، آية 45 و 46.

17) سورة الإسراء، آية 9.

18) سنن الدارمي، ج 1. ص 98.

19) الشيخ حميدو كان (السينغال) في كتاب :

«le bulletin de l'association musulmane des étudiants Africains à Dakar».

عن : فنسان مونتاي، ترجمة إلياس حنا إلياس.

الإسلام في إفريقيا السوداء. ص 62.

19) جانب الدعوة إلى الله في الدول الإسلامية - والإفريقية منها بخاصة - بادر إليها المغرب بفكرة إيفاد بعثات لتدريس لغة التنزيل، وهي خطوة نموذجية، وناجعة حتما، لو لقيت السعي المطلوب والمرجو من جانب الدول الإسلامية في إفريقيا الغربية - خاصة -، راجع شهادة الأستاذ العلامة : إبراهيم محمد جوب، في موضوع :«إلى أين تسير إفريقيا المسلمة».

نص الدروس الحسنية التي ألقيت بحضرة أمير المؤمنين عام 1407 هـ ص 203. طبعة 1988 لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

النقطة بالذات يبدو التفوق واضحا للمؤسسات التبشيرية التي تسندها أغنى الدول وأقواها، ولكن بما في الإسلام نفسه من حيوية وسماحة ووضوح واندفاع ذاتي وإقناع، تقف وراءه دائما العناية الإلهية التي جعلت من هذا الدين طريق البشرية الأخير.[20]

ولترجمة هذه القناعة والوصول ـ بالتالي ـ إلى الغاية التي تقوي الشعور بالوحدة، وتؤلف بين قلوب أفراد المجتمع، دون أن تقيم وزنا لحواجز اللون أو الجنس بل تمنح الجميع أخوة إسلامية مشتركة،[21] ينبغي الاقتداء بلغة القرآن، ولغة السنة لتزكية الهوية الإسلامية الصحيحة، فليس أسوأ من أن تكون موجودا ولا هوية لك، وليس أسوأمن أن تكون مسلما ولا شيء في جوفك من القرآن، وليس أسوأ من أن تكون حافظا لشيء من كتاب الله ولا تدرك ولا تعي شيئا من لغة الضاد...[22]

وجدة ـ عبد الله بوكابوس

---

20) عماد الدين خليل، مأساتنا في إفريقيا ـ الحصار القاسي ـ وثائق من تاريخنا المعاصر. ص 73.

21) جورج كاربنتر في كتابه (إفريقيا اليوم) ص : 98 ـ 99، عماد الدين خليل. المرجع السابق، ص 160 و 161.

22) فنسان مونتاي، ترجمة إلياس حنا إلياس ـ الإسلام في إفريقيا السوداء ـ ص 268 ـ 269.

اهتمام الإسلام بالأسرة

للأستاذ عبد القادر العافية

عندما نراجع النصوص المتعلقة بتكوين الأسرة، وبتنظيم العلاقة بين أفرادها نجد أن المصادر الأساسية للتشريع الإسلامي اعتنت بهذا الموضوع عناية كبيرة ابتداء من الحث على حسن اختيار شريك الحياة، والحث على حسن المعاشرة ودوام المودة... إلى وجوب العناية برعاية الأطفال وحسن تربيتهم وتأديبهم وتعليمهم، وبث الفضائل في نفوسهم...

ويلاحظ الدارس لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في هذا المجال أنها تهدف إلى بناء الأسرة الإسلامية بناء متينا على قواعد سليمة، بحيث يدرك القارئ لهذه النصوص أن التوجيهات الإسلامية في هذا الباب ترتكز على دعائم عقلية، منطقية، وعلى أسس نفسانية قويمة مع مراعاة الجوانب العاطفية للإنسان وصيانة عرضه وتوفير كرامته... من هذه المنطلقات تنطلق التوجيهات الإسلامية في بناء الأسرة وتكوينها، وهي منطلقات لها جذور فطرية في النفس الإنسانية، ولها أصل مكين في الطبائع السليمة فهي نصوص موجهة ومرشدة لما يسمو بروابط الأسرة، ومحذرة في نفس الوقت من الوقوع في المزالق والمآسي ومنغصات الحياة...

وبتحليلنا لبعض النصوص الواردة في موضوع الأسرة ندرك مقدار سمو العلاقات الإنسانية التي يدعو إليها الإسلام في هذا المجال فمن هذه النصوص قوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا**﴾... (النساء/1).

ففي هذه الآية نرى أن الخطاب موجه للناس كافة، أي موجه للإنسانية جمعاء، والخطاب القرآني ينادي بمراعاة قدسية الزواج، والروابط الزوجية... ويذكر المخاطبين بأن الرجل والمرأة خلق من نفس واحدة، ومن عنصر واحد، بحيث لا يتميز أحدهما عن الآخر في التكوين، وهذا إبطال لما كانت تدعيه بعض المجتمعات والفلسفات من تميز الرجل عن المرأة في طبيعة تكوينهما.

فمن الرجل والمرأة حسب المنطوق القرآني تكونت الخلية الأولى للأسرة ومن مجموع الأسر يتكون المجتمع الإنساني، يقول النص: ﴿**وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام**﴾ فمن الرجل والمرأة يتكون المجتمع، وكما على الإنسان أن

يراعي جانب الله في سائر تصرفاته، فعليه كذلك أن يراعي العلاقة الإنسانية وأن يصونها، وألا يقطع وشائج الأرحام، لأن هذه الأرحام لها مرتبة عظيمة عند الله الذي خلق الإنسان وجعله نسبا وصهرا.

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾ (الروم/20).

تشير الآية الكريمة إلى أن الذين يتفكرون في سر العلاقة بين الرجل والمرأة : العلاقة التي بناها الإسلام على الود والمحبة والتساكن والرحمة... هم الذين يتفكرون في آيات الله، وهذا رفع كبير لقيمة الرابطة الزوجية، فالمرأة في هذا الخطاب الإلهي هي من نفس الرجل، والشيء المنسوب إلى النفس شيء عزيز... فيا أيها الرجل ويا أيتها المرأة قدرا نعمة الله عليكما حيث جعل لكل واحد منكما سكنه الآمن، وملجأه الدافئ، وبذلك يكون الاطمئنان، وتكون الرحمة والمودة والتفاهم والمؤانسة والتكامل...

هذا التصوير الفني البديع للعلاقة بين الرجل والمرأة يعطي للحياة الزوجية مذاقا جديدا وقدسية وسموا...

فالزوجة تضع نفسها أمانة عند زوجها، والزوج يضع نفسه أمانة عند زوجته، وقد أعطى كل واحد منهما للآخر عهد المودة والصفاء، ومن هنا لا يجوز لأحدهما أن يكدر صفو هذه الحياة التي هي من أجل نعم الله عليهما، بل عليهما أن يحوطا علاقتهما بالمودة والتوادد، والمحبة والتحابب...

☆ ☆ ☆

وفي آية أخرى يصور القرآن الكريم مبلغ الترابط بين الزوجين فيقول : ﴿**وقد أفضى بعضكم إلى بعض، وأخذن منكم ميثاقا غليظا**﴾. (النساء / 21).

والإفضاء الوارد في الآية كلمة جامعة، فالإفضاء كما يكون بمباشرة الأجسام والتصادق بعضها ببعض يكون بالإسرار، وبالمعاني... والميثاق الغليظ هو رباط الزوجية، ولوازمه من وجوب المعاشرة بالإحسان والرفق والمودة...

ومن أبدع النصوص القرآنية في تصوير العلاقة بين الرجل والمرأة، قوله تعالى : ﴿**هن لباس لكم، وأنتم لباس لهن**﴾. (البقرة / 187).

ومن شأن اللباس أنه يستر صاحبه، ويضفي عليه رونقا وجمالا، فالزوجان يجمل كل واحد منهما الآخر ويصونه... فكل من الزوج والزوجة ستر وجمال للآخر...

من الأكيد أنه من الصعب جدا أن يجد الباحث مثل هذه المعاني السامية لتصوير العلاقة بين الزوجين في غير الإسلام...

ويحبب الإسلام الحياة الزوجية للناس ويجعلها مصدر تفاؤل وخير، ومبعث بهجة وسرور... يقول تعالى : ﴿**والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة، ورزقكم من الطيبات...**﴾ (النحل / 72).

فالحياة الزوجية من أهم بواعث اطمئنان النفوس، وهي إلى ذلك وسيلة للحفاظ على النسل، ومدعاة إلى سريان الابتهاج في البيت بوجود الأبناء والحفدة، والرزق الطيب الذي ييسره الله، ويفتح أبوابه...

فحب الإنسان للبقاء، لا سبيل إليه في سمو إنساني، وعلاقات رحيمة الا بتنظيم الفطرة البشرية عن طريق الزواج المشروع المحقق لأهدافه وغاياته... فالإنسان محتاج في بقائه إلى أبنائه وأحفاده الذين يطمئن إليهم قلبه وينشرح لهم فؤاده، ويرى فيهم امتداده واستمرار ذكره وخلود حياته...

والإسلام الخبير بخلجات النفس الإنسانية يؤكد أن مؤسسة الزواج لا يمكن أن تقوم على أحسن وجه، إلا بالتزام آداب وأخلاق معينة، لأن رباط الزوجية المقدس يحتاج إلى أن يحترم من الجانبين : جانب الرجل وجانب المرأة.

يقول تعالى : ﴿**وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا**﴾. (النساء / 19).

فالقرآن الكريم يوجب حسن المعاشرة بأمر إلهي، وإذا حدث ما يكدر صفو الحياة الزوجية فلا بد من الصبر والتأني وعدم التسرع في اتخاذ القرارات التي من شأنها أن تهدم بيت الزوجية، وتعبث بالميثاق الغليظ...

☆☆☆

ويوصي القرآن الكريم الأزواج وينبئهم بقوله : ﴿**فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا**﴾. وفي هذا إشعار للزوج بأن فصم عرى الزوجية قد يفوت عليه فرصة لا تعوض، ويحرمه من خير كثير، ويعرضه للتحسر والندم... وربما ضيع عليه فرصة العمر... فمن الحكمة أن يتريث ويصبر...

وقال نبينا ﷺ : «رفقا بالقوارير». وقال عليه السلام : «أكمل المؤمنين إيمانا، أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم» وقال عليه السلام : «لا يفرك مؤمن مؤنة - لا يبغضها - إن كره منها خلقا رضي منها غيره».

ويقول النبي ﷺ : «الدنيا كلها متاع، وخير متاع الدنيا : المرأة الصالحة.

فالحياة الزوجية في الإسلام مبنية على سعة الصدر، والتجاوز عن الهفوات، وعلى حسن الظن، والتغاضي عن كل ما لا يخل بالمروءة، أو يخدش الكرامة، أو يمس العرض.

والقرآن الكريم يطمئن الزوجين ويهدئ من حالتها النفسية عندما تكون رغبتهما شديدة في الحصول على الذرية ولا يرزقانها، يقول تعالى : ﴿**يهب لمن يشاء إناثا، ويهب لمن يشاء الذكور، ويزوجهم ذكرانا وإناثا، ويجعل من يشاء عقيما**﴾. (الشورى / 47).

ففي هذا التوجيه الإلهي إشعار بأن أمر الذرية بيد الله تعالى، يهب لمن يشاء الذكور أو الإناث أو هما معا، ويجعل من يشاء عقيما، وبذلك يتأكد المسلم أنه لا معنى للتحسر، والتلهف وإثارة المشاكل... وصب جام اللوم والغضب على الجانب الآخر...

وإذا كان من طبيعة النفس البشرية أنها تهفو إلى تحقيق رغبتها في الذرية فبالوسائل المشروعة، ودون اللجوء إلى تنغيص الحياة باللوم تلميحا أو تصريحا، لأن الله تعالى يهب الذرية لمن يشاء بإرادته هو تعالى، فالقرآن الكريم يتدخل ليحسم هذا الأمر الذي يشغل بال الزوجين، والذي ينغص على كثير من الناس حياتهم، ويعطي درسا للذين يجهلون نوامس الحياة، أو يريدون تخطي ما قسم لهم.

بل يذهب القرآن إلى أبعد من ذلك فيقرر بأن المرأة ليست مسؤولة بتاتا عن إنجاب الذكور أو البنات - كما يزعم بعض الناس - فيقول تعالى في معرض حديثه من الإنسان : ﴿**ألم يك نطفة من مني تمنى، ثم كان علقة فخلق فسوى، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى...**﴾. (القيامة / 38).

فسواء أعدنا الضمير في (منه) على الإنسان، أو على المني الذي هو أقرب مذكور، والذي يحتل البويضة... يبقى المعنى واحدا وهو أنه لا دخل في إنجاب الذكور أو الإناث للمرأة بل ذلك بيد الله تعالى.

فالقرآن الكريم يحذر المسلم من المزالق التي يقع فيها كثير ممن يجهلون نوامس الحياة، وبذلك يضفي على الحياة الزوجية هالة من الإحترام، ويجعل منها رابطة متينة تقاوم تقلبات الحياة وعواصف الزمن، وهواجس النفوس...

وببناء الحياة الزوجية على تعاليم الإسلام، وبمراعاة التوجيهات الربانية يتهيأ الجو النافع والمناخ الصالح لتنشئة أسرة إسلامية قويمة، ولتربية أطفال ذوي أخلاق كريمة.

وإلى هذا راعت الشريعة الإسلامية في الواجبات المطلوبة من الزوج مسؤولية الرجل عن الأسرة، وقدرته الجسمية فأوجبت عليه واجبات نحو زوجته منها : دفع الصداق لها، ووجوب الإنفاق عليها وعلى أولادها منه، ووجوب إرشادها إلى الخير، وإلى الطريق المستقيم، ووجوب معاشرتها بالمعروف... أوجبت على الرجل هذه

الواجبات إكراما للمرأة، مع أن الرجل والمرأة متساويان في منافع الزوجية، من حيث أن كل واحد منهما يحمي صاحبه ويصونه، ويجعل حياته أكثر اطمئنانا، واستقرارا... فكما تستقر حياة الزوج بالزواج تستقر به حياة الزوجة، وهما متساويان من حيث أن كل واحد منهما يتمتع بصاحبه، وكل منهما يطلب الذرية الصالحة لتكون ثمرة فؤاده، وسر وجوده...

ومع قيام هذه المنافع المشتركة بينهما، أوجبت الشريعة الإسلامية الإنفاق على الزوج، وأوجبت عليه عدم الإضرار بزوجته : كهجرها، أو منعها من زيارة أهلها، أو الإساءة إليها بالكلام الذي لا يليق...

وفي مقابل ذلك أوجبت التعاليم الإسلامية على الزوجية طاعة زوجها في الخير والمعروف - لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق - وأوجبت عليها تلبية رغباته المشروعة، والنظافة في نفسها وأولادها وبيتها، وأوجبت عليها المحافظة على أسرار زوجها، وعدم إرهاقه، ومطالبته بما لا يطيق، وأوجبت عليها الأخلاق الإسلامية أن تواسيه بمالها إن أصابته مصيبة، أو مسته عسرة...

واعتبرت الشريعة الإسلامية الرجل قيم الأسرة، وفي مقابل ذلك جعلت الزوجة راعية أمينة في بيت زوجها فكلاهما مسؤول عن البيت والأسرة، إلا أن المسؤولية الكبرى تقع على عاتق الزوج، وذلك تكليف قبل أن يكون تشريفا، ولأن الأسرة تحتاج إلى مسؤول بالدرجة الأولى، وهذا المسؤول هو المطالب بتوفير الحياة المادية والمعنوية، وبذلك كان الزوج يتحمل القسط الأكبر في الحياة الزوجية، وعليه أن يتحمل هذه المسؤولية بجدارة، يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز : «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم».

فقوامة الرجل هي مسؤولية، لتوفر دواعي تحملها عند الرجل أكثر مما هي متوفرة لدى المرأة.

فالله تعالى لم يقل : الذكور قوامون على النساء، وإنما قال : الرجال، والرجل من توفرت فيه صفات الرجولة من نجدة، ونخوة، وخلق كريم، وسعة صدر، وقدرة على تسيير الأمور بصبر وأناة.. فمجرد الذكورة لا يمنح هذه القوامة حسب التعبير القرآني.

فالشريعة الإسلامية أحاطت الحياة الزوجية بكثير من الضمانات حفاظا على استقرار البيت وسلامته، وحفاظا على أخلاق الأولاد وسعيا في وجود جو ملائم لتربيتهم تربية حسنة.

أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال : «كلكم راع ومسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته».

فمسؤولية البيت من حيث التسيير، والصيانة، وتوفير الجو الملائم للحياة المطمئنة... كل ذلك مسؤول عنه الرجل والمرأة، والمسؤولية في ذلك ملقاة على كل واحد منهما.

وفي المجال الاجتماعي والاقتصادي، يثبت الإسلام للمرأة كامل الحقوق والواجبات والخصائص النفسية والاستعدادات الفطرية.

ويقرر أهليتها اقتصاديا واجتماعيا وفكريا... أهليتها للعبادة والتكاليف الشرعية، وجعل لها دورا في بناء المجتمع بجانب الرجل قال تعالى : ﴿**والمومنون والمومنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويوتون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله، إن الله عزيز حكيم**﴾. (التوبة / 72).

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿**ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مومن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا**﴾. (النساء / 123).

والمرأة في الإسلام مستقلة في تصرفاتها المالية، لا حجر عليها من أحد ولو من زوجها، وللمرأة المسلمة أن تملك، وتتاجر، وتعقد العقود، وتهب، وتتصدق، وأن تخاصم أمام القضاء...

فالإسلام أعطى المرأة من الاعتبار والمكانة ما لم تعطه إياها أرقى القوانين العصرية في كثير من الدول والشعوب.

وحفاظا على استمرار روابط الأسرة أعطت الشريعة الإسلامية قيمة كبيرة للوالدين حتى تنتهي هذه الروابط بانتهاء مهمتهما قال تعالى : ﴿**ووصينا الإنسان بوالديه، حملته أمه وهنا على وهن، وفصاله في عامين أن أشكر لي ولولديك إلي المصير، وإن جا هداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما، وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي، ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون**﴾.

فوصاية الأبناء بالآباء، وجعل برورهما من الواجبات الأكيدة يعد من أهم دعائم الأسرة لمسلمة، لأن الأسرة التي لا يسود فيها البرور بالآباء تصبح أسرة مفككة، يجتر فيها الآباء والأمهات مرارة عقوق الأبناء وإهمالهم وتخليهم... مما يجعل الآباء يعيشون حسرة، وألما... ويلفت القرآن الكريم النظر إلى ما تعانيه الأم فيقول : «حملته أمه وهنا على وهن، وفصاله في عامين...» تنبيه إلى أن ضعفها كان يتزايد بازدياد ثقل الحمل إلى حين الوضع، ثم تأتي المشاق الأخرى : مشاق التربية، والرعاية، والرضاع، والصيانة من الآفات... وكل ذلك يقتضي المشقة والصبر مع شفقة وحب وحنان... مما جعل الرسول ﷺ يجيب ذلك السائل عندما سأله : من أبر يا رسول الله ؟ قال : أمك ثم قال من ؟ قال أمك... وفي الرابعة قال أبوك...!!

ولاحظنا في الآية السابقة أن الله تعالى قرن شكره بشكر الوالدين.

فالأسرة في الإسلام لها مكانة سامية فروعا وأصولا، وعملت التعاليم الإسلامية على تنمية الروابط بين أفرادها في إطار من الاحترام والمودة والمحبة وقيام كل واحد بواجبه نحو الآخر.

سلا : عبد القادر العافية



لماذا عيد المولد في الغرب الإسلامي؟

الأسباب التي كانت وراء إنشائه..

بعد أن لم يكن له في عهد الأدارسة ولا في عهد المرابطين والموحدين

للدكتور عبد الهادي التازي
عضو أكاديمية المملكة المغربية

لقد أصبح المسلمون في الأندلس يقلدون جيرانهم المسيحيين في الاحتفال بأعيادهم وفي صنعهم «الماكيطات» من الحلوى !
هنا فكر العلماء في البديل الذي لم يكن غير الاحتفال بعيد المولد النبوي.
وهنا صدر المرسوم الملكي (691 = 1292) بجعل المولد من الأعياد الرسمية...

في تأليف صغير لي بعنوان : «الإلمام بمن وافق حكمه للمغرب استهلال المائة عام»، أشرت إلى أن الذين تنبهوا في ديار المغرب إلى الاحتفال بعيد المولد النبوي هم بنو العزفي أصحاب سبتة أواخر القرن السادس على نحو ما ظهر في نفس التاريخ تقريبا في إربل على نحو ما تحدث به ابن خلكان...

وقد ذكرت تعزيزا لهذا أن أبا العباس العزفي كان شرع في تأليف له يحمل عنوان : «الدر المنظم في مولد النبي المعظم» وهو التأليف الذي أنهاه ولده أبو القاسم على ما هو معروف...

ولم تلبث الدولة المغربية أن تبنت المبادرة العزفية اقتناعا منها بضرورة شد الجماهير إلى التمسك بالبيئة الإسلامية والتعلق بالنبي الكريم، وهكذا ظهر (مرسوم ملكي) شتاء عام 691 = 1292 في أعقاب جواز العاهل المريني إلى الأندلس لرد عدوان المغيرين على الثغور التابعة للمغرب، ووجدنا العاهل يشرع الاحتفال بعيد المولد

1) د. التازي : دعوة الحق، العدد 223 رمضان 1402 = يوليه 1982.

في سائر جهات المغرب، ويعتبره يوما رسميا للدولة تتبادل فيه التهاني بين سائر طبقات البلاد وهو الأمر المحمود الذي استمر عليه التقليد إلى اليوم في بلاد المغرب...[2]

وإذا كانت مجالس الاحتفال بهذه المناسبة قد أصبحت عادية عند ملوك بني مرين بفاس... فإنها عند إخوانهم بني عبد الواد في تلمسان أثارت انتباه يحيى ابن خلدون الذي تحدث عن المشاعل التي كانت تحكي الاسطوانات القائمة، كما يحكي عن المباخر الضخمة، ويحكي عن السماع الذي يسترسل إلى آخر الليل والذي ينتهي بنصب الموائد...

وبالإضافة إلى ما قرأناه عن المغرب الأقصى والمغرب الأوسط نجد أن كتب بعض المؤرخين للأندلس لا ينسون الحديث المفصل عن الاحتفال بالمولد النبوي الذي كان يقترن في بعض المناسبات بقضايا بالغة في المتعة والأطراف على ما نقرأه مثلا بمناسبة الحديث عن اختراع «ساعة الشمعة» التي تحدث عنها لسان الدين ابن الخطيب في كتابه «نفاضة الجراب في علالة الاغتراب».[3]

«...وتقدم السلطان ربيع 764 هـ بثقوب فهمه إلى اتخاذ آلة تخبر بمضي ساعات الليل فأنشئ ليلتئذ بإشارته (مكنان) غريب خشبي أجوف في مثل القامة، صير منه شكل الاستدارة إلى ذي جهات، إثني عشر، في أعلى كل جهة منها محراب، واستقلت برأس الشكل شمعة موقدة قسم جرمها أجزاء بانقسام ساعات الليل، وأخرج من عند كل خط يقسم جدها ويعين الساعة فيها سبب من الكتان



(الرسم من تصميم المهندس المغربي عبد الرحيم العامل مدير مكتب تيكنيطاس ـ الدار البيضاء).

2) ظلت هذه العادة متبعة إلى حين تولي السلطان أبي سعيد الثالث 800 ت 823 = 1398 ـ 1420 الذي أزال هذه العادة على الصعيد الرسمي، وقد أحيى المنصور السعدي الاحتفال بعيد المولد النبوي ـ كما يذكر ابن القاضي : المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، دراسة وتحقيق محمد رزوق، مكتبة المعارف، الرباط 1986 ج 1 ص 170 ـ 367 وما بعدها.

3) د. التازي : ابن الخطيب سفيرا ولاجئا سياسيا، مجلة كلية الآداب تطوان، السنة الثانية العدد 2 1408 = 1987.
لسان الدين ابن الخطيب : نفاضة الجراب في غلالة الاغتراب : الجزء الثالث : تقديم وتحقيق الدكتورة السعدية فاغية، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1409 = 1989 ص 278 ـ 279.

برأس غلق المحراب الظاهر فيمنعه من الهوى والنزول وفوق محدب المحراب خرث (ثقب) محكم يفضي إلى شكل... يعترض مجراه قائم من الحديد مثبت في رأس الغلق الذي يسد المحراب وخلفه كرة من النحاس بندقية الشكل يمنعها ذلك القائم المتعرض للمجرى من الانحدار، وخلف الغلق شكل يهدي رقعة منظومة تعرف بمضي الجزء من الليل، فإذا استولت النار على الشمعة وبلغت إلى حد الساعة أحرقت السبب المتصل بما ذكر، فانحدر الغلق وزال المانع عن سقوط الكرة فهوت واستقرت في بعض الصحون النحاسية... وبرزت الرقعة فأوصلها القيم على ذلك إلى المسمع فأنشدها...

وقد أجرى التجريب بهذه الآلة على ما تقتضيه طبيعة نارها وفتيلتها، والهواء المحصور في تجويفها فصح عملها واطرد صدقها وخف نقلها...[4]

☆ ☆ ☆

ولا بد أن نلاحظ ـ بعد كل هذا ـ أن الدواعي التي كانت وراء إنشاء مثل هذا الاحتفال بعيد المولد لم تكن فقط التعقيب على الشيعة الذين اعتادوا الاحتفال بمولد الإمام علي والحسين، ولكن الأمر يتعلق بمنافسة العادة التي جرى عليها المسيحيون في احتفالهم بعيد المسيح أو بالحرى بجعل بديل لما أخذ بعض المسلمين يقومون به في الأندلس..!

إن الظاهرة التي لفتت أنظار العلماء وأهل الغيرة في الدين هي التي تجلت في أن بعض المسلمين في الأندلس أخذوا يشاركون المسيحيين في احتفالاتهم بعيد السيد المسيح !! ألسنا نؤمن أيضا بالسيد المسيح ؟ بل إن الشهور الشمسية ـ بما يتبعها من أعياد ومناسبات ـ أخذت تطغى على الشهور القمرية، وبذلك لاحظوا أن «اندماج» المجموعة الإسلامية في المجموعة المسيحية آخذ في الطريق !!

لقد كان في جملة ما يقوم به المسيحيون في تلك الإحتفالات أنهم يصنعون رسوما مجسمة (ماكيت) بالعجين والحلوى... رسوما تختلف حجما وتركيبا حسب مركز الأسرة... التي يجتمع أفرادها للاحتفال قبل أن يتوزعوا أطراف تلك الماكيتات !![5]

وقد حبب إلي أن أنشر بهذه المناسبة صفحة من التأليف الرفيع الذي أشرت إليه قبل قليل : «الدر المنظم في مولد النبي المعظم».[6]

لقد ورد في مخطوطة الشيخ الأجل الأكمل أبي القاسم بن الشيخ الإمام أبي العباس أحمد بن الشيخ الفقيه القاضي أبي عبد الله اللخمي ثم العزفي من أهل سبتة حرسها الله...

ورد في هذه المخطوطة ما يلي مما يكشف بجلاء عن الأسباب التي جعلت المغاربة ـ ومعهم كامل الحق ـ يسنون الاحتفال بعيد المولد حتى لا يضيعوا في متاهات ومجتمعات أخرى لا صلة لهم بها...

قال :

«...وان تعجب ـ أيها الناصح لنفسه ـ فعجب من إحصائهم لتواريخها (السنة المسيحية...) والإعتناء بمواقيتها فكثيرا ما يتساءلون عن ميلاد عيسى على نبينا وعليه السلام، وعن ينير سابع ولادته، وعن العنصرة ميلاد يحيى على نبينا وعليه السلام، وما أعانهم التوفيق، ولا العزيز المرشد ولا الرفيق أن يكون سؤالهم عن ميلاد نبيهم محمد ﷺ خيرة الله من خلقه، وذلك من

---

4) د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 2 صفحة 142 ـ 1406 = 1986 مطابع فضالة ـ المحمدية، رقم الإيداع القانوني 1986/25.

5) سعيد الديوه جي : الإحتفال بيوم ولادة النبي ﷺ، مجلة البحث العلمي، العدد 37 سنة 1407 = 1987.

6) المخطوط يحمل في قسم المخطوطات بالخزانة العامة رقم 1469/ك، وبهذه المناسبة تتقدم بالشكر الجزيل للسيد قيم الخزانة على مساعدته الثمينة.

شكر نعم الله به عليها بعض واجبه وحقه، هاديهم من ضلالهم، ومرشدهم من غيهم العزيز عليه عنتهم، الحريص على هداهم، الشديد عليه ضلالتهم وفتنتهم، الرؤوف الرحيم شفيعهم الذي ضوعف لهم به ثواب محسنهم وتجووز عن مذنبهم بل عن جماهير عامتهم ودهمائهم، بل الذين يدعونهم بطلبتهم وعلمائهم لا يعرفونه ولا يتعرفون...[7] بل يقتنعون بأنه في كتبهم ويكتفون !! والحمد لله فقد انتهى اليوم إلى العذراء في خدرها والحرة المصونة في سترها، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة بقيام حجتها وانقطاع عذرها، والله يعيذنا من الفتن ويقينا غوايل شرها...

قال المؤلف رضي الله عنه :

وأضافوا التحفى عنها (عن تواريخ السنة المسيحية...) بالسؤال، والمحافظة عليها والاقبال، من بدع وشنع ابتدعوها وسنن واضحة أضاعوها بموائد نصبوها لأبنائهم ونسائهم وصنعوها، وتهادوا فيها بالتحف التي انتخبوها والمدائن التي صوروا فيها الصور واخترعوها، ونصب ذوو اليسار نصبات[7] في الديار كما نصب أهل الحوانيت فنضدوها... فقوم أباحوا أكلها لعيالهم وقوم منعوها، وجلوها كالعروس لا تغلق دونها الأبواب، وفي منصتها رفعوها، وبعضهم أكل من أطرافها ثم باعوها، ولقد ذكر لنا غير واحد من المسافرين أن النصبة ببعض بلاد الأندلس - جبرها الله وأمنها - بلغ ثمنها سبعين ديناراً أو يزيد على السبعين لما فيها من قناطير السكار وأرباع الفانيد وأنواع الفواكه، ومن غراير[8] التمر وأعدال الزبيب والتين على اختلاف أنواعها وأصنافها وألوانها، وضروب ذوات القشور من الجوز واللوز والجلوز[9] والقسطل والصنوبر والبلوط إلى قصب السكار[10] ورائع الاترج والنارنج والليم، وفي بعض البلاد طاجن من مالح الحيتان ينفقون فيه ثلاثين... درهما إلى نحوها، وقد شاهدت في بعض الأعوام سد الحوانيت ممن لا يبيع ما يحتاجون إليه كسوق القيسارية والعطارين وغيرهما من الأسواق، وفي ذلك لضعفائهم من الدلالين وغيرهم قطع المعايش وتعذر الأرزاق، ويطلقون الميزان من المكاتيب،[11] ويشربون بذلك قلوبهم حب البدع الرواتب، فهذه أفعالنا فهل منا من تايب، لائم لنفسه معاتب، وكان هذا في يناير، ثم صنعوا نحوا منه في العنصرة، وفي الميلاد، فكيف ينشأ عن هذه الفتنة إلا مصر عليها ومايل إليها من الأولاد... يقولون... إليهم إنه من عمل مثل هذا العمل لم يخل عمله ذلك من رغد العيش وسعة الرزق وبلوغ الأمل، وربما جعلوا جمارة[12] تحت أسرتهم تفاؤلا وإمارة، ليكونوا في عامهم ذلك أكسى من الجمارة ! فهل سمعتم يا أولي الألباب بأعجب من هذا العجاب... طاعة ذوي النهي والإحلال من الرجال إلى الولدان وربات الحجال،

---

7) النصبة : يقصد بها شجرة عيد الميلاد التي كانت أحيانا تطرز بأنواع الحلوى كذلك، علاوة على الشموع...

8) الغرائر ج غرارة : كيس كبير لوضع الحبوب والتمور.

9) الجلوز : البندق، عربي حكاه سيبويه، وورد في التهذيب في ترجمة شكر : والجلوز : نبت له حب إلى الطول ما هو، ويؤكل مخه شبه الفستق... لسان العرب.

10) يلاحظ وجود قصب السكر على هذا العهد في الديار الأندلسية... وهي معلومة لا تخلو من فائدة بالنسبة للذين يهتمون بتاريخ قصب السكر في الغرب الإسلامي...

11) يظهر أن الأسواق الكبرى - كما فتحنا عيوننا عليها بفاس - كانت تتوفر على ميازين ضخمة عمومية يقصدها المتبايعون لوزن أغراسهم في مقابلة أداء قسط من المال للكتاب المنتصبين لهذا الغرض... والمعنى أن الأمور تتعطل في هذه الأسواق بهذه المناسبة...

12) الجمارة : نوع من الخضر يعرف بالكرنب، وهو ملفوف ورقة في ورقة، ويضرب به المثل في الستر والتغطي، فيقال أكسى من الجمارة !!

[illegible] والحزاء النوازل [illegible] السبية [illegible] وهو عمدة الفقهاء المريان [illegible]

[illegible] واهل طيبا واصحيح الراعي الهدى [illegible] عن [illegible] انما يستحق الدبر

[illegible] والعوين [illegible] فتح اليه [illegible] وانكروا المناكر على اهل هذا الزمن الغيبة عن مجالس

العلماء والمزاحمة بالركب لاهل الشغور وعمارة الهدى كما في السنن القايمين بالعوايد [illegible] منهم

[illegible] لمباحث الشك الكعبة السنن ولا تغشى [illegible] من ينتسب الى العلم وقد

[illegible] جماعة النحوين والحساب [illegible] فضلا على ان [illegible] بالفضل واوله والله تعالى

[illegible] ان يجمع اتيها التابع لنفسه فعجب من مطالبهم [illegible]

[illegible] والاغنيا [illegible] اكثر اما مكنا ولو عن ميلاد عيسى على نبينا وعليه السلام وعن عيسى

[illegible] ميلاد عيسى على نبينا وعليه السلام فما اعلانهم التوجيه ولا العزيز [illegible]

ولا [illegible] ميلا نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم خيرة الله من خلقه [illegible]

[illegible] الله [illegible] واحبه [illegible] من ضلالهم [illegible] العزيز

عليه [illegible] العربي على هذا هم الشديد علية ضلالهم [illegible] الكره [illegible]

[illegible] بن [illegible] بل العزيز [illegible]

[illegible] ولا [illegible] بانه عندهم [illegible] المحدث

[illegible] البنوة الى العذراء في خدرها [illegible] الحرة المصونة في [illegible] عن بينة ويحيى

[illegible] عن بينة [illegible] وانقطاع عذرها [illegible] والله يعيذنا من الفتن ويقينا [illegible]

قال المولف رضي الله عنه

[illegible] بالنوازل [illegible] ويشتمل [illegible]

اما [illegible] الفواكه و[illegible]

[illegible] واحبها [illegible]

[illegible] الشجر [illegible]

[illegible] العروض [illegible] وبعضهم اكلا

[illegible] ولحد من [illegible] بلاد الاندلس

[illegible] الفواكه [illegible]

و[illegible] من [illegible] اللون [illegible] والقسطاء الصوب [illegible]

السكار ورابح الا[illegible] والنار [illegible] واللحم وفي بعض البلاد [illegible]

دراهم الى غيرها وقد شاهدنا في بعض الاعوام منذ السوالف [illegible] لا يبيع [illegible]

كسو والقيسارية والعطارين وغيرها من الاسواق وفي ذلك [illegible] الذين وغيرهم [illegible]

المعايش وتعذر الارزاق ويطلعون الميزان عن المكاييل ويتركون [illegible] البدع [illegible]

[illegible] الناس [illegible] لنفسه [illegible] وكان [illegible] صنعوا [illegible]

العنصرة وفي الصيام فكيف يشاع عن هذه الفتنة الامر عليها [illegible]

اليهم انه من عمل هذا العمل لم [illegible] العيش وسعة الرزق [illegible]

جعلوا [illegible] ذلك [illegible]

[illegible] من هذا العجب فكافة [illegible] والاحتفال [illegible]

[illegible] على اهل الاندلس [illegible] جوار النصارى [illegible] الله من [illegible]

لتجارتهم ومكاسبهم عند الكنيسة في [illegible] فقال النبي

صلى الله عليه وسلم انا بريء من كل مسلم مع مشرك لا تراءى ناراهما وما [illegible] الا هذه

العدو [illegible] لهم والغفلة وما عبر [illegible] البر [illegible]

قال المؤلف رضي الله عنه

فان قيل [illegible] وقعت هذه [illegible]

[illegible] الفتنة [illegible]

[illegible] النصارى [illegible] العرب [illegible]

اهل المغرب [illegible] عندهم [illegible]

[illegible] والصالحين من [illegible]

[illegible] والعداة [illegible]

[illegible] الاخبار فالجواب والله الموفق [illegible]

[illegible] الزاجم [illegible] المفروح [illegible]

[illegible]

[illegible]

جوار النـ[illegible]

التجارة

فان قيل [illegible] فالجواب

لا [illegible] الوقت

[illegible]

وأرى أنه ما جر على أهل الأندلس هذا إلا جوار النصارى، دمرهم اللـه من جيران ! ومخالطتهم لتجارتهم ومكاشفتهم عند الكينونة في أسارهم، ولذلك حذرنا من تراءي النيران، قال النبي ﷺ : أنا بريء من كل مسلم مع مشرك تراءى ناراهما وما سرى ذلك إلى هذه العدوة، إلا بالإتباع لهم والقدوة، وما عبر من ذلك البر إلى هذا البر بدعة أشنع منها ولا أمر...».

تلك هي الصفحة التي اخترت تقديمها بمناسبة احتفال المسلمين بهذا العيد... وهي كما نرى احتجاج صارخ ضد ما كان يجري في المجتمع الإسلامي بالأندلس... وهو بمثابة براعة الإستهلال ـ كما يقول البلغاء ـ للموضوع الذي يتصدى له التأليف وهو الاحتفال بعيد المولد النبوي...

ولا بد أن وضع الرسوم المجسدة «الماكيتات» على ذلك العهد أثارت انتباهنا ونحن نستعرض نصوص المخطوطة...

فعلا كانت هواية وضع التصاميم للمدن والبيوت أخذت طريقها للإنتشار منذ ذلك التاريخ في المشرق، وخاصة في الغرب الإسلامي : في الأندلس والديار المغربية : سمعنا عنها والناس يضعون التصاميم لبيوتهم وقرأنا عنها والملوك يبعثون من مصر ببعض الرسوم للمسجد المملوكي ورأينا بعضهم يحتفظ في قصره بماكيت لموقع استهواه...

وهكذا قرأنا عن السلطان أبي الحسن المريني أنه رسم للبنائين، على كاغد، صورة الدار التي قرر بناءها للأميرة التونسية عزونة ابنة السلطان أبي يحيى أبي بكر لما كانت في طريقها إلى المغرب مع خطا بها له : أبي زيان عريف بن يحيى وأبي عبد اللـه السطى وأبي الفضل بن أبي مدين... لقد قال : علي بأرباب الصناعات من البنائين والنجارين والجباسين والزليجيين والرخامين والقنويين والدهانين والحدادين والصفارين... وقال لهم على ما يرويه ابن مرزوق في كتابه «المسند» :

أريد دارا تشتمل على أربع قباب مختلفة ودويرتين تتصلان بها منقوشة الجدران بالصناعات المختلفة بالجبس والزليج والنقش في الأرز المحكم النجارة والصناعات المشتركة ونقش ساحة الدار وفرشها زليجا ورخاما بما فيها من طيافير الرخام والسواري والنجارة في السقف مختلفة باختلاف القبب بالصناعات المعروفة عندهم، المشتركة المدهونة والأبواب بالصناعات المؤلفة والخزائن والخوخ جميعها، والحلية في جميع ذلك من النحاس المموه بالذهب والحديد المقصدر...

ورسم لهم يقول ابن مرزوق قدر ساحتها في الكاغد ووقع الوفاق لجميعهم على ذلك قطيعا وأوضح لهم عملها...

لقد أردت بسوق هذا النص التأكيد على أن قادتنا منذ العصر الوسيط كانوا يخططون الرسوم ويضعون التصاميم...

وهناك نص آخر يتحدث عن تصميم بعث به ملك مصر إلى العاهل المغربي، ويتعلق الأمر بنص المقريزي الذي ذكره في كتابه «السلوك» عن الهدايا المصرية التي رفعت إلى الديار المغربية... فيذكر من بينها فساطيط كانت مثار إعجاب كبير من سلطان المغرب... وكان مما احتوت عليه هذه الخيام الكبرى تمثال مسجد بمحرابه وعمده ومئذنته...[13]

ولابد أن نذكر مع هذا بما ورد في رحلة ابن بطوطة عن صنع (ماكيط) لجبل طارق كان يحتفظ به السلطان أبو عنان في قصره بالعاصمة فاس ...وبلغ من اهتمامه بأمر الجبل ـ يقول الرحالة المغربي ـ أن أمر السلطان أبو عنان

13) د. التازي : ألفاظ الحضارة في الوثائق العربية ذات الطابع الدولي البحث الذي قدم لمجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته الخامسة والخمسين (يبراير، مارس 1989).

أيده الله ببناء شكل يشبه شكل الجبل المذكور فمثل فيه إشكال أسواره وابراجه وحصنه وأبوابه ودار صنعته ومساجده ومخازن عدده وأهرية زرعه وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء فصنع ذلك بالمشور السعيد فكان شكلا عجيبا أتقنه الصناع إتقانا يعرف قدره من شاهد الجبل وشاهد هذا المثال...[14]

☆ ☆ ☆

وبعد فأعتقد أن ظروف العالم الإسلامي كله اليوم أشبه ما يكون بظروف المجتمع الإسلامي بالأندلس بالأمس، فقد تداخلت التواريخ كنتيجة حتمية للجوار في الأرض والماء والسماء ! وقد امتزجت الخلائق بعضها مع بعض، ولم يعد الأمر فقط يعني وجود هذا الفريق بعاداته وتقاليده هناك، ووجود ذلك الفريق الآخر بعاداته وتقاليده هنا... ولكن الأمر يعني أننا نعيش صباح مساء إلى جنب بعضنا فلا غرو أن تتسرب بعض العادات في الأكل والشرب واللباس والتعامل... ومن هنا كان حريا بنا أن تقوم من جانبنا بإبراز معالم الوجود في مجتمعنا الإسلامي... ومن هنا يكون لزاما علينا أن نشعر العالم الآخر أيضا بعيد المولد النبوي عندنا وأن نقوم بتوعية أبنائنا وتحسيسهم بهذا الحدث العظيم الذي غير خريطة العالم وأكسب الإنسانية تراثا لا يقدر بثمن ومكنها من عدد من العطاءات ذات القيمة الكبرى في تاريخ البشرية..

الرباط : عبد الهادي التازي

14) Voyages d'Ibn Battûta : Texte arabe, accompagné d'une Traduction par C. Defremery et le Dr B.R. Sanguinetti. Vol. 4 PARIS 1969 p. 359.

المولد النبوي..
واحتفال شعراء المغرب بذكراه

للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله

الإمام البوصيري مغربي الأصل مصري النشأة له قصيدتان رائعتان في المديح النبوي هما البردة والهمزية وهما قصيدتان كانتا محور حفلات إحياء عيد المولد النبوي الذي عرف في المغرب منذ عهد بني مرين وخاصة أيام العزفيين بسبتة وقد اتخذ مظاهر احتفالية مختلفة يندرج فيها موسم الشموع بسلا وغيره من المواسم التي تقام غالبا في شهر ربيع الأول تخليدا لذكرى الرسول عليه السلام.

البردة

كانت هذه القصيدة محط اهتمام العلماء والأدباء والشعراء المغاربة الذين كتبوا عليها تعاليق وشروحا مستفيضة منها :

1) شرح البردة لابن سليمان سعيد السملالي (882 هـ/1477م).

خم 5661/1091.

2) شرح البردة لابن عطية عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن المديوني الشهير بالجادري موقت منار القرويين (839 هـ/1435م).

3) شرحها محمد بن علي بن محمد العدلوني الدمناتي «الإعلام للمراكشي» ج 7 ص 66 ـ ط. الرباط.

4) شرح محمد بن المعطي بن أحمد السرغيني سماه (التوشيح).

5) شرح أبي حامد محمد المكي البطاوري اسمه «نسيم الوردة في تسنيم البردة».

خع 1819 د (م = 43 ـ 99).

6) المنهل الفسيح على بردة المديح لأحمد بن جعفر الكتاني (وهو صاحب الوتريات أيضا في الأمداح النبوية والنظم العجيب في الفرح بولادة الحبيب).

7) شرح لأحمد بن عبد الله القصار(خم 914).

8) شرح لأحمد بن عجيبة مكتبة تطوان (281).

9) شرح البردة لأحمد سكيرج سماه «الوردة على تخميس البردة» طبع على الحجر بفاس مرتين.

10) شرح البردة (في مجلد) لاسماعيل بن الأمير يوسف بن الأحمر نزيل فاس 807 هـ/1404م.

11) منظومة في السير على نهج البردة اشتملت على أربعة آلاف بيت لحمدون بن الحاج شرحها في خمسة أسفار.

12) شرح البردة لسعيد بن محمد العقباني التجيبي التلمساني (811 هـ / 1408 م).

13) تخميس عليها لعبد الرحيم بن التازي (خع 830 د).

14) خواص بعض أبيات بردة البوصيري لعبد السلام بن ادريس المراكشي 660 هـ / 1262 م).

خع = 1068 د / خم 4995 / 5354 ملحق بروكلمان ج 1 ص 469.

15) شرح البردة بالبربرية لعبد الله بن يحيى الحامدي (خع 1098 د).

16) شرحها لعبد الواحد بن عاشر في «شفاء القلب الجريح بشرح بردة المديح».

17) لبس البردة بمجادات البردة لعلي بن محمد السملالي السوسي (خم 3811).

18) شرح بردة البوصيري للقاسم بن ابراهيم بن حسين بن علي بن عبد الله الماجري (خم 3191).

19) شرح البردة لأن مرزوق محمد بن أحمد بن محمد الحفيد اسمه «اظهار صدق المودة في شرح البردة».

20) جزءان في خع 1713 د مع تلخيصهما خع 1635 د / 1665 د المكتبة الوطنية بتونس 4580 م / مكتبة صوفيا الوطنية البلغارية (Or 2570).

خمس نسخ في خم من 1427 إلى 5425 اختصرها شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني (923 هـ / 1517 م) في كتاب اسمه «مشارق الأنوار المضيئة في شرح الكواكب الدرية في مدح خير البرية».

خع 2134 (م = 1 ـ 172).

كشف الظنون ج 2 ص 1335 / هدية العارفين للبغدادي ج 1 ص 139 / ذيل ملحق بروكلمان 1 رقم 468 / 15.

21) تعليق على البردة لمحمد بن عبد الواحد النظيفي سماه «تعليق مليح على بردة المديح» (طبع على الحروف بفاس).

22) تخميس البردة لمحمد بن علي الشاطبي الأندلسي البرجي (870 هـ / 1465 م) مع شرح خع 831 د.

23) حاشية على شرح الشيخ خالد عبد الله الأزهري لمحمد بن قاسم القادري (1331 هـ / 1913 م) سماها «الكوكب اللامع الدري على شرح البردة للأزهري» (طبعت بفاس).

24) الموارد الشهية في شرح البردة البوصيرية في سفرين لمحمد بن المبارك الهشتوكي (1313 هـ / 1895 م).

25) شرح قصيدة البردة للبوصيري لمحمد الالبيري ثماني نسخ في خم من 379 إلى 9845.

الهمزية

1) قصيدة قافيتها الهمزة للإمام البوصيري هي أيضا محور الأمداح والسماع في أعياد المولد النبوي بالمغرب وقد شرحها أو خمسها عدة شعراء مغاربة منهم أحمد بن الأقطع البرنوسي.

في (النخبة السنية في شرح القصيدة الهمزية) خع 6622 (مبتور الأخير).

2) الشيخ أحمد بن محمد التجاني.

له شرح أملاه على تلميذه سيدي حرازم برادة الفاسي (مطبوع).

3) الشيخ أحمد بن جعفر الكتاني.

في (الهمزية البهية في مدح خير البرية).

2) الفتوحات الإلهية على الهمزية البوصيرية) وقد احترز بوصف (البوصيرية) لأن له شرحا على همزية الشيخ بنيس سماه (عقد الدرر النفيس على شرح الهمزية للشيخ بنيس).

4) أحمد بن محمد بن أحمد بنيس.

له (أنوار الكوكب الدري في شرح همزية البوصيري.

نسخة في (خح = 991).

5) محمد بن أحمد الحضيكي نزيل آية آسى.

له شرح على الهمزية توجد نسخة منه في الخزانة العامة بالرباط (خع 1658 د).

الرموز : خم أو خح : الخزانة الملكية بالرباط.

خع : الخزانة العامة.

الرباط : عبد العزيز بعبد الله



درس من النبوة

من الأدب الرفيع

للمرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قالوا : إنه لما نصر الله (تعالى) رسوله ورد عنه الأحزاب وفتح عليه قريظة والنضير[1] ظن أزواجه ﷺ أنه ختص بنفائس اليهود وذخائرهم وكن تسع نسوة : عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وصفية وميمونة، وزينب وجويرة، فقعدن حوله وقلن : يا رسول الله، بنات كسرى وقيصر في الحلي والحلل، والإماء والخول، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق ! وآلمن قلبه بمطالبتهن له بتوسعة الحال، وأن يعاملهن بما تعامل به الملوك وأبناء الدنيا أزواجهم، فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهن من تخييرهن في فراقه، وذلك قوله تعالى : ﴿**يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا،[2] وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما**﴾.

قالوا : وبدأ ﷺ بعائشة ـ وهي أحبهن إليه ـ فقال لها : «إني ذاكر لك أمرا ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك» قالت : ما هو ؟ فتلا عليها الآية. قالت : أفيك أستأمر أبوي ؟ بل اختار الله تعالى ورسوله !

ثم تتابعن كلهن على ذلك، فسماهن الله «أمهات المؤمنين»؛ تعظيما لحقهن وتأكيدا لحرمهن وتفضيلا لهن على سائر النساء.

☆☆☆

هذه هي القصة كما تقرأ في التاريخ؛ كما ظهرت في الزمان والمكان، فنقرأها نحن كما هي في معاني الحكمة، وكما ظهرت في الإنسانية العالية، فنجد لها غورا بعيدا، ونعرف فيها دلالة سامية، ونتبين تحقيقا فلسفيا دقيقا للأوهام والحقائق.

وهي قبل كل هذا ومع كل هذا تنطوي على حكمة رائعة لم يتنبه لها أحد، ومن أجلها ذكرت في القرآن

1) هما حيان من أحياء اليهود، وكان ذلك في أواخر سنة خمس للهجرة.
2) السراح : الطلاق، ومتعة الطلاق : ما تعطاه المطلقة، وهو يختلف حسب السعة والإقتار.

الكريم : لتكون نصا تاريخيا قاطعا يدافع به التاريخ عن هذا النبي العظيم في أمر من أمر العقل والغريزة، فإن جهلة المبشرين في زمننا هذا. وكثيرا من أهل الزيغ والإلحاد، وطائفة من قصار النظر في التحقيق - يزعمون أن محمدا ﷺ إنما استكثر من النساء لأهواء نفسية محضة وشهوات كالشهوات؛ ويتطرقون من هذا الزعم إلى الشبهة، ومن الشبهة إلى سوء الظن، ومن سوء الظن إلى قبح الرأي؛ وكلهم غبي جاهل، فلو كان الامر ذلك أو على قريب منه أو نحو من قريبه، لما كانت هذه القصة التي أساسها نفي الزينة وتجريد نسائه جميعا منها، وتصحيح النية بينه وبينهن على حياة لا تحيا فيها معاني المرأة، وتحت جو لا يكون أبدا جو الزهو... وأمره من قبل ربه أن يخيرهن جميعا بين سراحهن فيكن كالنساء ويجدن ما شئن من دنيا المرأة؛ وبين إمساكهن فلا يكن معه إلا في طبيعة أخرى تبدأ من حيث تنتهي الدنيا وزينتها.

☆☆☆

فالقصة نفسها رد على زعم الشهوات، إذ ليست هذه لغة الشهوة، ولا سياسة معانيها ولا أسلوب غضبها أو رضاها، وما هنا تمليق، ولا إطراء، ولا نعومة ولا حرص على لذة، ولا تعبير بلغة الحاسة، والقصة بعد مكشوفة صريحة ليس فيها معنى ولا شبه معنى من حرارة القلب، ولا أثر ولا بقية أثر من حيل النفس، ولا حرف أو صوت حرف من لغة الدم؛ وهي على منطق آخر غير المنطق الذي تستمال به المرأة، فلم تقتصر على نفي الدنيا وزينة الدنيا عنهن بل نفت الأمل في ذلك أيضا إلى آخر الدهر، وأماتت معناه في نفوسهن بقصر الإرادة منهن على هذه الثلاثة : الله في أمره ونهيه؛ والرسول في شدائده ومكابدته، والدار الآخرة في تكاليفها ومكارهها فليس هنا ظرف، ولا رقة ولا عاطفة، ولا سياسة لطبيعة المرأة، ولا اعتبار لمزاجها، ولا زلفى لأنوثتها؛ ثم هو تخيير صريح بين ضدين لا تتلون بينهما حالة تكون منهما معا، ثم هو عام لجميع زوجاته لا يستثنى منهن واحدة ولا أكثر.

والحريص على المرأة والاستمتاع بها لا يأتي بشيء من هذا، بل يخاطب في المرأة خيالها أول ما يخاطب، ويشبعه مبالغة وتأكيدا، ويوسعه رجاء وأملا، ويقرب له الزمن البعيد، حتى لو كان في أول الليل وكان الخلاف على الوقت لحقق له أن الظهر بعد ساعة...

☆☆☆

وبرهان آخر : وهو أن النبي ﷺ لم يتزوج نساءه لمتاع مما يمتع الخيال به فلو كان وضع الأمر على ذلك لما استقام ذلك إلا بالزينة وبالفن الناعم في الثوب والحلية والتشكل كما نرى في الطبيعة الفنية، فإن الممثلة لا تمثل الرواية إلا في المسرح المهيأ بمناظره وجوه... وقد كان نساؤه ﷺ أعرف به، وها هو ذا ينفى الزينة عنهن ويخيرهن الطلاق إذا أصررن عليها؛ فهل ترى في هذا صورة فكر من أفكار الشهوة ؟ وهل ترى إلا الكمال المحض ؟ وهل كانت متابعة الزوجات التسع إلا تسعة برهانات على هذا الكمال ؟ وكان النبي ﷺ يلقي بهذه القصة درسا مستفيضا في فلسفة الخيال وسوء أثره، على المرأة في أنوثتها، وعلى الرجل في رجولته؛ وأن ذلك تعقيد في الشهوات يقابله تعقيد في الطبع، وكذب في الحقيقة ينشأ عنه كذب في الخلق، وأنه صرف للمرأة إلى حياة الأحلام والأماني والطيش والبطر والفراغ، وتعويدها عادات تفسد عاطفتها، وتضيف إليها التصنع. فتضعف قوتها النفسية القائمة على إبداع الجمال من حقيقتها لا من مظهرها، وتحقيق الفائدة من عملها لا من شكلها.

وكل محاسن المرأة هي خيال متخيل، ولا حقيقة لشيء منها في الطبيعة، وإنما حقيقتها في العين الناظرة إليها؛ فلا تكون امرأة فاتنة إلا للمفتون بها ليس غير؛ ولو ردت الطبيعة على من يشبب بامرأة جميلة فيقول لها :

هذه محاسنك وهذه فتنتك وهذا سحرك وهذا وهذا : لقالت له الطبيعة : بل هذه كلها شهواتك أنت...[3]

وبهذا يختلف الجمال عند فقد النظر، فلا يفتن الأعمى جمال الصورة، ولا سحر الشكل، ولا فراهة المنظر؛ وإنما يفتنه صوت المرأة ومجستها ورائحتها.

فلا حقيقة في المرأة إلا المرأة نفسها؛ ولو أخذت كل أنثى على حقيقتها هذه لما فسد رجل ولا شقيت امرأة، ولانتظمت حياة كل زوجين بأسبابها التي فيها، وذلك هو المثل المضروب في القصة.

☆ ☆ ☆

يريد النبي ﷺ ليعلم أمته أن حيف الغريزة على العقل إفساد لهذا العقل، وأنه متى أخذت المرأة لحظ الغريزة واختيارها، كانت حياتها استجابة لجنون الرجل، وملأتها معاني التزيد والتصنع؛ فيوشك أن ينقلها هذا عن طبيعتها السامية التي أكثرها في الحرمان والإيثار والصبر والاحتمال، ويردها إلى أضداد هذه الصفات، فيقوم أمرها بعد على الأثرة والمصلحة والتفادي الضجر والتبرم والإلحاح والإزعاج، ويضعف معنى السلب الراسخ في نفسها من أصل الفطرة، فيتبذل حياؤها، وفي الحياء ردها عن أشياء؛ ويقل إخلاصها، وفي الإخلاص رد لها عن أشياء أخرى؛ ويكثر طمعها. وفي قناعتها محاجزة بينها وبين الشر.

وبهذا ونحوه يفسد ما بين الرجل والمرأة المتصنعة؛ فإذا كثر المتصنعات لا يكون من النساء مشاكل فقط، بل تكون من حلول المشاكل معهن مشاكل أخرى...

☆ ☆ ☆

ولباب هذه القصة أن النبي ﷺ يجعل نفسه في الزواج المثل الشعبي الأكمل كما هو دأبه في كل صفاته الشريفة، فهو يريد أن تكون زوجاته جميعا كنساء فقراء المسلمين، ليكون منهن المثل الأعلى للمرأة المؤمنة العاملة الشريفة التي تبرع البراعة كلها في الصبر والمجاهدة والإخلاص والعفة والصراحة والقناعة فلا تكون المرأة زينة تطلب زينة لتتم بها في الخيال، ولكن إنسانية تطلب كمالها الإنساني لتتم به في الواقع.

وهذه الزينة التي تتصنع بها المرأة تكاد تكون صورة المكر والخداع والتعقد وكلما أسرفت في هذه أسرفت في تلك، بل الزينة لوجه المرأة وجسمها سلاح من أسلحة المعاني؛ كالأظافر والمخالب والأنياب، غير أن هذه لوحشية الطبيعة الحية المفترسة، وتلك لوحشية الغريزة الحية التي تريد أن تفترس، ولا تنكر المرأة نفسها أن الزينة على جسمها ثرثرة طويلة تقول وتقول وتقول.

☆ ☆ ☆

وإنما يكون أساس الكمال الإنساني في الإنسان العامل المجاهد : لا يحصر نفسه في شيء يسمى متاعا أو زينة. ولا يقدر نفسه مما يجمع لها أو بما يجمع حولها، ولا يعتد ما يكون من ذلك إلا كالتعبير من عمل الشهوات عن الشهوات ونبينا ﷺ هو الغاية في هذا : دخل عليه مرة عمر ابن الخطاب، فإذا هو على حصير وعليه إزاره وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه. قال عمر : وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، وإذا إهاب معلق[4] فابتدرت عيناي، فقال : ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ قال عمر : يا نبي الله، ومالي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار، وأنت نبي الله وصفوته وهذه خزائنك ؟[5]

وجاء مرة من سفر فدخل على ابنته فاطمة رضي الله عنها فرأى على بابها سترا وفي يديها قلبين من فضة،[6] فرجع؛ فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي، فأخبرته برجوع

3) بسطنا هذا المعنى في كثير مما كتبناه؛ وخاصة في كتاب (السحاب الأحمر).

4) كيس من جلد كان يتخذه العرب وعاء.

5) الروايات من مثل هذا كثيرة عنه ﷺ وقد بسطنا فلسفة هذه المعاني في مقال (سمو الفقر).

6) القلب بالضم : سوار من الفضة غير ملوى هو الذي يقال له اليوم : الفويشة. وهو خفيف.

أبيهـا، فسـألـه في ذلـك، فقـال ﷺ : من أجـل الستر والسوارين...

فلما أخبرنا أبو رافع هتكت الستر[7] ونزعت السوارين فأرسلت بهما بلالا إلى النبي ﷺ وقالت : قد تصدقت به، فضعه حيث ترى. فقال لبلال اذهب فبعه وادفعه إلى أهل الصفة[8] فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدق بها عليهم.

يا بنت النبي العظيم ! وأنت أيضا لا يرضي لك أبوك حلية بدرهمين ونصف وإن في المسلمين فقراء لا يملكون مثلها ؟

أي رجل شعبي على الأرض كمحمد ﷺ، فيه للأمة كلها غريزة الأب، وفيه على كل أحواله اليقين الذي لا يتحول، وفيه الطبيعة التامة التي يكون بها الحقيقي هو الحقيقي ؟

يا بنت النبي العظيم ! إن زينة بدرهمين ونصف، لا تكون زينـة في رأي الحق إذا أمكن أن تكـون صـدقـة بدرهمين ونصف، إن فيها حينئذ معنى غير معناها؛ فيها حق النفس غالبا على حق الجماعة؛ وفيها الإيمان بالمنفعة حاكما على الإيمان بالخير؛ وفيها ما ليس بضروري قد جار على ما هو الضروري، وفيها خطأ من الكمال إن صح في حساب الحلال والحرام لم يصح في حساب الثواب والرحمة.

تعالوا أيها الاشتراكيون فاعرفوا نبيكم الأعظم؛ إن مذهبكم ما لم تحيه فضائل الإسلام وشرائعه - إن مذهبكم لكالشجرة الذابلة تعلقون عليها الأثمار تشدونها بالخيط... كل يوم تحلون، وكل يوم تربطون، ولا ثمرة في الطبيعة !

☆ ☆ ☆

ليست قصة التخيير هذه مسئلة من مسائل الغنى والفقر في معاني المادة، ولكنها مسئلة من مسائل الكمال والنقص في معاني الروح، فهي صريحة في أن النبي ﷺ أستاذ الإنسانية كلها واجبة أن يكون فضيلة حية في كل حياة، وأن يكون عزاء في كل فقر، وأن يكون تهذيبا في كل غنى، ومن ثم فهو في شخصه وسيرته القانون الأدبي للجميع.

وكأنه ﷺ يريد ليعلم الأمة بهذه القصة أن الجماعات لا تصلح بالقوانين والشرائع والأمر والنهي، ولكن بعمل عظمائها في الأمر والنهي؛ وأن الحاكم على الناس لا ينبغي أن يحكم إلا إذا كان في نفسه وطبيعته يحس فتنة الدنيا إحساس المتسلط لا الخاضع؛ ليكون أول استقلاله استقلال داخله.

فليس ذلك فقرا ولا زهدا كما ترى في ظاهر القصة، ولكنها جرأة النفس العظمى في تقرير حقائقها العملية.

☆ ☆ ☆

وتنتهي القصة في عبارة القرآن الكريم بتسمية زوجاته ﷺ : «أمهات المؤمنين»، بعد أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، وعلماء التفسير يقولون : إن الله تعالى كافأهن بهذه التسمية، وليس ذلك بشيء ولا فيه كبير معنى، وإنما تشعر هذه التسمية بمعنى دقيق هو آية من آيات الإعجاز، فإن الزوجة الكاملة لا تكمل في الحياة ولا تكمل الحياة بها، إلا إذا كان وصفها مع رجلها كوصف الأم ترى ابنها بالقلب ومعانيه، لا بالغريزة وحظوظها، فكل حياة حينئذ ممكنة السعادة لهذه الزوجة، وكل شقاء محتمل بصبر، وكل جهاد فيه لذته الطبيعية، إذ يقوم البيت على الحب الذي هو الحب الخالص لا المنفعة، وتكون زينة الحياة وجود الحي نفسه لا وجود المادة وتبنى النفس على الوفاء الطبيعي كوفاء الأم؛ وذلك خلق لا يعسر عليه في سبيل حقيقته أن يتغلب على الدنيا وزينتها.

وآخر ما نستخرج من القصة في درس النبوة هذه الحكمة :

بحسب المؤمن إذا دخل داره أن يجد حقيقة نفسه الطيبة، وإن لم يجد حقيقة كسرى ولا قيصر !

7) أي مزقته، وكذلك رأى مرة سترا على باب عائشة رضي الله عنها فهتكه وقال : كلما رأيته ذكرت الدنيا. أرسلي به إلى آل فلان.

8) الصفة : الغرفة، وأهل الصفة : هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه، فكانوا يأوون إلى موضع مظلل في مسجد المدينة يسكنونه.

مؤتمر الرباط

كان المنطلق لسلوك الخط التضامني الراهن ضمن نطاق المؤتمر الإسلامي

للأستاذ محمد بنعبد الله

انعقد منذ ثلاث سنوات بكوالالمبور، عاصمة ماليزيا، المؤتمر الدولي للتضامن الإسلامي الذي نظمه قسم الشؤون الإسلامية، برآسة مجلس الوزراء بالمركز الإسلامي - كوالالمبور في الفترة 5 ـ 7 صفر عام 1408 هـ الموافق 28 ـ 30 سبتمبر 1987 م برآسة صاحب الدولة داتوء يسرى الدكتور محضير محمد رئيس وزراء ماليزيا، وحضره صاحب المعالي داتوء الدكتور محمد يوسف نور وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء والشؤون الإسلامية، والسيد داتوء الدكتور عبد الحميد عثمان. المدير العام للشؤون الإسلامية برآسة مجلس الوزراء.

وقد تغيا المؤتمر من هذا اللقاء بث الوعي والإدراك بين الأمة الإسلامية والعمل عن مدى أهمية التضامن فيما بين المسلمين... وللتعرف على عناصر وأسباب الشقاق بين الأمة مثل التطرف، والبحث عن الوسائل الكفيلة للتغلب عليها خصوصا بين الأمة الإسلامية بماليزيا، ثم الحصول على معلومات وخبرات من الدول الإسلامية، وذلك خلال المساعي لمكافحة التطرف...

حضر هذا المؤتمر الدولي للتضامن الإسلامي شخصيات إسلامية كبرى من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وقد انتدبت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية لتمثيلها في هذا المؤتمر الأستاذ محمد بنعبد الله الذي أسهم بالكلمة التالية :

في كوالا لمبور، عاصمة ماليزيا، هذا القطر الراقي العظيم الذي يفيض بالخير، ويبسم بالنعيم، ويطفح بالبشر، ويشرق بالجمال ويروق بالبهجة والرواء، قرر مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية، اتخاذ يوم 25 شتنبر من كل عام موعدا للاحتفال السنوي ـ على صعيد العالم الإسلامي ـ بيوم التضامن الإسلامي...

والتضامن الإسلامي إحساس عميق، قائم بالفطرة في نفسيات الأفراد والجماعات بالأوطان الإسلامية، وهو شعور يتمازج فيه التشارك في المشاعر الدينية مع مؤثرات الترابط التاريخي الطويل، والتفاعل الثقافي والحضاري ماضيا وحاضرا...

وقد روعي في توقيت الاحتفال السنوي بيوم الميثاق الإسلامي، أن يكون موعده مطابقا لتاريخ انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي الأول بالرباط.. وهو توقيت ملائم من الوجهة المنطقية، باعتبار أن مؤتمر الرباط كان المنطلق لسلوك الخط التضامني الراهن ضمن نطاق منظمة المؤتمر الإسلامي، وبالتالي فإن العزيمة الصادقة التي كانت حافزا على الانطلاق، متخطية عقباته ومصاعبه، يجب أن تستمر ذكراها حاضرة في الأذهان، موحية بمزيد من العزم على تجاوز أقصى ما يمكن أن يوجد من سلبيات، أو يعترض من حواجز، وتوفير كافة الأسس الضرورية لمتانة البنيان المراد إقامته..

ولعل أبرز ما يعتمد عليه التضامن الإسلامي، اليوم، وحدة العقيدة، ووحدة لغة القرآن الاجتماعية والسياسية، وتدفق العاطفة الإنسانية، ووضوح مفهوم الإنسان المسلم، مع استيعاب الإسلام لمختلف القوميات بالإضافة إلى تكامل الاقتصاد الذي تمليه الوحدة الجغرافية، ووحدة الكفاح، ومصارعة التحدي، ووحدة التاريخ الطويل المشترك لمواجهة الاستعمارالاقتصادي والثقافي والتنصيري... والتضامن الإسلامي يوافق المبادئ الإسلامية على أساس فلسفي وأصولي وفقهي...

وقد حمل الإسلام في نظامه السياسي والاجتماعي بذور هذا التضامن المنشود سواء في توجيهاته التربوية أو في تنظيماته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

☆ ☆ ☆

وان هذا اللقاء الجديد، وانعقاد هذا المؤتمر الإسلامي اليوم، الذي جاء في أوانه ومكانه وفي جنوب شرقي آسيا، وفي بلد إسلامي رائد، حاز استقلاله وملك زمام أمره ليدلل على تيقظ الروح الهاجد في الجسم الإسلامي، ويشير إلى دلالة قاطعة، هي رغبة المسؤولين الملحة في تخطيط مشاريع التعاون المثمر في نطاق الشؤون الدينية والاجتماعية والاقتصادية والتنموية، لخير الإسلام والمسلمين، وتقوية أواصر المودة والإخاء، وتوكيد روح النضال، وإقرار الوجود، فقد تفككت الأواصر، وتحللت العقد، وانماعت النفوس، ولم يعد، صالحا، أن نبقى راضين بالدون، ونعيش هوامش على صفحة الحياة...

لقد أراد القادة المسلمون لهذا القطر الماليزي العظيم، منذ أن ألقى الله بين أيديهم مقاليد البلاد، أن يطوروا أمتهم في إطار إسلامي محض ويبوؤها مقاما عاليا بين الشعوب، في نطاق العقيدة المحمدية، ويجددوا ما انهار من البناء الأخلاقي، وما انطمس من معالم الإسلام والإيمان بفعل عمليات التنصير والاستعمار، ويدفعوا بها في مضمار التقدم والحضارة، إلى صراط قويم وسليم، بعيد عن بهرج الحضارة الغربية الزائف التي أشرفت على الانهيار، وآذنت بالأفول والزوال للوصول إلى درجة التوفيق والهداية، وقيادة النوع الإنساني إلى معارج الرشد والكمال...

تلك هي «ماليزيا» المسلمة التي عملت وتعمل على توثيق الصلات مع الأقطار الإسلامية، وتنشد السلام مع دول العالم، وهي لم تتورع عن تأييدها ومعاونتها ومؤازرتها للجهود المبذولة لصالح الإسلام والمسلمين، ولا سيما في سبيل التجمعات الإسلامية والمؤتمرات في مختلف مستوياتها سواء في داخل بلادها، أو حينما ترسل الوفود، للاشتراك في جميع المؤتمرات الإسلامية...

☆ ☆ ☆

إن الجهود التي يبذلها دعاة التخريب في العالم الإسلامي، والمبشرون ذوو القلوب الغلف، والاكباد الصلد الذين لا يستطيعون أن يبذروا غير الخلاف، ولا أن يحصدوا غير الضغينة، بما يبثونه في أوساط المجتمعات الإسلامية من ضلال العقيدة، وشيوع الجهالة، وأفكار تبلبل كل نفس، وتخدر كل حس، وتزعزع كل نظام، وتغير كل

معنى، لهي جهود ضائعة مائعة، لأنها توقظ الغافل، وتنبه الوسنان، وتهدي الحائر، ثم يقضى عليها في المهد.

وقد أدرك «زويمر» أحد أساطين التنصير هذه الحقيقة، فقال : (إن الغاية من التنصير ليس التمسيح بالضرورة، ولكن يكفينا أن نذبذب المسلمين ونشككهم في عقيدتهم ونزعتهم وثقتهم بأنفسهم وأصالتهم...

وبالرغم عن أن المبشرين ينفخون في رماد، ويصيحون في واد، ويضربون في حديد بارد، إلا أن شبح قيام دولة إسلامية يقلق راحتهم، ويزعج أفكارهم، ويطير النوم عن معاقد أجفانهم، فيطردون عن خيالهم، قيام هذه الدولة ذات الدين الإسلامي، الذي هو صورة كاملة لشرائع الله، وقوة مهذبة لقوانين الطبيعة... وقد نشرت منذ أمد غير بعيد، مجلة ألمانية هي «در شبيغل» مقالا عن الإسلام جاء فيه : «إن خلافة جديدة توحد المسلمين من المغرب إلى الدول المالوية ستبقى حلما من أحلام الميثاليين، وأمنية من أماني الطوباويين...».

☆☆☆

إننا إذا ألقينا نظرة فاحصة على حياة المسلمين المعاصرة، وعلى رقعة العالم الإسلامي في حاضرها اليوم، نجدها تشغل حيزا كبيرا من المعمور، وتتميز عن غيرها من الدول بالتجاور في المكان، والتركز في قلب العالم، وأن معظم هذه البلاد الإسلامية نالت استقلالها، وتمتعت بكرامتها، وهي تتجه اليوم، إلى استكمال نهوضها حتى تسير في ركب الحضارة الإنسانية، وتعمل جادة لتوحيد نشاطها، وتوثيق رابطة بينها للعمل الدائب، المتصل في خدمة القضية الإسلامية المقدسة...

ولقد ظلت الشعوب الإسلامية آمادا طويلة، والاستعمار الصليبي يعمل على تخدير وجدانها، وشل إرادتها لتشتيتها، وتفريق كلمتها، متعاونا في ذلك مع الملاحدة المارقين الذين ينظرون إلى الإسلام نظرة من يرى فيه مزاحما خطيرا يخشى أن ينازعهم السلطان على عقول الأمم وضمائرها، في سائر الأخلاق والمعاملات...

ويحدثنا التاريخ عن كثير من الأعمال الشائنة، والتصرفات الخرقاء الموجهة ضد الإسلام والمسلمين، والتي كانت تصدر عن عملاء الطغيان وجند الشيطان الذين اتخذت وجهتهم ومقاصدهم وأهدافهم ـ بالرغم من وجود خلافات مستحكمة دفينة فيما بينهم ـ لتفتيت وحدة المسلمين، وتفريق كلمتهم وتوهين عقيدتهم...

أ ـ فالحروب الصليبية التي أوقد الاستعمار الكافر نارها باسم الصليب على أرض الإسلام، ومعاقل المسلمين، كانت سببا في صد الدفع الإسلامي في تتميم بناء الحضارة الإسلامية، والقيم الإنسانية، والمثل الأعلى، حتى قال بعض المستشرقين : «لولا الحروب التي شنها الغربيون، على المسلمين لتقدمت الحضارة الإسلامية مائتي عام، ولكن العصبية الذميمة والحقد الدفين جعل الغربيين، عموما، ينظرون إلى الإسلام نظرة حقد وضغينة، مخافة أن يكتسح الأديان الأخرى، جميعها، أو ينير السبيل أمام البشرية لتسير قدما نحو الكمال.

ب ـ وعملاء التنصير، وهم عملاء الاستعمار في كل مكان، أولئك الذين دربتهم دعوة التنصير على تشويه تاريخنا الإسلامي، والتشكيك في حقائقه، وإبراز الجوانب الضعيفة فيه، وإنكار المقومات التاريخية والثقافية والروحية في ماضي الأمة الإسلامية، وعلى التنديد والاستخفاف بها...

والتنصير منذ كان معدود من دعامة الاستعمار في العالم الإسلامي، فهو دعوة إلى توهين القوى الإسلامية، والغض من اللغة العربية، وتقطيع أواصر القربى، وتمزيق وشائج الاتصال بين الشعوب العربية والإسلامية، والتنديد والازدراء بحالها في المجالات الدولية العاليمة اليوم.

ج ـ الاتفاقيات الخفية المتوالية بين غلاة الاستعمار وأساطينه وعمدائه لتمزيق البلاد العربية والأقطار الإسلامية حتى تتركها في حالة من التدلي والانحطاط والتأخر والاسفاف بحيث لا تقوى على القيام منفردة بشؤونها إلا بمؤازرة دولة كبيرة من الناحية الاقتصادية والثقافية،

والاجتماعية، وبذلك يتم للذئب أن يأكل من الغنم القاصية...

د - وهذه عصابات الصهيونية، شذاذ الافاق، وجرثومة الفساد في الكيان العربي والإسلامي والتي تعتبر أداة للاستعمار، وقوة المكر الصليبي تعمل هي، أيضا، على تمزيق وحدة المسلمين بشتى الوسائل، ودنيء الذرائع، كما تغذي الخلاف الناشيء بسببها، بين الأقطار الإسلامية فيما بينها عن طريق المطامع والدسائس التي تحوكها مع حلفائها ضد الإسلام والمسلمين...

تلك بعض الأعراض الخارجية التي اعترت العالم الإسلامي، وعاقته عن التطور والانطلاق، لتحقيق أشواقه وتنفيذ غاياته وأبعاده...

لقد بات العالم الإسلامي إزاء هذه المخططات الجهنمية يلتطم بالمخاوف ويختنق بالأخطار، وتجهده المفاوز، وتبهظه الغمرات، وتتفجر في وجهه الأهوال، وتذبل في عيونه الآمال...

كما استشرى خطر الصهاينة وأخلافهم في كل أرض، وبات وصمة في جبين الدهر، ولعنة في تاريخ الإنسان، فأثمر العذاب للناس، والخراب للأرض، والبوار للحرث والنسل، وقطع بين أعضاء الأمة الأسباب، وحرم عليها بمكره ودهائه التواصل، وأصبح كالسرطان الخبيث الذي إذا كشبت جذوره في عضو، نجمت جذوره في بقية الأعضاء...

لكن أشبال الفاتحين الأول الذين غيروا وجه الزمان ومشوا فوق رؤوس الحقب، وحرروا موازين العدل، واستمسكوا في مزالق الفتنة، واستبسلوا في مواقف المحنة، واستشهدوا في سبيل المبدأ، لم يقفوا كما أراد المخططون الفتانون، موقف الفرقة والشقاق والتخاذل والنفاق، وأهواؤهم متشعبة، وآراؤهم متضاربة، بل ثار التاريخ المجيد في نفوسهم، وفار الدم السخين في عروقهم، فافتدوا في بسالة وطن الآباء والأجداد، وحرروا نفوسهم من أوضار العبودية والاستعباد، ووضعوا عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم، وقذفوا الرعب في قلوب الأعداء...

☆ ☆ ☆

ولاشك أن العالم الإسلامي، اليوم، وهو يلاقي من الشدائد وصنوف المكاره والمكائد، قد أدرك موقعه أمام أعدائه وأصدقائه، وانتبه في يقظة حذرة، وتطلع متلهف لبناء وحدة إسلامية متكاملة تجمع شعوبه على كلمة سواء، وتضم صفوفه على السراء واللاواء، يدفعها ماض مشترك مجيد، وحضارة عريقة وتاريخ ممتاز فذ، ووجود مستقل، ومستقبل زاهر...

ولا ريب أن الظروف مهيأة اليوم - أكثر مما مضى - لرفع راية الإسلام واتحاد كلمة المسلمين الذين هم أمة واحدة، تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم...

☆ ☆ ☆

لقد توالت، في السنوات الأخيرة على الإسلام، ضربات عنيفة وصدمات مروعة، ومباغتات تلفت لها الدهر، وتفزعت الأفلاك، واهتزت لها أركان الدنيا، كان سببها مؤامرات خفية ومعلنة نبتت، في الحقل الإسلامي، نباتا ساما مكروبيا فتاكا، تتألف من ذؤبان الأمم، وشذاذ الشعوب، كما كان وبالأسف ضعف الأخلاق، وتفتح الاطماع عند المسلمين أساسا لما وصلوا إليه من قوى متفرقة، وأهواء متشعبة، وآراء متضاربة مما أتاح للصوصية الدولية السيطرة والسيادة والاستغلال... ولو أنهم - سامحهم الله وهداهم، وأصلح بالهم - قالوا ربنا الله ثم استقاموا، واخلصوا دينهم لله، وتكتلوا صفا واحدا، ورسموا سياسة الوجه الواحد، ونفضوا عنهم قيود الذل والقهر والاستعباد لقهروا خصومهم، ودمروا أعداءهم، وأمدهم الله بنصره، وكانت لهم في العالم الكلمة العليا...

لكن... لا بأس بالألم الممض يجمع شتى القلوب على الإحساس المتحد.

ولا بأس بالأحداث المروعة تؤلف نافر النفوس، وتوحد شتيت الصفوف، فتذيب الغش، وتفضح الزيف، وتطرح الغثاء، وتلفظ القشر، وتحفز الهمم الوانية، وتوقظ الضمائر الغافية فتدفع بها نحو التألق والصفاء.

إن الألم يجمع القلوب الشتيتة، ويؤلف نافر المشاعر المتأججة، ويوحد بين النفوس المتباينة، لأن المصائب يجمعن المصابين، والأرزاء التي مني بها العالم الإسلامي من أعدائه وخصومه، وتوالت ضرباتها خلال هذه الأحقاب المتأخرة، قد توحد صفوف المسلمين، وتقرب بينهم مسافة الخلف كلما وهى نظامهم الجامع، وانفرط عقدهم المتسق، فأبناء الأمة الوسط يتضامنون، كلما حزبهم أمر، أو حل بساحتهم مكروه، لأنهم كالعضو الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، والله تعالى يأمرنا بقوله : **﴿واعتصموا بحبل الله جميعا، ولا تفرقوا﴾** ورسول الله ﷺ شهد قبل الإسلام، وهو ابن عشرين سنة حلف الفضول الذي انعقد بين بعض زعماء قريش لرد المظالم، ونصرة المظلوم، وأثنى عليه بعد الإسلام، فقال : شهدت حلفا في دار ابن جدعان، ما أحب أن لي به حمر النعم. ولو دعيت إليه في الإسلام لاجبت...».

وقد قرر السيد هارولد سميث رئيس قسم الديانات بكلية «ووستر» بولاية أهايو في أمريكا وأحد كبار المستشرقين بها هذه الحقيقة التي طالما ظلت قائمة على مدى العصور حيث قال : «ينبغي أن نذكر أن الأخوة الإسلامية تظهر أقوى ما تظهر عندما يهدد العالم الإسلامي أو أي قسم من أقسامه مصدر غير إسلامي، وأنها تجنح أن تنسى حين لا يهدد الجماعة خطر وشيك من الخارج ومع ذلك فإن هذه الرابطة قوة حقيقية، وفي الإمكان أن تصبح عامل تقوية في العالم الإسلامي كله».

☆ ☆ ☆

تجلت هذه الرابطة القوية الحقيقية في اللقاء الإسلامي الأول الذي انعقد في مستوى القمة برباط الفتح عاصمة المملكة المغربية والذي كان حلما جميلا طالما داعب الضمير الإسلامي منذ عدة قرون بعد أن تعثر في طريقه بسبب التخلف والجمود ردحا من الزمن غير قليل، إلا أنه تبلور بصيحات زعماء الإصلاح، ودعاة التجديد وعلماء الدين الذين أعطوا قضاياهم الكبرى زخما جديدا قويا، وأرصدوا الأهب للقيام ببث الفكرة الإسلامية على وجهها الصحيح، والأخذ بضبع المسلمين وانتشالهم مما حاق بهم من كيد الاستعمار الذي كاد يفت في الأعضاد ويفل غرب العزائم...

وقد كان العلاج الناجع كامنا في عودة المسلمين إلى الصف، ووحدتهم الجامعة، وقوتهم الظافرة، والتمسك بحبل دينهم المتين، والسير على النهج القويم الذي سار عليه أسلافنا الأبطال الذين فتحوا عذارى الممالك، وطهروا العالم من الوثنية والفسوق، والفجور والإلحاد، وأعلنوا دين الله ونشروه، وعلموا كتاب الله ونصروه... وكان حقا علينا نصر المومنين...

وما من شك في أن الرأي العام العالمي لاحظ تضامن المسلمين المتين، وقوتهم الظافرة، وتأييدهم المطلق لشعب فلسطين في نضاله المشروع، وجهاده المقدس، ودفاعه المستميت ضد الظالمين البغاة، فلم يسجل ذلك التضامن تكتلا دينيا تعصبيا، يستهدف مناصبة الأديان السماوية الأخرى العداء، بل لكي يحارب ويقاوم ما تحاربه هذه الأديان ذاتها على اختلافها من عسف وظلم واستهتار بالمثل العليا، تجلى ذلك في البيان النهائي لأشغال مؤتمر الرباط الذي كان واضحا مركزا بعيدا عن كل تعصب مقيت، أو عنصرية رعناء، أو حقد دفين، أو ديكتاتورية باغية...

☆ ☆ ☆

من الحقائق التاريخية أن تاريخ الإصلاح والتضامن والتجديد، متصل في الإسلام، والمتقصي لهذا التاريخ لا يرى ثغرة ولا ثلمة في جهود التضامن والإصلاح والتجديد، ولا فترة لم يظهر فيها من يعارض التيار المنحرف، ويكافح الفساد الشامل، ويرفع صوت الحق، ويتحدى القوى الظالمة أو عناصر الفساد، ويفتح نوافذ جديدة في

التفكير؛ والدارس لهذا التاريخ، والمتتبع لحوادثه وشخصياته، لا يعرض عهدا قصيرا ساد الظلام فيه على العالم الإسلامي، وخبت مصابيح الإصلاح، وخفتت أصوات الحق، ومات الضمير الإسلامي، وتبلد الشعور، واضرب الفكر الإسلامي عن العمل.

☆☆☆

لقد كان لدعوة التضامن الإسلامي ما هدون أشداء على الصليبية والاستعمار والصهيونية، وظل المفكرون المسلمون والمصلحون المخلصون قديما وحديثا يبحثون عن أسس جديدة لتضامن المسلمين في جامعة إسلامية وتضامن إسلامي، أو رابطة إسلامية أو وحدة إسلامية...

وقد عاصر الإمام أحمد ابن تيمية نهاية الدولة العباسية على يد التتار وأبلى هو نفسه البلاء الحسن في الدفاع عنها، وفي صيانة العقيدة من خطر التحجر والجمود، ومات ضحية أفكاره، ولما لاحظ الأخطار التي كانت تحيق بالعالم الإسلامي من كل جانب، دعا منذ ستة قرون إلى التضامن الإسلامي في كتابه «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» مناديا بتنظيم الجامعة الإسلامية.

☆☆☆

ويجب أن لا ننسى تلك المزايا التي استأثر بها العلماء الذين عاشوا في هذه المنطقة، ولا سيما علماء الهند الذين كان في طليعتهم الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي الذي يندر نظيره في العالم الإسلامي، بعد شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية، ثم حكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوي صاحب : «حجة الله البالغة» والإمام محمد قاسم النانوتي، مؤسس الجامعة الإسلامية ـ دار العلوم، ديوبند والشيخ السيد محمد علي المونكيري مؤسس «ندوة العلماء» وكذلك الشيخ معين الدين الجشتي الذي أسلم على يده مآت الألوف من البشر، ومن جاء بعده كالسيد علي الهجويري، والشيخ إسماعيل اللاهوري، والأمير الكبير السيد الهمداني الكشميري، وفريد الدين الاجودهني، والإمام أحمد بن عرفان الشهيد الذي أسلم على يده وحده أربعون ألفا من غير المسلمين.

وقد ظهر في الهند، أيضا مؤسس الباكستان الفيلسوف الشاعر الدكتور محمد إقبال الذي لم يكتف بالدعوة إلى الإسلام، ولكنه صاغ فلسفة إسلامية جديدة لا تتفق والجبرية الاقتصادية والحتمية، ولا الفلسفة الليبرالية الالحادية أو المسيحية، وكانت دعوته في شعره للجامعة الإسلامية، أراد بها أن يتضافر العقل والوجدان والإرادة لبناء عالم المسلمين.

كما كان أيضا ماهدون أشداء على أعداء الإسلام للوحدة ولتضامن الإسلامي على الاستعمار والتخلف، كالمصلح السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ الإمام محمد عبده، والأستاذ رشيد رضا، ومصطفى كامل، ورفاعة الطهطاوي وعبد الرحمن الكواكبي صاحب «أم القرى» الذي يحمل دعوة صريحة للجامعة الإسلامية، والأمير شكيب أرسلان وغيرهم عشرات هم الذين أرسلوا آراءهم عبر وسائل الإسلام المتوفرة في ذلك العصر، فنبهوا أمما، وألهبوا شعوبا، وقامت بفضل دعواتهم الثورة العربية في مصر وثورة المهدي في السودان، والثورة الوهابية بالحجاز والثورة السنوسية بليبيا...

كما أن هناك حركات إصلاحية قادها زعماء مسلمون في عالم ما وراء النهر أمثال إسماعيل بك غابرانسكي الذي دعا لمؤتمر إسلامي عالمي عام 1926 عقب انهيار الخلافة الإسلامية، فاجتمع المؤتمر، وأصدر عدة قرارات في توحيد العالم الإسلامي، وادخال إصلاحات على النظم السياسية والاجتماعية وكذلك المصلح الكبير عبد الرؤوف فطرت، والبطل العظيم شامل عبد القادر القوقازي الذي أبلى البلاء العظيم في بلاد ما وراء النهر...

إن تدهور المسلمين، واندحارهم ناشئ عن إخفاقهم في اللحاق بعالم متغير، وأنه ينبغي على المسلمين أن يصلحوا أنفسهم، وإلا فإنهم سيؤولون إلى مجرد ظلال مؤسفة باهتة تعكس ماضيهم المجيد..

واستشراف للأدب السياسي الإسلامي في القرن التاسع عشر يعطينا انطباعا بأن المجددين وزعماء الإصلاح، ودعاة التجديد كانوا الوحيدين، تقريبا، في فكرهم وكتاباتهم حول قضايا الساعة الأساسية.

ولقد حاز هؤلاء المفكرون المجددون على عدد من الذين يصغون إليهم أبعد من حدود بلدانهم بكثير... فجمال الدين الأفغاني، وميرزا أغاخان نوري، والشيخ حسن روحي، والسيد أحمد ونامق كمال، وأمير علي، وعبد الحق حامد، والحاج أنجوش سليم، وميرزا فتح على أخوند زادة من شيرافان «اذربيجان»، وأحمد طالب زادة (طالبوف) من تركستان، والمفكر التتري يوسف أقجرا وغلوا، الذي كان مدرسا في قازان، وأسس المجلة المسماة : «ترك»، وساهم محررا فيها، وكانت تنشر في القاهرة منذ عام 1902 م وفي عام 1904 نشر مقالته الشهيرة : ثلاثة أنظمة سياسية، حاول فيها أن يقدم برهانا علميا على أن الشعوب التركية من مصر حتى الصين تشكل أمة واحدة، هؤلاء كلهم دعوا، جميعاً، لفكرة الإصلاح والتحديث، من مصر إلى أندونسيا، كما كانت أعمالهم تناقش في أرجاء العالم الإسلامي كله، ونلاحظ أنهم جميعاً كانوا مخلصين ملتزمين بأقلامهم، ولم يكن أحد منهم يعتقد بأن العلمانية ستحل مشاكل الإسلام.

وقد تناولت الحركة الإصلاحية التي قادها أولئك الأبطال ميادين شتى، ولقيت محنا كثيرة، ولكنها تشجعت عند قيام الثورة الشيوعية وصدور إعلانها المتضمن لمبادئ تحررية، كما فصل ذلك الأمير شكيب أرسلان رحمه الله في حاضر العالم الإسلامي، وغيره من الكتاب.

☆ ☆ ☆

تبلور مفهوم التضامن الإسلامي، بعد مرحلة مؤتمر مكة ومؤتمر القدس ومؤتمر الصومال، ومؤتمر كوالالمبور في ضمير العالم الإسلامي، وبات حلما يداعب كل مسلم يرى النجاح لهذه الأمة عن طريق هذا التضامن...

ولقد مرت فترات عديدة على المسلمين كانت تدعو إلى عقد مؤتمرات في مستوى القمة لتدارك الحال، لكن الحدث المفجع المروع الذي أقض المضجع، وكان له دوي رائع مرعب لا في الرأي العام العربي فحسب، ولكن في الرأي العام الإسلامي والذي استهدف حريق المسجد الأقصى هو الذي دعا الأمة الإسلامية إلى تجميع رأيها، وتنسيق خطتها، وتوحيد صفها.

ويجب أن نشير إلى أن أول مؤتمر إسلامي رسمي قد انعقد في القدس عام 1932 برئاسة المرحوم سماحة مفتي فلسطين الأكبر الحاج محمد أمين الحسيني، اشترك فيه زعماء من بعض بلدان العالم الإسلامي، ومنها المغرب كان ذا صفة شعبية، لم تتمثل به أية حكومة من الحكومات، لأن معظم العالم الإسلامي كانت تحت كابوس الاستعمار والاحتلال حيث لم يكن هنالك الا القليل النادر جدا في الدول الإسلامية المستقلة استقلالا تاما ناجزا..

وقد انبعثت، أيضا، دعوة مومنة في المؤتمر الإسلامي الذي انعقد عام 1964 بمقادشيو، ترمي إلى عقد اجتماع قمة إسلامي كبير يتغيا جمع كلمة المسلمين ليزدادوا تعارفا وتآلفا، ويتباحثوا في شؤون شعوبهم، ويعززوا صفوفهم، ويؤلفوا قوة جبارة تكفل لهم حياة العز المنيع، كما تضمن لهم فرض وجودهم في معترك الحياة، وتعطيهم المكانة المرموقة التي يجب أن يحتلوها على الصعيد العالمي...

كما جدد مؤتمر رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة لدى اجتماعه في أعقاب حج 1965 الدعوة لعقد مؤتمر في مستوى القمة، وشرح المرحوم جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود في زيارته لعديد من العواصم الإسلامية دعوته إلى عقد اجتماع في مستوى عال يستهدف تقاربا إسلاميا خالصا، وقد حل جلالته بالمملكة المغربية عام 1966 ضيفا على جلالة الملك الحسن الثاني الذي ألقى بمناسبة هذه الزيارة خطابا جامعا صريحا دعا فيه إلى توحيد الصف، وجمع الكلمة، وتآلف القلوب ومما جاء فيه :

(إيماننا هذا هو الذي دفع بنا كذلك إلى الترحيب بدعوة تأليف شعوب المسلمين، وجمع

صفهم وتوحيد كلمتهم تحقيقا لمصداق الحديث : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» فنحن نفهمها كما تفهمها جلالتكم ونريدها كما تريدونها دعوة إسلامية تستجيب لواقع الإسلام والمسلمين، ولم نردها، ولن نريدها أخوة، يتكتل فيها بعضنا ضد بعض، ولم نتصورها في خدمة مصلحة خارجة عن مصلحة المسلمين أنفسهم، كما لا نريدها أن تكون اخوة متعصبة عدوانية أو يستغل فيها الدين للمساومة على الرخيص من الأغراض والمصالح وفي كلمة جامعة نريدها كما تريدونها قوة تعزز قوات السلم والحرية وفي خدمة أغراضها، وان منها الدعوة لتآلف شعوب المسلمين).

وفي عام 1969 احتضنت كوالالمبور عاصمة ماليزيا مؤتمرا إسلاميا دوليا في مستوى الحكومات بمقتضى الدعوة التي وجهتها حكومة هذه البلاد إلى الأقطار الإسلامية... وقد مثل المغرب في هذا المؤتمر المرحوم الأستاذ سيدي عبد الله كنون، والأستاذ السيد محمد بنعبد الله مدير مجلة دعوة الحق... وقد قرر المؤتمر دعوة جميع الدول الإسلامية إلى مؤتمر سياسي على مستوى عال يضم ملوك ورؤساء الدول الإسلامية للتباحث والتشاور لتخليص القدس من التهويد، وتحرير فلسطين المجاهدة، وكان هذا المؤتمر فرصة فريدة للتباحث في تاريخنا الإسلامي الحديث حيث سجل تقاربا متينا حيويا مثمرا بين البلدان الإسلامية، كان مناسبة لإبراز التضامن والوئام بين الإخوة المسلمين فيما يعود على بلدانهم وشعوبهم وعلى المسلمين بالخير المحض، والنفع العام، حتى يشعروا عن وعي يقظ، وتبصر حي بقوتهم السياسية والبشرية، وإمكانية تسخيرها لخير شعوبهم، ولصالح الإنسان.

وظهرت الدعوة بصفة صريحة ملحة إلى عقد مؤتمر إسلامي للقمة في اجتماع وزراء الدول الخارجية في الأسبوع الأخير من شهر غشت 1969 بالقاهرة، وقرر في جملة ما قرر : «تأكيد أهمية عقد مؤتمر قمة إسلامي، وأن يعهد إلى المملكة المغربية والمملكة العربية السعودية بإجراء الاتصالات اللازمة من أجل عقد هذا المؤتمر».

فكان مؤتمر القمة الإسلامية الأول الذي انعقد برباط الفتح عاصمة المملكة المغربية تتويجا للجهود المضاعفة التي بذلها جلالة الملك الحسن الثاني في جميع المناسبات لتوحيد كلمة المسلمين، واجتماع قادتهم وملوكهم للقضاء على أسباب النفرة الطارئة، والعمل على محو المنكسة الأليمة التي وقعت في سعيرها الأمم الإسلامية التي تعيش اليوم في دور التجمع والاستعداد على الرغم مما يبدو أحيانا من عوامل المقاومة والانتكاس...

وهكذا وضع انعقاد مؤتمر القمة الأول الذي انعقد بالرباط، أو الثاني الذي انعقد في مدينة لاهور بالباكستان عام 1974 الأمة الإسلامية على بداية الطريق الواضحة لتحقيق الأمل الكبير الذي عمل له المفكرون والرواد المسلمون خلال الأجيال المتعاقبة في قيام عالم إسلامي متضامن موحد يرتكز على أساس ثابت في العقيدة الإسلامية الغراء التي تستطيع وحدها أن تعطي للمسلمين أسباب القوة المادية والمعنوية، وتمنحهم القدرة على الدفاع عن كيانهم وعقيدتهم أمام كل المعتدين...

ان يوم الثاني عشر من رجب الفرد الذي قرر مؤتمر وزراء الخارجية الإسلامي الذي انعقد بكوالالمبور الاحتفال بذكرى تأسيس منظمة المؤتمر الإسلامي لخليق بأن نجعل منه عيدا إسلاميا لتأكيد عزم الأمة الإسلامية وإصرارها على مواصلة الخطى الثابتة الرائدة، والسير في درب الحرية الرشيدة على ضوء المبادئ القويمة السليمة، والمقررات التي انتهى إليها المؤتمر الأول الذي انعقد بالرباط، فشهد ميلاد منظمة تجمع كلمة الدول الإسلامية...

الرباط : محمد بنعبد الله

محمد رسول الله

أكرم ولد آدم على ربه

للأستاذ عبد الله اكديرة

1 ـ أكرمنا الله تعالى ـ بمحض فضله وكرمه ـ بمحمد رسوله وحبيبه وخليله وأكرمهم عليه وأفضلهم لديه، فظهر به صلى الله عليه وعلى آله وصحبه جمال الله في كل شيء، وتجلى كما له جل وعلا في كل كائن.. وأجمل شيء خصنا به نحن أمة محمد أنه بعثه فينا ومنا، وجعله أول شافع وأول مشفع فينا، وتجلى جلاله لكل الخلق بأن جعل أجل الخلق بين الخلق في الخلق والخلق هو هذا النبي الأمي الكريم إمام الأنبياء وأعظمهم يوم القيامة، وبدا كماله عز وجل لكل الأنام بأن جعل سيدهم يوم القيامة هو سيدهم في الدنيا محمدا ﷺ...

انفرد في الدنيا بختم النبوة والرسالة، فكان سيدا مسودا بفضل الله.. وانفرد في الآخرة بالشفاعة فكان سيدا مسودا بكرم الله، يلجأ إليه الناس في ذلك اليوم المهول دون سواه من الخلق، ولن يجدوا سواه.. وهذه منهم شهادة تشهد بها كل خلية من أجسامهم، وكل ذرة من الكون معهم من حولهم، بالبيان الفصيح أمام الديان الذي لا يموت، يوم يقوم الأشهاد بين يديه ويكون الأمر كله إليه، بأنه الحبيب المحبوب حبا يحتل حبات القلوب، وأن آخر ما تلهج به الألسنة يوم يلقى الناس ربهم على شوق أو على فرق هو شهادتهم هذه التي استقرت في القلوب، وصدقتها الأعمال وختمت بها الألسنة آخر ما ينطق لسان من إنسان..

إنها شهادة تنطق بأن حياته ﷺ للناس خير، ووفاته للناس خير.. ولطالما تحدث الناس كما كان له من خير.. ومن فضل حثنا عليه، أو حققه لنا الله ببركته وسعيه وهديه في حياته الطيبة المباركة.. فلما قضى الله تعالى أن يلحقه بالرفيق الأعلى ويتوفاه إليه، تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، خير الدنيا والآخرة...

ترك فينا الأزهرين الأنورين : كتاب الله وسنته المبينة.. ترك فينا ما إن تمسكنا به كان لنا عز الدنيا وفلاح الآخرة...

فماذا عن حالنا مع رسول الله وبه في الآخرة ؟ ألم أقل إن حياته كانت لنا ولا زالت خيرا ؟ وإن مماته هو لنا خير ؟

وها هو الدليل الناصع من حديثه ﷺ : «أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا

مبشرهم إذا أيسوا، لواء الحمد بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر».

سيكون أول المبعوثين يوم البعث والحشر.. لماذا ؟ لأنه رائد قائد في الآخرة، كما هو قائد رائد في الدنيا ـ كان ولا يزال، ولن يزال.. ـ هذا دوره في الحياة، ومبرر وجوده.. أن يكون نبيا رسولا.. والرائد لايكذب أهله.. وآخر هذا الحديث يثبت ويدعم أوله...

ولنمض في تساؤلنا عن سبب كونه أول خارج يوم البعث.. ليطمئن من آمن به وبرسالته وبنبوته وشفاعته وعمل بما جاء به.. وليأمل في شفاعته من كان في دنياه من أهل اللمم من المعاصي.. ولنتصور إنسانا يدخل في هذه الدنيا مكانا لم يكن له به ولا بأهله سابق معرفة !! كيف يكون شعوره بالرهبة ؟ وإحساسه بالغربة ؟ وما يجيش في نفسه من الوحشة ؟ لنتصور هذا الإنسان وهو يتقدم بطيئا مترددا متهيبا، يقدم رجلا ويؤخر أخرى.. وعيناه تجولان في لهفة حيرى بأرجاء المكان، يرجو أن يقع بصره على وجه معروف يأنس به، أو مكان مألوف يأوي إليه.. لنتصور حالة إنسان في مثل هذا المكان، ومثل هذا الموقف، وقد عثر على أخ له شقيق، أو والد رحيم أو صديق حميم، يعرف المكان وأهل المكان، وسيكون له فيه نعم الأنيس والمرشد والمعين.. ولنبعد في تصورنا إلى يوم البعث والنشور والحساب.. يوم الهول.. اليوم الذي يجعل الولدان شيبا، السماء منفطر به، الشمس فوق الرؤوس تصهرها.. الناس في زحام، حفاة عراة عزل، مغمورون في عرقهم، الوالد يفر من ولده، والأخ من أخيه والزوج من زوجه، والحميم من حميمه، والميزان منصوب، والصراط مقام أرق من الشعرة وأحد من السيف، وكتاب الأعمال يؤتاه البعض بيمينه، والبعض بشماله أو من وراء ظهره.. إنه يوم الفزع الأكبر.. أليس كذلك ؟

ولكن لنمض في تصورنا إلى أبعد مدى ! ها هو رسول الله سيدنا محمد ﷺ يظهر لنا عند أول بعثنا وخروجنا لهذاالهول المرعب المروع.. إنه هناك يحتل المقام المحمود الذي وعده به ربه جل وعلا.. إن لواء الحمد بيده، يحمله على ملأ من أهل البعث والحشر.. حينئذ لايتذكركل فرد منا إلا ذنوبه ومعاصيه الصغيرة منها والكبيرة، فنيأس ونبلس ونحبس.. ولا يبقى لنا من أمل ولا رجاء إلا في صاحب المقام المحمود والدرجة الرفيعة والوسيلة والفضيلة.. في صاحب لواء الحمد والكرم يحمله بيده.. نجده أمامنا أول من بعث وخرج، يطوف عليه ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون.. فيصيح فينا الرجاء بلسان الحال والمقال : يامحمد ! يارسول الله ! يا أكرم ولد آدم على الله.. الشفاعة.. الشفاعة.. يارسول الله.. أنت خطيبنا إذا وفدنا.. يارسول الله.. أنت مبشرنا إذا أيسنا وأبلسنا.. وأنت شفيعنا إذا حبسنا.. الشفاعة.. الشفاعة.. يارسول الله. يا أول شافع.. يا أول مشفع..يا أكرم الأولين والآخرين من خلق الله.. يارسول الله.. ياسيد الناس يوم القيامة..

بهذا الرجاء في رحمة الله الرحمن الرحيم، وشفاعة الرسول المشفع الكريم تمتلئ القلوب وتلهج الألسنة... وبرحمة الله وبإذنه يشفع سيدنا محمد فيمن يستحق الشفاعة ويؤذن له بالشفاعة فيه من الناس... فيكون ﷺ كما قال هو نفسه، وهو الصادق المصدوق : «أنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر... وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح لي فأدخلها، فيدخلها معي فقراء المومنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر» وفقراء المومنين عند علماء السلف الصالح هم الذين يرون نفوسهم مملوكة لله ولا يرون أنفسهم مالكة لشيء بوجه من الوجوه، فهم وما ملكوا لله تعالى...

وعلى هذا ففقراء المؤمنين الداخلون أول الداخلين الجنة مع رسول الله يكون منهم أيضا أغنياء الكسب الحلال، المنفقين أموالهم في سبيل الله، الذين لا يطغيهم مال، ولا يبطرهم غنى، ولا يطغيهم ثراء...

وهذا تساؤل آخر : بماذا سيخطب رسول الله ﷺ يوم القيامة بين يدي رب العزة جل وعلا ليشفع للوافدين الراجين الآملين من أهل البعث والحشر وهم ينصتون ؟ ها

هو جوابه ﷺ : «يحشر الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تل ويكسوني ربي حلة خضراء، ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود». وها هو قارئ العزيز بعض ما يقول رسول الله ﷺ في ذلك اليوم المهول : «قال حذيفة : يجمع الله الناس في صعيد واحد، حيث يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، حفاة عراة كما خلقوا، سكوتا لا تكلم نفس إلا بإذنه، فينادى : محمد، فيقول : لبيك وسعديك والخير في يديك، والشر ليس إليك، والمهتدي من هديت، وعبدك بين يديك ولك وإليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك تباركت وتعاليت، سبحانك رب البيت...».

هذا بعض ما يلهمه الله تعالى رسوله الكريم يوم القيامة وهو ساجد تحت العرش من المحامد وحسن الثناء فيقال له : «يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه واشفع تشفع»... يقول رسول الله ﷺ مبشرا كل مؤمن : «فأرفع رأسي فأقول : يا رب أمتي، يا رب أمتي، فيقول : أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب...»

ألم أقل لك قارئي العزيز إن سيدنا محمدا خير لنا في حياته وخير لنا في مماته ؟

أولا يستحق منا هذا الرسول العظيم الحب العظيم، الحب الذي يصدق عليه قول الشاعر :

قد تخللت مسلك الروح مني
وبذا سمي الخليل خليلا
فإذا ما نطقت كنت حديثي
وإذا ما سكت كنت الغليلا

ولنتساءل أيضا تساؤلا يطرح نفسه علينا بإلحاح : إذا كان رسول الله يوم الفزع الأكبر الشافع المشفع، فمن أحق بشفاعته ؟ يجيب عليه الصلاة والسلام وهو الذي لا يكذب ولا يمين : «خيرت بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة لأنها أعم، أترونها للمتقين ؟ ولكنها للمذنبين الخطائين».

فكيف تكون شفاعته للمذنبين الخطائين من أمته ؟ يقول ﷺ : في سياق حديث من أحاديثه عن الشفاعة : «...ثم أخر ساجدا فيقال لي : يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك واشفع تشفع وسل تعطه، فأقول : يا رب أمتي أمتي، فيقال : انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه، فأنطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد، وذكر مثل الأول وقال فيه مثقال حبة من خردل، قال فأفعل، ثم أرجع، وذكر مثل ما تقدم وقال فيه من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل، وذكر في المرة الرابعة، فيقال لي : ارفع رأسك وقل يسمع لك واشفع تشفع وسل تعطه، فأقول : يا رب أئذن لي فيمن قال : لا إله إلا الله. قال : ليس ذلك إليك، ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبريائي لأخرجن من النار من قال : لا إله إلا الله...».

2 ـ فما معنى الشفاعة التي زوجها وننتظرها من رسول الله ؟ وما هي الشفاعة المحرمة بيننا نحن البشر ؟ وما هي الشفاعة الحسنة التي يجب أن تكون بيننا ؟... إن رسول الله هو قدوتنا الطيبة وأسوتنا الحسنة، ومن سيرته ينبغي أن نستمد النور والهدى والتزكية... فديننا الذي جاءنا به حياة تعاش، ومعاملة تمارس، وواقع يحيا... وإن من عظم نعم الله علينا أن بعث لنا محمدا ليكون مثلا أعلى حيا نحتذيه في كل حركاته وسكناته كإنسان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، حتى لا يستحيل علينا مما فعل أو ترك شيء نأتيه أو ندعه... ونحن في كل ما نأتمر فيه بأمره، أو ننتهي بنهيه، نقيم مجتمع الإيمان والعدل والفضل، وسيادة الرحمة والتكافل والتضامن والأخوة... ولتحقيق هذا المجتمع الفاضل حض الله تعالى المؤمنين وحثهم على الشفاعة الحسنة فيما بينهم، وحرم عليهم الشفاعة السيئة... شفاعة التوسط فيما لا يرضي الله... بما لا يرضي الله... شفاعة المحسوبية... شفاعة العمل على أن يأخذ من لا يستحق ما لا يستحق بحرمان من يستحق ما يستحق... ومن شَفع أو شُفع له هذا النوع الشفاعة السيئة في الدنيا

حرم شفاعة من لا يؤذن لسواه بالشفاعة يوم الهول والحساب... ولم تنفعه شفاعة الشافعين.

إن الله تعالى قد جعل من محمد نبيه ورسوله شافعا مشفعا ليكون اقتداؤنا به لجوءا إلى الله ووقوفا ببابه بالشفاعة الحسنة... وعياذا به واستغاثة برحمته من أن تسود بيننا الشفاعة السيئة... ورجاء مبتهلا ضارعا خاشعا ذليلا بالنية والقول والفعل أن يجعلنا ممن يستحق الشفاعة من سيد خلقه وإمام رسله وخاتم أنبيائه... سيد الشفعاء... يوم لا يتصدى للشفاعة سواه، لأن الكل مشغول بنفسه، وهو فداه النفس والوالد والولد المشغول بأمته يريد لها حسن الشفاعة...

والوسيلة الأولى إلى نيل هذه الشفاعة هي الشهادة باللسان والجنان ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله... شهادة إيمان راسخ مكين... ويقين راسخ متين... نسعى جهدنا أن تكون شهادة وقرت في القلب يصدقها العمل، رغم ضعفنا وقصورنا... رغم نزوات أنفسنا ونزعات أهوائنا ونزغات شياطين الإنس والجن التي تسعى لأن تردينا وتسقطنا في حمأة اللجوء إلى غير الله... واللجوء إلى الله في كل الأحوال هو الأمل.. هو السند.. هو القوة.. هو العون.. هو الأمن.. واللجوء إلى غير الله وبأي وسيلة لا ترضي الله هو حضيض الشفاعة السيئة.. والقدوة الطيبة في عدم التمسك إلا بحبل الله المتين.. وأسوتنا الحسنة في عدم الاعتصام إلا به.. هو سيدنا محمد ﷺ.. به نتوسل ألا يحرمنا الله في دنيانا أن نشفع بين الناس وأن يشفع لنا عندهم بحسن الشفاعة.. ويوم القيامة يحقق لنا الإذن له بالشفاعة.. فهو عليه الصلاة والسلام أهل الشفاعة دون سواه، والله جل وعلا أهل تحقيق الشفاعة والإذن بها له دون سواه.. ونحن العصاة المذنبون.. ولكننا تائبون بذنوبنا مقرون.. في الشفاعة طامعون.. ولن نضيع بين الرحيم ثم الشفيع.. فما معنى الشفاعة لغة ؟ هي أن يسعى المرء لدى المسؤولين في حاجة يطلبها لغيره نصرة وتوسلا بوسيلة مقبولة لقضاء حاجة ما، فهي بهذا المعنى إن كانت شفاعة إصلاح بين متخاصمين مثلا، شفاعة حسنة، وإن كانت لإيجاد عمل لعاطل في منصب يناسبه ويستحقه بدون محاباة ولا مصانعة.. وبدون أن يحرم من هذا المنصب من هو أحوج إليه، أو هو أحق به، فهذه أيضا شفاعة حسنة...

وأما الشفاعة السيئة فأكتفي بمثال واحد حي، هو هذا الحديث الشريف الواضح الصريح الصارم عن سيد الخلق ﷺ : «إذا بلغ الحد السلطان، فلعن الله الشافع والمشفع» بمعنى أن المذنب الذي ارتكب ما يستحق به أن يعاقب قضائيا، وقدم أمره إلى المحكمة لتبت فيه بما يقتضيه الشرع، فلا يحق لأحد أن يتدخل بشفاعة تفسد ضير الحاكم أو الشاهد.. سواء كانت هذه الشفاعة لتغيير الحكم أو تخفيفه قبل صدوره أو بعد صدوره.. ومن فعل فهو مستحق للعنة الله.. ولعنة الله هي الخروج من رحمته.. ولا يخرج من رحمة الله إلا شيطان.. محروم من الشفاعة يوم يأذن الله لمن شاء بها.. والوسيط والموسط في هذا سواء.. هذا إذا كانت الوساطة - وهي هنا شفاعة سيئة بدون جدال - بدون مقابل، فإذا وصل الأمر إلى بيع الذمة وبذل الشفاعة بالمقابل، فذلك الألعن والأبشع والأشنع والأفظع...

وها هو رب العزة جل وعلا في محكم تنزيله يذكر نوعي الشفاعة هذين : «من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها، وكان الله على كل شيء مقيتا» والشفاعة الحسنة هنا معناها نصر الحق بالدخول في صفوف المجاهدين في سبيل الله ونصرهم وإعانتهم على ما هم بصدده من الجهاد المبارك لنصرة الحق.. ومعناها أن كل من يسعى في أمر من أمور الخير يبتغي به مصلحة الفرد المسلم أو الجماعة المسلمة أو أمة الإسلام عموما، فينجح في شفاعته ويترتب عن عمله ذاك خير قل أو كثر، فإن له نصيبا من ذلك الخير الذي وفقه الله إليه في الدنيا.. بأن يبارك الله مساعيه ويشتهر

بين الناس بالصلاح والبركة وفعل الخيرات، فيقصده الكثير منهم لقضاء حاجاتهم يستشفعون بـه لبلوغ مراميهم في الصلاح والإصلاح ورفع المظالم وجلب المنافع ودفع المضار.. وذلك بالطبع فيما يقدر عليه.. هذا نصيبه في الدنيا.. فليحذره أشد الحذر، فقد يصبح الأمر عنده في هذه الحال أن تنقلب غايته من العمل لله ابتغاء مرضاته بالشفاعة الحسنة وابتغاء الإصلاح ما استطاع.. إلى النظر إلى ما يناله من رضا الناس واستحسانهم لما يعمل وما يشتهر له بينهم من حسن الأحدوثة وجميل الذكر وذائع الصيت وعالي الجاه، فيفتتن بهم ويفتتنوا به.. وهذا هو الشرك خفيه ومعلنه.. وقد لا يعرفه ثم يقاومه إلا من أكرمه الله بمعرفة ربه ثم نفسه ومراقبتها ومحاسبتها...

وأما الشفاعة السيئة فهي كل عمل يعمله المرء يظهر به أنه يسعى لمصلحة فرد أو جماعة وما هو إلا ستار يتستر به على نواياه الدنيئة ومراميه القبيحة.. وهو قناع جميل يخفي وجها بشعا.. والشفاعة السيئة أيضا هي العمل على سلب حق إنسان للاستئثار به.. أو لإيثار إنسان آخر به لا يستحقه.. فهي بهذا ظلم.. والظلم ظلمات يوم القيامة.. ظلم حرمه الله على نفسه وحرمه بين عباده.. والكفل الذي يناله صاحب الشفاعة السيئة هو الوزر الذي يحمله في دنياه يثقل ضميره إن كان له ضمير.. هو اللعنات الوبيلة التي تنصب عليه ممن سلبه حقه بسوء الشفاعة.. هو نكران (الجميل) العاجل أو الآجل ممن (تفضل) عليه بسوء الشفاعة، فأنا له بها ما لا يستحق بحرمان من يستحق.. وهو أيضا الدعاية السيئة التي تذيع له بين الناس بأنه الإنسان المنافق المتظاهر بما ليس فيه، الذي لا يحل حلالا ولا يحرم حراما.. وهو في الأخير حرمانه من شفاعة الشفيع المشفع محمد ﷺ.. ومن رحمة الرحمن الرحيم جل وعلا.. ومن حرم تلك الشفاعة وهذه الرحمة فقد خسر الخسران المبين.. والله تعالى حين يأذن لرسوله الكريم بالشفاعة بمشيئته وهو الفعال لما يريد فإنما هو المقيت، أي الحفيظ الشهيد الحسيب القدير.. سبحانه وتعالى..

يقول الشيخ رشيد رضا رحمه الله في تفسير المنار عند ختام تفسيره لهذه الآية ما معناه : «...وما الذئاب الضارية بأفتك في الغنم من فتك الشفاعات في إفساد أخلاق الناس أفرادا ومجتمعات.. فالمجتمع الذي تروج فيه الشفاعات يصبح أهله معتمدين عليها لا على الحق والعدل، فتضيع الحقوق.. ويعم الفساد.. ولا يصلح حال مثل هذا المجتمع إلا إذا عمت الشفاعة الحسنة بين أفراده، بأن يطلب الحق أصحابه بالتوسل إليه بأسبابه الحقيقية، والدخول عليه من بابه، مع اللجوء إن اقتضى الأمرنادرا إلى أهل الخير للاستعانة بهم فيما لا يسقط حدا ولا يهضم حقا لأحد...».

وهذه أيضا قولة مختصرة للإمام ابن حجر تفسر نفس الآية : «...الأجر على الشفاعة ليس على العموم، بل مخصوص بما تجوز فيه الشفاعة، وهي الشفاعة الحسنة، وضابطها ما أذن فيه الشرع دون ما لم يأذن فيه كما دلت عليه الآية... وهي شفاعة الناس بعضهم لبعض... وحاصله أن من شفع لأحد في الخير كان له نصيب في الأجر، ومن شفع له بالباطل كان له نصيب من الوزر...».

فماذا يقول صاحب الشفاعة الحق عن الشفاعة ؟ ومن سيرته نسير بالشفاعة الحسنة بيننا راجين شفاعته يوم لا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه :

- قال عليه الصلاة والسلام : «أفضل الصدقة صدقة اللسان، قيل : يا رسول الله، وما صدقة اللسان ؟ قال : الشفاعة تفك بها الأسير، وتحقن بها الدماء، وتجر بها المعروف إلى أخيك، وتدفع بها كريهة».

- وقال أيضا : «إن الله تعالى يسأل العبد عن جاهه كما يسأله عن عمره، فيقول له : جعلت لك جاها، فهل نصرت به مظلوما أو قمعت به ظالما أو أغثت به مكروبا ؟..»

وقد فهم الصحابة الكرام والسلف الصالح ببيان ووضوح الشفاعة الحسنة كما علمها لهم رسول الله ﷺ وها

هو نموذج من ذلك الفهم عن حبر الأمة سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : «...كان معتكفا في مسجد رسول الله ﷺ، فأتاه رجل فسلم عليه ثم جلس فقال لـه ابن عباس : يا فلان أراك مكتئبا حزينا ! قال : نعم يا ابن عم رسول الله، لفلان علي حق ولاء، وحرمة صاحب هذا القبر ما أقدر عليه. قال ابن عباس : أفلا أكلمه فيك ؟ فقال : إن أحببت، قال : فانتعل ابن عباس ثم خرج من المسجد، فقال له الرجل : أنسيت ما كنت فيه ؟ قال : لا، ولكني سمعت صاحب هذا القبر ﷺ، والعهد به قريب - فدمعت عيناه - وهو يقول : «من مشى في حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيرا لـه من اعتكاف عشر سنين، ومن اعتكف يوما ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاث خنادق أبعد مما بين الخافقين» (طرفا السماء والأرض، وقيل المغرب والمشرق).

3 - فما الطريق إلى العمل بهذه الشفاعة حسنة في الدنيا ؟ وما السبيل إلى الفوز بها من صاحبها يوم نكون أحوج إليها وأفقر في الآخرة ؟

لقد علمنا صاحب الشفاعة عليه الصلاة والسلام أن من أهم ما نهتم به :

□ أن نتفكر في عواقب الركون إلى الدنيا، فنأخذ لأنفسنا جانب الحذر من شهواتها وأهوائها، ونحتاط لها من مزالقها وعثراتها.. وليس من سبيل إلى ذلك إلا الشفاعة الحسنة التي تخنق في نفوسنا رذائل الأثرة، وتحيي فيها وتنمي فضائل الإيثار.. وأن يعلم المؤمن أن من أسباب وقايته نفسه شحها الصدقة الصادقة بأنواعها.. ومن أنواعها صدقة اللسان الصادقة التي من نتائجها فك الأسير وتحريره - وما أغلى الحرية ! - وتحقن الدماء - وما أفدح ما يدفعه الساعي لحقن الدماء من ثمن ! - ويجربها المعروف إلى الإخوان - وما أمر ما يعانيه من نفسه الأمارة جار المعروف إلى الإخوان ! وأمر منه انتظار الامتنان من أولئك الإخوان إذا كانوا غير «إخوان» ! أو لا يحسنون التعبير عن ذلك الامتنان ! - وتدفع بها الكريهة - ووسائل دفع الكريهة من مر الدواء الذي يكره عليه المرضى في غالب الأحيان، فيلقى منهم الطبيب المعالج العنت ! -

□ أن نوقن بطول الطريق إلى تلك الشفاعة الأخرى وصعوبتها، فنحسن الاستعداد والتأهب للسفر إليها.. سفرا لا أمل بعده في عودة.. سفرا للقاء الله.. سفر من يؤمن ويوقن ويعمل على ألا ينسى.. لأن إيمانه رسخ في قلبه وعمل على تحقيقه بعمل يصدقه، بالشفاعة الحسنة في الدنيا بين الناس.. شفاعة من يستغل كل مواهبه ليرى رؤية الحق عاقبة الاثم فلا يغشاه، ويخشى الله وحده لأنه أحق أن يخشاه.. فينصر المظلوم، ويقمع الظالم ويغيث المكروب، ولا يكلف في كل هذا إلا وسعه.. حتى لا يزيد في عداد المظلومين المكروبين نفسه.. ويزيد من أراد قمعه من الظالمين عتوا وعنجهية...

□ أن نغلب أنفسنا فيما هو حق متيقن، حتى لا تغلبنا فيما هو ظن غير متيقن وذلك بأن تكون عبوديتنا لخالقنا وحده، وحقيقة هذه العبودية أن نجعل نصب أعيننا تحقيق هذه الآية الكريمة : ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما**﴾ وهذا التحكيم الذي هو شرط الإيمان، والمشروط هو أيضا بالرضا والتسليم المطلق لا ينبغي أن تتخلله شفاعة.. اللهم إلا الشفاعة الحسنة التي لا تفسد ذمة ولا تهضم حقا لصاحبه، أو تعين ظالما على التمادي في ظلمه.. وإلا فإنها تعد على حدود الله.. ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه، ويحرم شفاعة صاحب الشفاعة في يوم يكون أحوج ما يكون إليها...

فإذا كان هذا ما علمنا إياه صاحب الشفاعة والداعي إليها حسنة، عليه صلاة الله وسلامه، فماذا يجب علينا نحوه ؟

إنه الحب.. الحب الكبير لهذا الرسول الكريم والنبي الأمين.. الحب الذي يفعم القلب ويفيض على الجوارح.. الحب الذي منه ينبثق حب المؤمنين لبعضهم.. وينبثق هو

من الحب لله جل جلاله.. لأننا مؤمنون.. والمؤمنون أشد حبا لله.. وهذا الحب لله ورسوله هو منا شفاعة حسنة في دنيانا نتوسل بها لنيل الشفاعة العظمى في أخرانا :

«عن أنس رضي الله عنه أن رجلا سأل رسول الله ﷺ : متى الساعة ؟ قال : وما أعددت لها قال : لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله. قال : أنت مع من أحببت. قال أنس : فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ : أنت مع من أحببت، قال أنس : فأنا أحب النبي ﷺ، وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم».

إن أوثق عرى الإسلام بين الناس هي الشفاعة الحسنة بينهم في الدنيا، على أن تقوم على أساس متين من الحب في الله والبغض في الله، ليستكمل المؤمن إيمانه ويحققه، وهذا الحب هو عدة المؤمنين للقاء ربهم في يوم تشخص فيه الأبصار.. ويرجون فيه الشفاعة من صاحبها.. هذا الحب يجعل كل مؤمن نقي السريرة، يقظ القلب، صافي الروح، وثيق الصلة بربه، لسانه رطب بذكر الله، والصلاة والسلام على رسوله.. كل أعماله شفاعة حسنة خالصة لوجه الله، يعمل لدنياه، وفي نفس الوقت هو دائم الاستعداد للرحيل، يتزود خير الزاد لآخرته.. وما أعظم زاد المؤمن لآخرته حين يكون هذا الزاد هو الشفاعة الحسنة محبة لله ورسوله وطاعة لهما..

ومحبة الله هي الاحتكام إلى شرعه، وإفراده سبحانه بالعبادة.. منه نستمد الأوامر والنواهي، فهو المهيمن على الوجود.. وهو الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وحب رسول الله هو أن نجعل منه أسوتنا وقدوتنا في كل أحوالنا وأحياننا، منه نستمد منهاج حياتنا، ومنه نقتبس نوره ربنا، ومن سيرته نتعلم الصبر والفداء والتضحية والإيثار والزهد.. وإلى سنته نرجع في كل ما يشجر بيننا من صغيرة وكبيرة.. ومن إيمانه عليه الصلاة والسلام نتعلم الحب في الله والبغض في الله وسيلة إلى الشفاعة الحسنة التي هي وسيلة الشفاعة العظمى يوم الهول... وذلك مصداق الآية الكريمة : ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله...**﴾.

إن كل فرد من أمة الإسلام يعلم ـ أو يجب أن يعلم ـ أن الحب لله تعالى ولرسوله فرض أكيد، وهو شرط من شروط الإيمان.. وحقيقة هذا الحب أن يفيض نوره على المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها شفاعة حسنة فيما بينهم، فيكون لهم منها قوة.. ويكون لهم منها اجتماع شمل.. ويكون لهم منها رفعة..

4 ـ وهل من الحب لرسول الله أن ننتظر عيد مولده يعود علينا كل سنة ليذكرنا به !؟ نحن لم ننس ولن ننسى في أي لحظة من حياتنا رسول الله.. لأننا تذكرنا به نداءات المؤذنين على قمم المآذن.. تذكرنا به الصلوات المفروضة والمسنونة والنافلة.. تذكرنا به أسماؤنا التي نتسمى بها ونعرف بين الناس.. تذكرنا به رسائلنا.. تذكرنا به أسماؤنا التي نتسمى بها ونعرف بين الناس.. تذكرنا به رسائلنا.. تذكرنا به خطبنا.. تذكرنا به مواقفنا وأعمالنا.. نتذكره فيما نطيع الله ونطيعه به من أعمال نأتيها أو ندعها طائعين أو مكرهين.. فنفرح ونستبشر نتذكره فيما نعصي الله ونعصيه به من أمور نأتيها أو ندعها مجبرين أو مريدين فنندم ونستغفر.. رسول الله ﷺ طبع حياتنا جميعا أفرادا وجماعات، شعوبا وقبائل بطابعه النبيل.. فهو معنا بتوجيهه، وهو معنا بتأديبه..

وهو معنا ومنا وفينا بوحيه الكريم الذي جاءنا به صادقا مصدوقا من رب العزة جل وعلا.. إنه معنا ومنا وفينا بكل إنسانيته السامية العالية في كل دقائق أمور حياتنا وجلائلها.. علمنا كيف نأكل وكيف ننام وكيف نعاشر الأزواج...

إن رسول الله منا كبشر، وهو أعظم البشر.. منا كمسلمين وهو إمام كل مسلم.. منا كعرب وهو أكرم

العرب.. بعثه الله في الأميين وهو منهم يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبله لفي ضلال مبين... بعثه الله إلى العرب وهو في الذؤابة من أنسابهم وأحسابهم... بعثه الله كإنسان من الناس إلى كافة الناس وهو فيهم جميعا خيار من خيار من خيار.. إنسان كريم هو رحمة الله المهداة إلى البشرية جمعاء يكره العنت والمشقة ـ أحمرها وأسودها ـ وكل مكروه وأذى من أمور الدنيا والآخرة.. يكره لها شفاعة السوء في الدنيا.. وعذاب الهون في الآخرة.. فلا يردد لسانه وقلبه في ذلك اليوم إلا : «أمتي يا رب.. أمتي يا رب».. ألم أقل منذ البداية : إن حياته كانت ولازالت لنا خيرا.. وأن مماته سيكون لنا إن شاء الله خيرا حين نلقى الله فيكون لنا شفيعا مشفعا ؟

الرباط : عبد الله اكديرة



في مولد الرسول صلى الله عليه وسلم

للأستاذ محمد بخات

من واجب كل مسلم ـ وهو يحتفل بذكر مولد الرسول الأعظم من كل سنة ـ أن يعتقد عن فهم في كل تعاليم رسول الله، ويؤمن بصدق بكل مبادئ الإسلام، ويعي حكمة بعثة رسول الله، ويقدر نعمة الإسلام الرحيمة.

وعلى هذا المسلم أن يفهم بأنه لما بلغ الإنسان الرشد العقلي والنضج الفكري كان الإبان المناسب قد حان لبعثة رسول الله بديانة الإسلام تقديرا لهذا الإنسان ورحمة به وهداية له في هذا الوجود، ولذلك كان سيدنا محمد ﷺ المبعوث العالمي بالدين العالمي :

﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾ (سورة سبأ، آية : 28).

﴿قل : يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا﴾ (سورة الأعراف، آية : 158).

﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ (سورة القلم، آية : 52).

﴿...وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون﴾[1].

ولقد كان هذا الرسول العظيم، المحبوب عند الله، رحمة مهداة إلى كل الناس لكي يتحقق وضعهم الملائم في هذه الأرض، ويسعد وجودهم الضروري في هذه الحياة بواسطة ديانة قائمة على أسس مفيدة للناس، مرتكزة على قواعد رحيمة بكل البشر، مشتملة على تقنينات هادفة لخير البشر محتوية على تعليمات معقولة يقبلها العقل القويم ويقرها ذو البصيرة المستقيمة.

وإذا كانت هذه الديانة عالمية، مقبولة عند الناس، ضرورية لما تتميز به من أصالة، وخيرية، وحيوية، وصلاحية، فإن هذه الصفات والمميزات التي لها إنما تجعلها تنطبق على ديانة الإسلام، فهي التي قصدها وأشار إليها الفيلسوف «كانط» بهذه القولة : «الديانة الحق الوحيدة هي التي لا تحتوي إلا على قوانين، أعني قواعد صالحة للجري عليها، نشعر من ذاتنا بضرورتها المطلقة...»[2].

والنتيجة التي تفرض نفسها وتحتم على كل إنسان أن يقتنع بها، ونقصد إنسان الإيمان بالله، بدين الحق،

1) رواه مسلم.
2) كتاب (الدين العالمي) للشيخ عطية صقر، ص : 24 من سلسلة مجمع البحوث الإسلامية، الكتاب (11) نقلا عن مجلة (الأزهر)، المجلد (10) ص : 294.

بالحقيقة الكبرى حقيقة هذا الدين، بالأمانة الفضلى التي تناط بكل مسلم، بالمسؤولية العظمى التي تتعلق بكل مؤمن بهذا الإسلام المتمثلة في الحياة به والدعوة له حتى يعد من المحبوبين عند الله المؤمنين بالرسول المحبوب عند رب الناس : «الأنبياء لأممهم عطية، ونبينا ﷺ لنا هدية، وفرق بين الهدية والعطية : الهدية للمحبوبين والعطية للمحتاجين»[3].

وبموجب هذه النظرة الحكيمة، الواعية لرسالة رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يكون لزاما بل حتميا، الاعتقاد بأن دين الله سلعة غالية يجب أداء ثمنها، وهذا الأداء ينسحب على الاعتصام بالله وبدينه، ولا يمكن تحققهما إلا لمن يهتم بشخصية الرسول عن طريق الاحتفال الحقيقي بمولده الميمون.

وهذا الاحتفال الواقعي يجب أن يتجسم في واقع المسلم على الدوام، لا أن يتمثل فقط في شهر ربيع الأول في ساعات من يوم مشهور ثم ينتهي كل مظهر للاحتفال وكأن شيئا لم يكن، وكأن مسلما لم يحتفل، فمشاهد الاحتفال بالمولد المحمدي في أي بلد إسلامي لا تدل على حقيقة الحب لهذا الرسول ولا على حقيقة التمسك بهذا الدين ولا تبرهن على إرادة التغيير الصحيح ولا تؤكد على أحقية العودة لمبادئ الإسلام قصد العمل به بإخلاص.

ان انعدام الاحتفال الحقيقي يحدث ويتكرر في هذا الشهر من كل عام، النظرة للمولد النبوي لم تتغير والاحتفال به صوري يتم بالرتابة والسذاجة واللا وعي واللا مبالاة، فلا يتحقق جديد في عالم المسلم فأمسه الماضي كيومه الحاضر كغده المقبل وهكذا مع شديد الأسف وعظيم الامتعاض لا جدية ولا جدة في محيط المسلم، فهو في ذهول مستمر عن واقعه الأليم وفي غفلة مستديمة عن دينه المهمل.

ان الاحتفال الذي اشتهر عند الناس بالشكل المعروف يجب أن يفهم بأنه تذكير بهذا اليوم، وتدليل على ضرورة القيام بالاحتفال الحقيقي الذي يدوم في حياة المسلم، فكل آونة تمضي على المسلم خلال حياته الدنيوية يجب أن يطيع الله فيها، ويجب ألا ينسى فيها هذا الرسول العظيم بالاقتداء والاهتداء بتعاليمه ويجب أن يحمد الله على نعمة الإسلام قولا وعملا، فلولا رسول الله محمد ﷺ لما كان هذا الدين المهيمن، وعن طريق هذا الإسلام يكون هذا المسلم الرابح لا الخاسر :

﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ (سورة آل عمران، آية : 85).

ان واقعة المولد النبوي تحث كل مسلم ليكون ذا شخصية قوية الإرادة واعية لأدوارها في الحياة، ولابد لهذا الوعي من أن يتحقق بالإيمان القوي، بالتكوين المتقن، بالعلم الصحيح، بالسلاح الفكري، فبهذه الشروط الأربعة الإيجابية يتكون المسلم الرائد الذي يستطيع الصمود في وجه التحديات الخطيرة التي تعترض دينه وتوجه عن قصد له.

وما أحوج الإسلام في هذا العصر إلى هذا النوع من المسلم الذي لا يضيع في خضم الحضارة الغربية المتفننة والمفتنة، هذا المسلم القوي، المتحرك في كل ميدان، الصامد لكل باطل، المجابه لكل جاهلية، المؤكد لأعداء الإسلام بشخصيته الفذة، الحركية الجاهدة، المجاهدة بأنه هو الإنسان المفروض الوجود في عصر المتناقضات الغربية، والاعتقادات الفاسدة، والمعارف المتنوعة والعلوم المختلفة التي تهدم أكثر مما تبني، وتضل أكثر مما تهدي، وتحير أكثر ما تطمئن، وتشقي أكثر مما تسعد.

---

3) عن كتاب (حكم بن عطاء الله) شرح أحمد زروق، ص : 394، 395.

وإذا كانت هذه هي مميزات حضارة الغرب فأكثرها باطل، وبما أن أهلها أهل الباطل ويعتزون بباطلهم ويدعون إليه بكل الوسائل فالأولى لأهل الحق أن يعتزوا بعقيدتهم ويدعوا إلى الحق، يواجهوا جاهليات القرن العشرين ودعاتها وعملاءها وعبيدها بكل سلاح ممكن وبكل وسيلة ممكنة لتركيز دعائم الدين الحق في هذه الأرض يدفعهم مبدأ العقيدة الصحيحة : **﴿...لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾** (سورة الشورى، آية : 15).

فمبدأ العقيدة الصحيحة خير ضمانة لإنتاج الحضارة الصحيحة التي تستهدف خير الإنسان وإسعاد الإنسان في كل ابتكار أو إنتاج لأن شعار صانعيها إيمان بالله وطاعة لله في ظلال دينه الصحيح. وقد أفلست حضارة الغرب بسبب غياب عنصري الإيمان والطاعة مفتاحي الأمن والأمان لهذا الإنسان، ويعود إفلاس الحضارة الغربية إلى كون صانعها الإنسان لا يعرف حقيقة الإيمان بالله ولا يطيعه فيما يرضيه، وأنى له ذلك، وهيهات، هيهات.

☆ ☆ ☆

ان الدور المنتظر بل المفروض على إنسان الإسلام هو في إنتاج حضارة الحق القاضية على (حضارة) الباطل، ولكن كيف يمكن تحقيق هذه الحضارة الصحيحة حضارة الإسلام من جديد.

إنها لكي يتحقق بعثها لابد من تكوين المسلم المخلص المعتمد على ربه الواثق من نفسه الذي يكون الداعية للحق في ميدان الأرض، الذي يفعل المستحيل لسيادة مبدأ الحق كما يفعل أهل الباطل المستحيل لنشر مبدأ الباطل.

ان الإسلام في حاجة ملحة إلى هذا المسلم الذي يعلم ويتيقن بأن أهل الخير إن لم يمثلوا أدوار الهداة إلى الخير، وإن لم يقوموا بأدوارهم الدائمة على مسارح الحياة العلمية المنقذة للناس من شرور وأضرار الجاهلية قام أهل الشر بهذه الأدوار لملء الفراغ ولكن في مجال التضليل والافساد حيث كل الفرص مواتية لهم وكل الامكانيات الضرورية دونهم، وهذا خطر عظيم وشر مستطير ينذران بشقاء مستمر للإنسانية.

هذه الإنسانية التي تعاني من أخطار الجاهلية الحالية، ومن انحرافات الحضارة الحديثة، ومن التخطيطات العملية للصهيونية العالمية التي تستهدف استعباد الناس وإذلالهم وأضعافهم لكي يسود اليهود تحقيقا وتأكيدا لفكرة وعقيدة (شعب الله المختار)[4] اللتين يعبدونهما ويقدسونهما ولا يتحولون عنهما مذ عرفوا وعاشوا بين الناس.

هذه الإنسانية التي تكابد من عقم وشر الإيديولوجيات المخربة لمجتمعات الناس المفسدة لهم عموما من حيث النفسيات والعقول والسير، الهادفة لعبادة المادة والنفس، العاملة بمبادئ الجاهلية.

هذه الإنسانية المعذبة التي قاست ومازالت تقاسي من الويلات والمشاكل التي لا حلول لها إلا في ظلال دين الله الحق وبواسطة انتهاج طريق الله المنجي، المستقيم الذي لا يزيغ عنه الا هالك ولا يحيد عنه إلا كافر بالله عبد للشيطان.

ومما يزيد الطين بلة والخطب جسامة أن المسلمين غفلوا عن مهامهم بل تغافلوا عن واجباتهم المتعلقة بهم ونحو دينهم فانسحبوا من ميدان العمل القيادي المعترك الحياتي مما أفسح المجال لأعدائهم الذين تفننوا في تحقيق ما يريدون، وحققوا مالم يكن على بال، ومازالوا يواصلون العمل لتحقيق ما يطمحون إليه. فهل يفيق المسلم من سباته العميق ؟ وهل يعي هذه الحقيقة المرة التي يعمل لها أعداؤه ؟ وهل يفطن لما يدبر ضده ؟.

وهل سيكتشف المؤامرات التي تحاك باتقان للقضاء على دينه ؟ وما هو موقفه من دينه ؟ وما هو رد فعله على

4) هذه العقيدة جعلت يهود يؤمنون بأنهم السادة وغيرهم العبيد، أو غيرهم الحمير وهم البشر.

هذه القولة الخبيثة (لابن غوريون) الخبيث : «إن اليهود سيساهمون في إتمام الرسالة التي لم يكن عند الله وقت لإتمامها»[5].

﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾ (سورة الصافات، آية : 180).

فيا أهل الإسلام فكروا في هذا التحدي الكبير الذي يؤدي إلى التردي الرهيب، برهنوا على إسلامكم لتنقذوا أنفسكم ويبقى وجود لكم قبل أن تندموا فلا ينفعكم ندم وتبكوا فلا يجديكم بكاء.

سؤال يحيرني ويؤلمني ويقض مضجعي ويهز كياني، سؤال أتأسف لإلقائه لأني لن أجد الاهتمام، سؤال أعرف الجواب عليه ولا أرى صدى له، سؤال معروف المقدمة والنتيجة وهو : هل درى المسلم بأنه يعد من أهل الحق ؟ وهل يؤمن عن صدق بدين الحق ؟ وما هو قوله في تجسيم القرآن لحقيقة الإيمان وقيمة الإيمان واستعلاء الإيمان ومفعول الإيمان ؟ ﴿...ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ (سورة آل عمران، آية : 139) وهل جاهد هذا المسلم في سبيل الله واجتهد لدين الله ودعا إلى الحق كما يدعو أهل الباطل ويجتهد أهل الشر حتى يستحق نصر الله له ليكون من أهل الآية الكريمة : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم﴾ (سورة محمد، آية : 7). وهل وعى هذا المسلم بأنه ملزم بالاعتداد بمبدأ الحق ومكلف بالاعتزاز بعقيدة الحق بدون خجل أو احجام، بل بفخر وصراحة.

ان على هذا المسلم أن يعتز بصراحة بحقيقة انتسابه لعقيدة الحق دائما، فهو خليق بذلك عمليا بما أن صاحب الباطل يعتز بصراحة بحقيقة انتسابه العملي لعقيدة الباطل.

ان الافتخار الحقيقي بالإسلام إنما يكون بواسطة التطبيق الكلي له على الصعيد الحياتي فهو التصرف الإيماني المطلوب منه، المفروض عليه، المقبول منه إن كان يعتقد في قول ربه :

﴿...اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا...﴾ (سورة المائدة، آية : 3).

انها أسئلة كثيرة ومتنوعة إلا أن الهدف منها واحد فهي إذن سؤال واحد، ولعل الإفادة تحصل من لقائه، ورجاؤنا في الله عظيم فهو الهادي إلى الدين الحق، وحسبنا سبحانه فهو نعم الوكيل وخير نصير لنا لما نتوجه إليه بإخلاص ونتمسك بحبله بصدق ونعتصم به بصمود.

وأعود لأقول ما وجه الغرابة في الإلحاح في الدعوة إلى التمسك بدين الحق ؟ وأجيب بأنه لا غرابة ولا مغالاة فيما ندعو إليه وننبه إليه إذا كان اتباع الديانات المحرفة والوضعية يعتزون بها ويعملون بها ويتمسكون بها، فالبوذي يعتز بعقيدته فيعمل بها ويدعو إليها ويموت من أجلها، والهندوسي يعتز بعقيدته فيعمل بها ويدعو إليها ويموت من أجلها، والشيوعي يعتز بعقيدته فيعمل بها ويدعو إليها ويموت من أجلها، واليهودي يعتز بعقيدته فيعمل بها ويدعو إليها ويموت من أجلها، والمسيحي يعتبر بعقيدته فيعمل بها ويدعو إليها ويموت من أجلها وكل صاحب مذهب جاهلي يسير في هذا النهج لصالح معتقده.

فماذا ينتظر المسلم، وما الذي يمنعه من العودة لدينه والعمل به، من الاعتزاز به، من الدعوة له، من الموت في سبيله ؟

فهل سيقف موقف المتفرج على أعدائه العاملين ضده ؟ أو هل سيقف موقف المشدوه المغلوب على أمره ؟ أو هل سيكتفي بالحوقلة والاسترجاع أو هل يميل فقط للاستكانة والاعتراف بالواقع المر ؟ أم هل يترك أعداءه يعملون بكل حرية ضد وجوده رغم أن القرآن يحتج عليه ويفضحه ؟

---

5) عن صحيفة (المجتمع) الكويتية، العدد : 49، ص : 10.

﴿وقل : اعملوا فسيرى الله عملكم...﴾ (سورة التوبة، آية : 105).

ورغم أن القرآن يلح عليه في الدعوة لدين الحق :

﴿ادع إلى سبيل ربك...﴾ (سورة النحل، آية : 125).

ورغم أن القرآن يؤكد له بأن يعيش مسلما ويموت مسلما :

﴿...ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون...﴾ (سورة آل عمران، آية : 102).

الرباط : محمد بخات



قصيدة المديح في العصر المريني



(القسم الأول)

عرف العصر المريني كما هو معلوم، حركة ثقافية واسعة[1]، طبعت هذا العصر بسمات خاصة، وجعلت منه مرحلة متميزة من مراحل الثقافة المغربية، لاشك أنها تركت آثارها واضحة على ما تلاها من حقب ومراحل.

ولقد كان الشعر، باعتباره وجها من وجوه هذه الثقافة، ميدانا كثر رواده ومبدعوه، لم يقتصروا فيه على الموضوعات الرسمية التقليدية، بقدر ما وظفوه لجزئيات حياتهم اليومية، وتوسلوا به في التعبير عن صغائر الأمور وتوافهها[2]، مما يدل على أنه كان بضاعة نافقة في سوق الإبداع لهذه المرحلة، خاصة وأن هناك عوامل كثيرة ساهمت في هذا النفاق، وأبرزها مساهمة رجال البيت الحاكم في هذا المجال من جهة، وكذلك تشجيعهم لرجاله وذويه من جهة أخرى. ولعل هذه المساهمة، هي التي حملت أحد مؤرخيهم، وهو أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر، على أن يخصص جزءا من كتابه «نثير الجمان» لمجموعة من الأشعار التي صدرت عن بعض السلاطين أو الأمراء المرينيين[3].

فلقد كانت هذه المساهمة وذلك التشجيع عاملا بارزا يضاف إلى غيره من عوامل إثراء الساحة الشعرية في العصر المريني، شجع شعراء المرحلة على التعامل مع الشعر في أغراضه المختلفة، ومن بينها موضوع المديح الذي يعد من أظهر الموضوعات الشعرية المطروقة، سواء على الصعيد العربي بوجه عام، أو على الصعيد المغربي بوجه أخص.

ولعلنا إذا استقرأنا قصائد هذا الموضوع في الشعر المريني، وجدناها ـ من حيث الممدوح ـ تشكل اتجاهين اثنين، لكل منهما دوافعه وخصائصه، وهما : **المديح النبوي** من جهة، **ثم المديح السياسي** من جهة ثانية.

☆ ☆ ☆

1) المديح النبوي :

وهو لون من المدح ارتبط في العصر المريني بمناسبتين اثنتين :

---

1) انظر كتاب الحياة الفكرية المغربية في عهد المرينيين والوطاسيين.

2) انظر مثلا قصيدة لمالك بن المرحل نظم فيها صداقا، وردت في جذوة الاقتباس 2/330 ـ 333 مطلعها :

الحمد لله شكراً بأن في البشر   ودار في النسل من أنثى وذكر

3) نثير الجمان ص 67 ـ 73.

أ ـ الاحتفال بعيد المولد النبوي الذي أصبح في هذا العصر ـ وخاصة مع بني العزفي أمراء سبتة ـ مناسبة تنشد فيها قصائد الأمداح النبوية، أو ما يعرف بالمولديات، ويتنافس الشعراء خلالها في إظهار تعلقهم بالرسول الكريم، والدعوة إلى مزيد العناية بذكرى مولده الشريف، كما جاء على لسان مالك بن المرحل :

فحق لنا أن نعتني بولاده
ونجعل ذاك اليوم خير المواسم
وأن نصل الأرحام فيه تقربا
ونغدو له من مفطرين وصائم[4]

ولعلها عناية لم يكتف ابن المرحل بالدعوة إليها فقط، بل كرس لها حظا وافرا من قريحته تمخض عن «الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والأخرى» و«المعشرات النبوية» وهي كلها قصائد أبدعها الشاعر في مدح الرسول ﷺ والإشادة بسيرته وأعماله.

ب ـ المدح النبوي عموما، دون التقيد بمناسبة المولد الشريف، وهو مسلك لا شك أن الشعراء المرينيين قد أرادوه استمرارا لما أبدعه أسلافهم في هذا المجال، بدءا من القاضي عياض في العصر المرابطي وميمون بن خبازة في العصر الموحدي من شعراء المغرب، وكذلك شعراء المشرق الذين اهتموا بهذا الموضوع اهتماما معروفا.

وإلى هذا فقد ارتبطت الأمداح النبوية في العصر المريني بمضامين متعددة يمكن تلخيصها فيما يلي :

1 ـ مدح الرسول ﷺ وتعداد مناقبه وسيرته، وفي هذا يقول مالك بن المرحل من قصيدة :

إمام جميع المسلمين محمد
وأكرم مبعوث من الكرماء
أمان الورى مما يخافون حبه
فياحب شعشع أدمعي بدماء[5]

2 ـ استعراض المعجزات النبوية كما نقرأ في إحدى نبويات إبراهيم التازي :

فالبدر شق له المولى، وظلله
بالمزن، والبكر قال الحمل أعياني
والضب جاوبه، والظبي خاطبه
والجذع حن حنين العاشق العاني
والشمس ردت وأشجار الفلاة أتت
تسعى وترفل في أثواب إذعان
كذا الحصى سبحت في كفه علنا
لم يختلف فيه من أصحابه إثنان[6]

فقد أشار الشاعر في هذه الأبيات إلى بعض معجزات الرسول ﷺ، وهي على التوالي :

- انشقاق البدر : فقد سأله ﷺ أهل مكة آية ليصدقوه فانشق القمر حتى رأوا جبل حراء بين طرفيه[7].
- تظليل الغمامة : فقد روي أن حليمة مرضعة الرسول ﷺ رأت غمامة تظلله وهو عندها[8].
- نطق الحيوان : وقد كان ذلك في مناسبات متعددة، حيث كانت الحيوانات تنطق بين يديه ﷺ كالجمل والضب وغيرهما مما هو مثبت في كتب السيرة[9].
- حنين الجذع : فقد كان الرسول ﷺ يخطب إلى جذع كان يستند إليه، فلما اتخذ منبرا تحول عن الجذع إليه، فحن إليه الجذع حتى ضمه إليه فسكن[10].
- عودة الشمس : ففي حديث أسماء بنت عميس أن النبي ﷺ كان يوحى إليه ورأسه في حجر علي كرم الله وجهه، فلم يصل العصر، حتى غربت الشمس، فقال رسول الله ﷺ : أصليت يا علي ؟ قال : لا، فقال : اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسوله، فاردد عليه الشمس، قالت أسماء : فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعدما غربت، ووقفت على الجبال والأرض، وذلك بالصهباء في خيبر[11].

4) ذكريات مشاهير رجال المغرب : مالك بن المرحل، عدد 8 ص 22.
5) مشاهير رجال المغرب عدد 8 ص 19.
6) الوافي بالأدب العربي ج 2 ص 591.
7) الشفا ج 1 ص 543.
8) الشفا ج 1.
9) الشفا ج 1 ص 594.
10) الشفا ج 1 ص 581.
11) الشفا ج 1 ص 548.

• سير الشجرة : وذلك حين سأل أحد الأعراب الرسول ﷺ أن يريه آية لتصديقه، فدعا شجرة للسلام عليه، فدعاها فأقبلت فقالت : السلام عليك يا رسول الله، ثم أمرها أن ترجع إلى منبتها فرجعت[12].

• تسبيح الحصى : فقد وقع ذلك عندما أتى مكرز العامري رسول الله ﷺ فقال : هل عندك من برهان نعرف به أنك رسول الله، فدعا بتسع حصيات فسبحن في يده، فسمع نغماتها من جوفها[13].

3 - وصف النعل النبوية الشريفة كما نقرأ في شعر ابن المرحل :

وممـا دعـاني والـدواعي كثيرة
إلى الشوق أن الشوق مما أكاتمه
مثـال لنعلي من أحب حنويته
فهـا أنـا في يومي وليلي لاثمه
أجر على رأسي ووجهي أديمه
وألثمه طـورا وطـورا ألازمه
صبابة مشتاق ولوعة هائم
نعم أنـا مشتاق الفؤاد وهائمه
كأن مثال النعل محراب مسجد
فوجهي فيه شاخص الطرف دائمه
أمثلـه في رجـل أكرم من مشى
فتبصره عيني ومـا أنـا حالمه
أصك بـه خدي وأحسب وقعه
على وجنتي خطوا هنـاك يلازمه
ومن لي بـوقع النعل في حر وجنتي
لماش علت فوق النجوم براجمه
تفيض دموعي كلمـا لاح نوره
يكابد ذا البرق الذي أنت شائمه[14]

4 - التشوق إلى الديار المقدسة عامة وقبر الرسول ﷺ خاصة، كما نجد في إحدى نبويات أحمد بن محمد بن أبي الشرف الحسني حيث يقول :

خليلي مـا قصدي العقيق ولا الحمى
ولا الغور من شاني ولا مطلبي نجد
ولا لي في ليلى ولبنى لبـانة
ولا من هـوى نفسي سليمى ولا هند
ولكن قصـدي من بيثرب لحده
فبورك مـاضم الهدى ذلك اللحد[15]

وكما نجد في شعر ابن المرحل إذ يتشوق إلى هذا القبر ويبعث إليه بسلامه :

أمـالي إلى قبر الرسـول مبلغ
سلامـا فقد أفنى الزمان ذمائي
أمـاني كـانت لي زيـارة قبره
وأرضي روض يـانـع وسمائي[16]

5 - التوسل به ﷺ واستمناح شفاعته يوم الحشر والجزاء، ونمثل لهذا بأبيات من قصيدة لإبراهيم التازي يقول فيها :

يـا رحمة الله إني خائف وجل
يـا نعمة الله إني مفلس عان
وليس لي عمـل ألقى العليم به
سوى محبته العظمى وإيماني
فكن أمـاني من شر الحيـاة ومن
شر الممـات ومن إحراق جثماني
وكن غنـاي الـذي مـا بعده فلس
وكن فكـاكي من أغلال عصياني[17]

6 - مدح آل البيت النبوي والتغني بحبهم والرغبة في شفاعتهم كما جاء على لسان أبي القاسم العز في إذ يقول :

ذريـة المصطفى إني أحبكم
وحبكم واجب في الـدين مفترض
فليس يبغضكم، لا كـان بـاغضكم،
إلا امرؤ مـارق في قلبه مرض

12) الشفا ج 1 ص 573.
13) الشفا ج 1 ص 588.
14) ذكريات مشاهير رجال المغرب، عدد 8 ص 20.
15) أعلام المغرب العربي، ج 4 ص 303.
16) ذكريات مشاهير رجال المغرب، عدد 8 ص 18.
17) الوافي بالأدب العربي ج 2 ص 592.

وحسبكم شرفـــا في الـــدهر أنكم

خير البريـــة هـــذا ليس يعترض

ولست أطلب من حبي لكم ثمنـــا

إلا الشفـاعـة فهي السؤل والغرض[18]

وانطلاقا من هذه المضامين مجتمعة، نلاحظ أن بناء قصيدة المديح النبوي في العصر المريني، كان يقوم - من الناحية الهندسية - على نمط متشابه يكاد يكون النمط المتبع لدى معظم شعراء هذا اللون. ولعلنا نكتفي بالتمثيل على هذا البناء الهندسي بمولدية للشاعر أحمد بن سعيد بن القراق التجيبي، نظمها في عهد السلطان المريني أبي عنان[19]، فقد جاء في مطلعها :

بشرى الهدى بطلوع اليمن حين بدا

في ليلة خير مبعوث بها ولدا

محمد المصطفى الميمون طائره

أزرى سناه بنور الشمس متقدا

لله مولده إذ قد أتى بهدى

للإنس والجن إذ نالوا به رشدا

عم السرور به الدنيا وحق لها

إذ شرفت بنبي بالهدى وردا

محا به الله أظلام الظلام كما

أفاض منه على الآفاق نور هدى

والملاحظ أن الشاعر لم يستهل قصيدته بالمقدمة الغزلية التي اعتمدها شعراء المديح النبوي في المشرق منذ استهل كعب بن زهير لاميته في مدح الرسول ﷺ بقوله :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

متيم إثرها لم يفد مكبول[20]

وإنما دخل الموضوع مباشرة أسوة بأسلافه من الشعراء المغاربة الذين لم يكونوا يتقيدون بهذه المقدمة الغزلية التقليدية من أمثال القاضي عياض الذي نشير إلى مطلع إحدى نبوياته إذ يقول :

هذا الذي وخذت شوقا له الإبل

هذا الحبيب الذي ما منه لي بدل[21]

وأمثال ميمون بن خبازة الذي افتتح مدحه للرسول ﷺ بقوله :

حقيق علينا أن نجيب المعاليا

ونفني في مدح الحبيب المعانيا[22]

وإذا كان التجيبي بهذا الاستهلال قد حافظ على نهج أسلافه من المغاربة، فإنه كذلك ساير معظم شعراء العصر المريني الذين التزموا النهج ذاته، من أمثال إبراهيم التازي الذي افتتح إحدى مولدياته بقوله :

روحي وراحة روحي ثم ريحاني

وجنتي من شرور الإنس والجان

ومأمني وأماني من سعير لظى

ذكر المهيمن في سر وإعلان

ومدح أحمد أحمى العالمين حمى

وذو المقام الذي ما قامه ثاني[23]

وإن كنا نجد بين الحين والحين بعض القصائد - وهي قليلة - جاءت افتتاحياتها طللية غزلية، ولكن على مستوى الرمز أكثر مما هي حقيقة كواحدة لعبد الله بن رضوان الخزرجي جاء في أولها :

قف بالديار فهذه أعلامها

يهدى إليك مع النسيم سلامها

وإذا وقفت بها فحي ربوعها

وذر المدامع يستهل غمامها

لتجود هاتيك النجود وتنتمي

تلك التهائم بالدموع سجامها[24]

على أن هذا النهج الشاذ قد تغير في العصر السعدي فيما بعد إذ سنجد فيه أنفسنا أمام شبه التزام بالمقدمة الغزلية، وإن كنا نحملها هي الأخرى على أنها أقرب إلى التعبير الرمزي منها إلى الغزل الحقيقي.

18) أزهار الرياض ج 2 ص 377.
19) انظر القصيدة كاملة في أعلام المغرب العربي ج 4 ص 300 - 301.
20) انظر القصيدة كاملة في ديوان كعب بن زهير، ص 6.
21) القاضي عياض الأديب ص 342.
22) أزهار الرياض ج 2 ص 384 - 392.
23) الوافي بالأدب العربي ج 2 ص 591.
24) نثير الجمان ص 236.

وبالعودة إلى دالية التجيبي، وبعد هذا المطلع، نجد الشاعر ينتقل إلى عنصر ثان هو التنويه بشهر ربيع الأول، الشهر الذي شهد ميلاد الرسول ﷺ إذ يقول :

وراق شهر ربيـــع واكتسى حلـــلا
أنـوارهـا أبـدا تـزهـو بـه جـددا
وهـز أعطـافـه من نخوة طربـا
إذ فـاز بـالعـز والتفضيـل وانفردا
شهر عظيم كريم بـالنبـوة قـد
سـامى الكـواكب في أفـلاكهـا صعـدا
بـالسيـد المجتبى المختـار مضر
من بـالبراهين والآيـات قـد عقـدا

وبعد هذا يستعرض الشاعر فضائل الرسول ﷺ وأمجاده، ويشيد بخصاله ومواقفه، مع الإشارة إلى بعض معجزاته فيقول :

لـولاه مـا طلعت شمس ولا قمر
يـومـا ولا عرف المـولى ولا عبـدا
هـو النبيْ الـذي مـد الغمـام لـه
ظـلا ظليـلا عليـه حيثمـا قصـدا
هـو الشفيـع المرجى من عنـايتـه
يـوم القيـامـة جـاه كـالـذي وعـدا
اللـه فضلـه ثم اصطفـاه على
علم وأرسلـه بشرى رسـول هـدى
فخصـه ليلـة المعراج حين سرى
لحضرة القـدس بـالإدنـاء إذ صعـدا
وشـاهـد الملـك في السبع الطبـاق بهـا
وعـاد يخبر بـالنـور الـذي شهـدا
أعظم بـه من نبي قـد سما وعـلا
أعلى المراتب إجـلالا بهـا اعتهـدا
جلت معـاليـه أن تحصى مفـاخرهـا
إذ كـان أفضـل من صلى ومن سجـدا
جـاءت لـه عن صحيـح ألف معجـزة
قـد صحـح النـاس منهـا المتن والسنـدا
وكم لـه من براهين مبينـة
في كلهـا أحمـد المحمـود قـد حمـدا

وبعد ذلك يتوقف الشاعر عند مناسبة المولد الشريف داعيا للاحتفال به، ومؤكدا على قيمته في حياة المسلمين إذ يقول :

يـا من يحب رسـول اللـه، مـولـده
أسنى المـواسم، فـافرح فيـه مجتهـدا
وكيف لا تـؤثر الأفراح فيـه وقـد
هـدى وألهمنـا التـوفيـق والرشـدا
فـالحمـد للـه إعظـامـا لنعمتـه
إذ بـان طـالعـه في أسعـد وبـدا
أهـلا بمـولـده الأسنى وسـابعـه
ووقت عرسهمـا الميمـون إذ وفـدا

ومن هنا ينتقل الشاعر إلى مدح خليفة الوقت، في ربط وتلاحم بين الموضوعين، وهي السنة التي بدت جديدة في العصر المريني إذ لم نلحظها في الأمداح النبوية التي وصلت عن شعراء المرابطين أو الموحدين،[25] وإنما لمسناها في مولديات المرينيين، وأغلب الظن أنها وليدة الظرف الذي كانت تلقى فيه هذه المولديات، فقد كان الشعراء ينشدون هذه المولديات بين يدي الخلفاء والأمراء الذين كانوا يقيمون احتفالات متنوعة بهذه المناسبة، فكان الشعراء يدمجون بين مدح الرسول ﷺ ومدح الخلفاء المحتفلين بمولده الشريف في ترابط وانسجام بين العصرين كما سبق.

وهما الترابط والانسجام اللذان نلحظهما في قصيدة التجيبي إذ يقول :

أهـلا بمـولـده الاسنى وسـابعـه
ووقت عرسهمـا الميمـون إذ وفـدا

---

25) انظر بحث «المديح النبوي في العصر المرابطي والموحدي».

قـد جـاد فيـه ووفى حقـه ملـك
وبـالقيـام بـه قـد جـد واجتهـدا
ونـاب فيـه بمـا يرجو الثواب بـه
إذا يـؤمـل إحسـان الثـواب غـدا
زين الملـوك أمير المسلمين أبـو
سعيـد بن مليـك عـد في الشهـدا
أفـاض أنعمـه فيـه وألبسـه
بـالاعتنـاء الـذي لا ينقضي بردا
بشراه قـد ظفرت بمنـاه فيـه بمـا
من قـدره عظم المولى لقـد سعـدا
كمـا أقـام ولي العهـد سـابعـه
وعـاد ينحـو بـه منحـاه متحـدا
أعـاد في كـل عـام للسرور بـه
عيـدا وأضفى بـه إحسـانـه رغـدا

ولعل هذه السنة التي ظهرت في العصر المريني قد استمرت فيما تلاه بعد من عصور، لأننا نصادفها في مولديات العصر السعدي كما يدل على ذلك هذا النموذج لعبد العزيز الفشتالي إذ يقول من قصيدة :

يـا مـولـدا وبـه الأيـام قـد عقمت
وهي الـولائـد عقم الأم بـالـولـد
يـا مهرجـانـا تـود الحـور لـو حضرت
مـا دار فيـه بـلا لهـو وغير دد
قـد قـارض اللـه في تعظيمـه ملـك
بر، لـه في سبيـل البر كـل يـد
خير إمـام[26] لـه في كـل جـارحـة
حبـل من الـود مربـوط إلى الخلـد[27]

ولعل هذا المقطع المتعلق بمدح خليفة الوقت، وتعداد مكارمه ومزاياه، يستنفد فيما يبدو أبيات كثيرة من الشاعر المريني، كما نلمس في دالية التجيبي هذه، إذ يواصل مدحه فيها قائلا :

وصـار من حبـه يلقـاه معتنيـا
بكـل فضـل وخير مثلمـا عهـدا
عـوائـد منـه في حـق النبي غـدت
تبقى لـه العـز والأسعـاد مطردا
لكنـه مع هـذا قـام معتـذرا
إلى كمـال خـلال المجـد مستندا
للـه مـا صنـع المـولى أبـو حسن
في سـابع المصطفى المـاحي الـذي ولـدا
حـاز الفخـار بـه والأجر مغتنمـا
يلقـاه بـالرحب في يـوم المعـاد غـدا
أعظم بـه من أمير جـل منصبـه
قـدرا بـه اعتـز دين اللـه واعتضـدا
هـو المبـارك والميمـون غرتـه
والمرتجى نيلـه الهـامي إذا قصـدا
القـائـد الجيش والأقـدار تخـدمـه
والنصر يخـدمـه إن راح أو قعـدا
تكفـل اللـه بـالنصر العـزيـز لـه
وبـالسعـادة نـال الهـدي والرشـدا
لاحت عليـه دلالات الرضى ففـدا
من بر والـده في زمرة السعـدا
وبـالهـدى فـاق أبنـاء الملوك كمـا
شـأهم كرمـا وسـؤددا ونـدا

وأخيراً يختم التجيبي مولديته هذه بالدعاء لخليفة الوقت، ممزوجا هذا الدعاء بالتصلية على صاحب الذكرى محمد ﷺ إذ يقول :

فـاللـه ينصر مـولانـا ويعضـده
حتى ينـال من الآمـال مـا بعـدا
ثم الصلاة على المبعوث سيـدنـا
مـا ضاء بـدر بـأعلى الأفـق حين بـدا

26) يقصد به أحمد المنصور الذهبي.
27) شعر عبد العزيز الفشتالي، ص 317.

وهكذا إذن يتضح البناء الذي كانت تقوم عليه قصيدة المديح النبوي في العصر المريني، وتبدو خطواته ومعالمه، وهو بناء لم يكن محصورا في هذا الإطار الهندسي فحسب، وإنما كان أيضا يتكئ على عناصر أخرى كثيرة من لغة وإيقاع وبلاغة وغيرها، ستعرض لها بعد قليل.

ويكفي أن نذكر في هذا المجال أن معظم شعراء المديح النبوي في هذه الفترة كانوا يركبون البحور ذات النفس الطويل، باعتبارها أوزانا تسعف باحتواء أكبر قدر من المضامين والأفكار، وتتسع لاحتضان ما يجيش بداخل الشاعر من عواطف وأحاسيس، محافظين على وحدة البيت والقافية، الشيء الذي عرف نوعا من التطور والتجديد مع العصر السعدي وما بعده، على غرار مولدية للشاعر الدلائي أبي عبد الله محمد بن محمد المرابط[28] الذي نظمها على شكل رباعية ذات وزن خفيف هو مجزوء الكامل جاء في بدايتها :

بـــــدر الأمــــــاني قـــــد بـــــدا
بربيـــــع مـــــولـــــــد أحمـــــــدا
هــــــذا المشفـــــع من هـــــــدى
ودعـــــــا إلى طرق الرشـــــــاد

☆

يسمـــــو على كـــــل الشهـــــور
مر الليـــــالي والـــــدهـــــور
ولـــــه على الكـــــل الظهـــــور
طرا بـــــأقطـــــار البـــــلاد

☆

مـــــا من نبي قبلنـــــا
إلا وعظم شهرنـــــا
ولقـــــومـــــه نشر الثنـــــا
من مـــــدين وسبـــــا وعـــــاد

أهـــــل السمـــــاوات العلى
ضجـــــوا لطلعـــــة ذي العلي
فرحـــــا وقـــــالـــوا قـــــد عـــــلا
من بره يـــــوم التنـــــاد
فقنـــــابـــــه كـــــل الأضم
فلنـــــا على الكـــــل السمم
ولنـــــا بـــــه حسن الـــــذمم
لا نختشي هـــــول المعـــــاد...[29]

☆ ☆ ☆

ولعل مما يستوقفنا في موضوع الأمداح النبوية في العصر المريني، علاوة على ما تقدم أنها كانت تعرف ألوانا من الصنعة والتأنق، بعضها يأتي واضحا سهل الإدراك منذ الوهلة الأولى، في حين يأتي بعضها الآخر مختفيا وراء مهارة الشاعر، تلك المهارة التي توفر للقصيدة ضروبا من الصنعة والزخرف تساهم في جودتها وسلاستها.

ولا أحد ينكر ما كان عليه الشاعر مالك بن المرحل من شغف بهذه الصنعة في أمداحه النبوية، جعله منساقا معها سواء في «الوسيلة الكبرى، المرجو نفعها في الدنيا والأخرى»، أو في المعشرات الزهدية»، وهو بهذا يمكن إدراجه في الصنف الأول، حيث تبرز صنعته هاته أمامنا واضحة جلية، على غرار ما نقرأ له مثلا في إحدى معشراته، تلك التي رتبها على حروف المعجم، والتزم افتتاح أبياتها بحرف الروي، جاعلا إياها على شكل رباعيات خمسها بلازمة الصلاة والتسليم على سيدنا محمد ﷺ؛ يقول في بداية هذه القصيدة :

ألف أجـــــل الأنبيـــــاء نبيء
بضيـــــائـــــه شمس النهـــــار تضيء
وبـــــه يـــــؤمـــــل محسن ومسيء
فضـــــلا من اللـــــه العظيم عظيمـــــا
صلوا عليه وسلمـــــوا تسليمـــــا

28) طبع صاحب هذا المقال ديوانه الشعري وحققه وشرحه وقدم له، ولكنه لا يزال مخطوطا لدى الباحث لم تتح له بعد فرصة النشر.
29) ديوان محمد بن محمد المرابط ص 94.

بـــاء بـــدا في أفـق مكـــة كـوكبـــا
ثم اعتلى فجلى سنــــاه الغيهبــــا
حتى أنـــار الـــدهر منـــه وأخصبـــا
إذ كـــان فيض الخير منــه عميمــا
صلـــوا عليـــه وسلمـــوا تسليمـــا[30]

وفي خاتمتها يقول :

يـــاء يحييـــه ويسقيـــه الحيـــا
رب العبـــاد مجـــازيـــا ومـوفيـــا
ومشرفـــا ومسلمـــا ومصليـــا
يــــا مسلمين ورتلم التسليمـــا
صلوا عليه وسلموا تسليما[31]

وقد التزم ابن المرحل - إلى جانب هذا - لونا آخر من الصنعة في وسيلته الكبرى، حيث رتب قصائدها على حروف المعجم كذلك، وجعل كل قصيدة على روي من هذه الحروف المعجمية، جاعلا هذا الروي هو الحرف الأول في أبيات القصيدة كلها على شاكلة قوله في إحداها :

إلى المصطفى أهـــديت غرثنـــائي
فيـــا طيب إهـــدائي وحسن هـــدائي
أزاهر روض تجتنى لعطـــــــارة
وأســـلاك در تصطفى لصفـــــاء
أكـــاليـل من مـــدح النبي محمـــد
بهـــا حـــازت الآداب كـــل بهـــاء
أضفت إلى ميـــلاده غـــزواتـــه
ومـــا عـــز لي من آيـــة وإيـــاء
أردت رضى ربي بهـــا فهـــو أرتجي
وربي كريم لا يضيـــع رجـــائي[32]

أما الصنف الثاني، والذي تختفي فيه الصنعة وراء ستار المهارة والتمكن، فنمثل له بقصيدة لإبراهيم التازي يقول في بدايتها :

روحي وراحـــة روحي ثم ريحـــاني
وجنتي من شرور الإنس والجـــان
ومـــأمني وأمـــاني من سعير لظى
ذكر المهيمن في سر وإعـــلان
ومـــدح أحمـــد أحمى العـــالمين حمى
وذو المقـام الـــذي مـــا قـــامـه ثـــان
يس طـــه المقفى والشفـــاعـــة وال
حوض الـــذي جـل في إحصـاء كيـــان
سر الـــوجـــود وأسمي المرسلين سني
والفـــاتـــح الخـــاتم الآتي بقرآن[33]

فلو أننا تأملنا هذه الأبيات، لوجدناها تتوفر على ألوان من الصنعة يمكن الإشارة إلى بعضها. من ذلك مثلا تعمد الشاعر ترديد حرف أو بضعة حروف داخل الشطر الواحد ليوفر لبيته نوعا من الإيقاع الموسيقي الذي يزيد النص جمالا وتأثيرا، كأن يتردد حرف الراء والحاء في الشطر الأول من البيت الأول، وحرف النون في الشطر الثاني من البيت نفسه، وحرف الحاء في الشطر الأول من البيت الثـــالث، وحرف السين في الشطر الأول من البيت الخامس، وحرف المد بالألف في الشطر الثاني من البيت ذاته، ومن ذلك أيضا استعماله لبعض وجوه البديع من جناس كـــالـذي يظهر بين كلمـات «روح» و«راحـــة» و«ريحان»، أو بين كلمتي «أحمد» و«أحمى»، وطباق كالذي نلمسه بين كلمتي «سر» و«إعلان» أو بين كلمتي «الفاتح» و«الخاتم».

ولعلـه من المنـاسب، ونحن نحـــاول أن نرصـد المستويات البنائية الأخرى لقصيدة المديح النبوي في العصر المريني، أن نقف عند نموذج آخر من نماذج هذه

30) ذكريات مشاهير رجال المغرب، عدد 8، ص 12.
31) ذكريات مشاهير رجال المغرب، عدد 8، ص 16.
32) ذكريات مشاهير رجال المغرب، عدد 8، ص 17.
33) الوافي بالأدب العربي، ج 2، ص 591.

القصيدة، هو مطولة للشاعر الرحالة العبدري مطلعها :

فــوق إلى عرض الفــلاة وســـدد

سهم السرى تقصد وتحط بمقصد[34]

فلعلها تمثل هذه المستويات التي تكاد تكون قاسما مشتركا بين معظم قصائد هذا اللون في الفترة وواضح أن البحر الكامل الذي نسجها الشاعر على منواله من تلكم الأوزان الطويلة التي تستطيع أن تستوعب مضامين الشاعر في رحابة ويسر، علاوة على رويها الدال، الذي يعتبر رويا مطروقا بكثرة في الشعر العربي، والقافية التي جاءت مطلقة وكأن اساعر بها يطلق العنان لقريحته كي تتفجر في استرسال وتتابع.

ولعل النسيج الصوتي في هذه القصيدة يتركب من أكثر من عنصر، ويتوسل بالعديد من الأدوات التي تلتقي كلها في دائرة واحدة، هي دائرة التكرار بالاصطلاح القديم، أو دائرة التشاكل بالاصطلاح الحديث.

وأول ما يلفت انتباهنا في القصيدة من هذا التكرار / التشاكل، ما نلمسه في أبياتها العشرة الأولى من توظيف لأفعال الأمر تستهل بها هذه الأبيات تباعا، مما يضفي عليها مسحة خطابية، وكذلك ما نقف عليه فيها من جناسات متعددة، هي إلى التكلف والصنعة أقرب منها إلى العفوية والطبع يقول مثلا :

أوتر قسيــــا من مطي إن رمت

رنت كمـــا رنت قـي المقصــد

ثم سيف عـزم لا يفـل ذبـابـه

قرع الـزمـان ولا قراع الفـد فـد

هم بـالعـلاء بهمـة تعلـو على

سمك السمـاك وسـام سـامي الفرقـد

أجب النـداء وجب بكـل تنوفـة

قفرا تنكر للـدليـل المرشـد

رافــق رفيـــق العـــزم وأترك من ونى

خلف البطـالـة نـائمـا في مرقـد...

ثم يستوقفنا بعد ذلك استهلال الشاعر للأبيات التسعة والعشرين الموالية بلفظ «حتى» يتردد في بداية كل بيت، متبوعا بعمل من الأعمال التي يقوم بها من توجه من المومنين إلى الديار المقدسة، وفي هذا المقطع كذلك تتعدد الجناسات والتشاكلات اللغوية والصرفية، على غرار قوله مثلا :

حتى تحـل بـذروة المجـد التي

فـاتت مرام الحـائر المتردد

حتى تحـل بمنـزل مـا حلـه

إلا نـزيـل طلـوع سعـد الأسعـد

حتى تحـل بمكـة وحـلالهـا

خير الحـلال فحـط رحلـك واقعـد

حتى تطـوف بكعبـة مـا مثلهـا

من مـجـد يبنى ولا متعبـد

حتى ترى طيبـة وربـوعهـا

فيطيب وقتـك في المكـان الأسعـد

حتى ترى نجم السعـادة طـالعـا

حتى ترى قبر النبي محمـد

وهكذا تستمر القصيدة في انتهاج هذا المسلك من التكرار والتشابه، لا على مستوى الحرف الواحد أو اللفظة الواحدة كما سبق، ولكن كذلك على مستوى الحشو بكامله أو جزء منه، وخاصة عند ما يتعلق الأمر بأسلوب النداء، على شاكلة قوله وهو يتوجه بالخطاب إلى المقام النبوي الشريف :

يـا ربع قـد أخليت ربع تصبري

يـا ربع قـد أبليت حبل تجلـدي

يـا ربع ربعـك في فـؤادي آهـل

لم يعفـه ريـح الـزفير المصعـد

34) انظر القصيدة مشكولة ومشروحة في «ديوان العبدري من خلال رحلته» ص 36 ـ 45.

يـــا ربـع إن ســـاواك عنـــدي منـزل
طـول المـدى فـأنـا المـيء المعتـدي...

أو قـولـه متـوسـلا إلى الرسـول ﷺ ممتطيـا ركب التشاكل الصوتي سواء في صدور الأبيات أو أعجازها :

يـــا خير من وطئ الثرى قـــدم لـــه
يـــا خير نـــاطـــق حكمـــة في مشهـــد

يـــا خير أهـل الأرض بـــل أرضـــاهم
يـــا خير ســـام في الســـمـاء ممجـــد

يـــا خير مـولـود تقـــدم كـونـــه
يـــا خير من هـــو بعـــد لمـــا يـولـــد

يـــا خير من نيـــط الرجـــاء بجـــاهـــه
يـــا خير مـــأمـول لخطب مكمـــد

يـــا خير من قرأ الكتـــاب مرتـــلا
يـــا خير من هجر الكرى لتجهـــد

وبهذا يتضح لنا أن الشاعر حاول أن يبني قصيدته على نسيج صوتي يمتاز بتقارب الوحدات الصوتية، وتشابه المجموعات الإيقاعية، الشيء الذي يضفي على القصيدة هالة من الجمال والحسن، ويلفها برداء من الجاذبية والتأثير، وهو العنصر الذي لا شك كان شعراء المديح النبوي في العصر المريني يطمحون إليه ويسعون إلى توفره وحصوله، ومن ثم راحوا يلتمسون هذه الألوان من الصنعة والتنميق، ويتصيدون ضروبا شتى من التأنق والزخرف.

ولعل هذه الظاهرة التي تنتصب أمامنا واضحة جلية في نبويات العصر المريني ـ ظاهرة التكرار أو التشاكل ـ لم تكن ـ حلقة يتيمة في هذا العصر فحسب، وإنما كانت مسبوقة بحلقة مثلها منذ العصر المرابطي، وخاصة عند القاضي عياض في بعض نبوياته،[35] كما تليت بحلقات أخرى مماثلة في العصور الموالية، وخاصة عند بعض الشعراء المتصوفة الذين أصبحوا يتخذون من التكرار في الصياغة الشعرية ضربا من الانسجام مع التيار الصوفي والطقوس التي أصبحت تحيط به من تكرار في الأوراد والأذكار وما يدور في فلكها، على نحو ما نقرأ من شعر الحسن بن مسعود اليوسي في عصر المولى اسماعيل على سبيل المثال :

يـــا رســـول الإلـــه إني محب
لـــك واللـــه شـــائـــق مـتهـــام

يـــا رســـول الإلـــه في كـــل حين
لـــك مني تحيـــة وســـلام

يـــا رســـول الإلـــه شـــوقي عظيم
زائـــد والغرام فيـــك غرام

يـــا رســـول الإلـــه جئتـــك أسعى
قيـــدتني الـــذنـوب وهي عظـــام[36]

ومهما يكن فإن قصيدة المديح النبوي في العصر المريني عرفت من الازدهار والخصوبة ما جعلها تتميز عن أختها في العصور السابقة، وتفرض نفسها كغرض متميز له أعلامه وخصائصه، ويبسط من ظلاله على ما أبدعه شعراء هذا الغرض في العصور اللاحقة، كما أنها كانت نتاجا لحركة تشجيعية قام بها السلاطين المرينيون في هذا المجال: فقد أكد الدكتور عباس الجراري «أن السلطان المريني كان يقيم حفلا بهذه المناسبة يستدعي له رجال العلم والأدب، وأن الشعراء كانوا يلقون القصائد أمامه فينعم على الفائز الأول بمائة دينار وفرس ووصيف وحلته التي يكون لابسا في هذا اليوم، ويمنح سائر الشعراء خمسين دينارا لكل واحد».[37]

35) انظر في الموضوع مقال.
36) مجموع غير مرقم مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش رقم 359.
37) الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ص 146.

ومن دون شك أن هذه السنة التي سنها السلاطين المرينيون قد واصلت مسيرتها في العصور الموالية، فظل بذلك شعر المديح النبوي يتمتع بالتشجيع والترغيب سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي.

أضف إلى ذلك أن قصيدة المديح النبوي في العصر المريني قد ارتبطت بمجموعة من الدوافع والعلائق التي كانت وراء انتشارها وطرقها من طرف نخبة واسعة من شعراء المرحلة. ولعل من أهم هذه الدوافع والعلائق :

• أن المديح النبوي موضوع تقليدي في المغرب، بدءا من المرابطين فالموحدين، ووصولا إلى المرينيين الذين يحتمل أنهم طرقوه استمرارا لهذا التقليد، وحفاظا على موضوع يحظى بالأسبقية نظرا لمكانة الممدوح من نفوس المغاربة، وشدة تعلقهم بفضائله ومزاياه.

• أن الثقافة المغربية في العهد المريني - كما هي في العهود المغربية الأخرى - «ثقافة نقلية دينية، ترتكز - إلى جانب العلوم اللسانية واللغوية - على العلوم الدينية من فقه وأصول، وتفسير وحديث وسيرة، إذ كان المغاربة يتصلون بهذه العلوم شرحا وتحليلا، ويفيضون فيها درسا وتأليفا، بل قد ينظمونها نظما»[38] ومن ثم كثر تعامل المرينيين مع المديح النبوي باعتباره وجها من وجوه هذه الثقافة الدينية التي كانت غالبة في هذا العصر.

• أن المرحلة المرينية عرفت موجة من المعارك والمواجهات الجهادية، الشيء الذي هيأ المناخ لتراكم الأمداح النبوية باعتبارها ترمز إلى الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي من جهة، كما أنها ترمز من جهة أخرى إلى بث روح الحماس والصمود في الجنود المغاربة أسوة بحامل رسالة الإسلام سيدنا محمد ﷺ وجنوده الذين كان سلاحهم الصبر والإيمان والتحلي بالمثل الفاضلة والأخلاق النبيلة.

• أن المرحلة المرينية تعد انتصارا مجددا للمذهب المالكي الذي يعتبر المذهب الطبيعي للمغرب، والذي جاء المذهب التومرتي - مع أوائل الفترة الموحدية - ليأخذ مكانه، ومن ثم يعتبر انتشار المديح النبوي وسيلة في بث روح الإسلام في بساطته وعفويته، والتركيز على شخصية الرسول ﷺ وسيرته الطاهرة كينبوع صاف لهذه البساطة وتلك العفوية.

وهكذا إذن يبدو غرض المديح النبوي في الفترة المرينية موضوعا له قيمته ووجاهته، وغرضا يعبر بكل صدق ونزاهة عن عواطف الشعراء الذين كانوا لسان حال مواطنيهم في إفراز مشاعر الحب والتعلق، وترديد عبارات التشبث بسيرة سيد الكائنات ومنقذ البشرية سيدنا محمد ﷺ.

الرباط : عبد الجواد السقاط

38) الشعر الدلائلي، ص ص ١١١.

المصادر والمراجع

المذكورة في الهوامش

• الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه.
للدكتور عباس الجراري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1399 هـ، 1979 م الجزء الأول.

• أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض.
لأحمد المقري التلمساني، طبعة اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة الإمارات العربية المتحدة، في خمسة أجزاء.

• أعلام المغرب العربي.
لعبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، في أربعة أجزاء 1399 ـ 1406 هـ / 1979 ـ 1986 م.

• تكريم النبوة في شعر القاضي عياض (دارسة تحليلية).
للدكتور حسن جلاب، مقال بمجلة الموقف، عدد 9، رمضان 1409 هـ، مارس 1989 م.

• جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس لأحمد بن القاضي المكناسي، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973 م، في قسمين.

• الحياة الفكرية المغربية على عهد المرينيين والوطاسيين (بالفرنسية).
للدكتور محمد بن شقرون، مطبعة محمد الخامس، فاس، 1394 هـ، 1974 م.

• ديوان العبدري من خلال رحلته.
لمليكة أقزيبر، بحث تقدمت به صاحبته تحت إشرافنا لنيل الإجازة في الأدب عن السنة الجامعية 88 ـ 89، مرفون بخزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية.

• ديوان كعب بن زهير.
طبعة دار الكتب المصرية.

• ديوان محمد بن محمد المرابط الدلائي.
مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 3644.

• ديوان محمد بن محمد المرابط الدلائي.
تحقيق وشرح وتقديم عبد الجواد السقاط، مخطوط لدى المحقق.

• ذكريات مشاهير رجال المغرب (العدد 8).
لعبد الله جنون، مكتبة المدرسة، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

• الشعر الدلائي.
لعبد الجواد السقاط، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1985 م.

• شعر عبد العزيز الفشتالي، جمع وتحقيق ودراسة.
لنجاة المريني، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1986 م.

• الشفا بتعريف حقوق المصطفى.
لعياض بن موسى اليحصبي، تحقيق محمد أمين قرة علي وآخرين، مكتبة الفارابي، دشمق.

• القاضي عياض الأديب.
لعبد السلام شقور، مطبعة دار أمل، طنجة، 1983 م.

• مجموع.
لجامع مجهول، مخطوط غير مرقم الأوراق بخزانة ابن يوسف بمراكش، رقم 359.

• المديح النبوي في العصر المرابطي والموحدي، القاضي عياض وميمون الخطابي، دراسة لشعرهما ومقارنة بينهما.

لأمينة الحقاني، بحث تقدمت به صاحبته تحت إشرافنا لنيل الإجازة في الأدب عن السنة الجامعية 88 ـ 89، مرقون بخزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية.

• نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان، أو «أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن».

لأبي الوليد إسماعيل بن الأحمر، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1396 هـ، 1976 م.

• الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى.

لمحمد بن تاويت، دار الثقافة، الدار البيضاء، في ثلاثة أجزاء 1402 ـ 1404 هـ / 1982 ـ 1984 م.



نظم السير في مدح سيد البشر

لمالك ابن المرحل

تقديم : الأستاذ بنعلي محمد بوزيان

مالك بن عبد الرحمان بن فرج بن الأزرق، أبو الحكم، ابن المرحل : شاعر فصيح بليغ، طويل النفس ممتده، خمل ذكره فأنهضه أدبه وشعره حتى صار في عصره شاعر المغرب غير مدافع، وأطبع شعرائه أسلوبا وأرشقهم لفظا، وأبلغهم معنى[1].

أصله من مصمودة، ومولده في مالقة عام 604 هـ (1207م)، ومحل تحصيله وتخرجه، وحلوله وسكنه، وزمالته وعمله بين إشبيلية وغرناطة... وسبتة وفاس التي توفي بها عام 699 هـ (1300م).

ترجمته في غير ما مصدر قديم مثل بغية الوعاة، وغاية النهاية، والإحاطة، وجذوة الاقتباس، وسلوة الأنفاس...

وممن حدثنا عنه من المعاصرين يطالعنا العلامة الجليل الأستاذ عبد الله كنون أبقى الله بركته، والفقيه البحاثة محمد بن تاويت. ومما يؤسف له ـ بحق ـ أن يحول ضياع طائفة معتبرة من أشعاره التي سرى عليها ما سرى على غيرها من الانتاجات القديمة، دون إنجاز دراسة وافية عنه تحلل شخصيته وتجربته وموقفه حيال مجتمعه وعصره. ولا يخالف أحد أنني أكتب الآن لأحقق هذا الأمل، وأفاجئ المهتمين بالآداب والأدباء، فهذا شيء لا أبشر به ولا ألتزم، إذ لا أملك له من الوسائل غير قصيدة مخطوطة بحوزتي ضمن مجموعة صغيرة، بارعة رائقة رقيقة، أحيانا ما كانت عيناي تتعابث بها في هدأة الليل، وقد فتشت عنها فيما وقع تحت يدي من مصادر ترجمته فلم أجد لذكرها أثرا الأمر الذي دفعني إلى الاعتقاد بأنها من غرره المغمورة، ومطوياته التي تحتاج إلى نشر. ولئن لم أقو على تسمية ما سأفعله اكتشافا وإضافة إلى الإرث الأدبي المغربي، فإنني لا أتردد في التصريح بأنني لم أصادف أحدا ـ ممن تعاملت معه ـ نقل عنها، أو استشهد ببعض أبياتها، أو قرظها، أو ذكر حتى اسمها. فإن تكن معروفة، فلا أظنها تتجاوز الأوساط الأدبية المختصة مما يستوجب استثارتها وتقديمها للقراء. وإن تكن مغمورة فحسبي أنني اكتشفت أثرا أدبيا رائعا لأحد الملهمين، وقبل نشره أرى من اللائق والمفيد أن أعرف بالقصائد الأخرى من خلال إثبات مطالع طوالها وإهمال قصارها والمقطوعات، على أن أعود إليها

1) عبد الله كنون، النبوغ : ج، 1، ص.235 (ط.3 /1975، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت).

بالتحقيق والنشر حينما تتأكد من طرافتها وجدتها، ونتوثق من نسبتها إلى من نسبت إليه أو تعرف أصحابها :

1 ـ هائية مبتورة البداية، موضوعها المديح الديني، بقي منها سبعة وعشرون بيتا تبتدئ هكذا :

دعينـا قلبينـا وجئنـا نـؤمهـا
عراة كموتي حـان منهـا نشورهـا
أتينـا إليهـا حـاسرين لأنهـا
غنانـا فبالفقر الشديـد نزورهـا

2 ـ لامية ابن حيان النفزي[2]، ذات المطلع الآتي :

لا تعـذلاه فمـا ذو الحب معـذول
العقـل مختبـل والقلب متبـول

وهي أيضا في المديح الديني، وتبلغ ثمانين بيتا من البسيط.

3 ـ لامية أخرى من الوافر، وهي له على ما يلوح، تبلغ ستة عشر بيتا ومطلعها :

جمـالـك فـوق مـا زعم الخيـال
وحسنـك غير مـا يبـدي المثـال

4 ـ رائية من البسيط، لا تتعدى خمسة عشر بيتا، وافتتاحها كما يلي :

كرر علي حـديث البـان والسمر
إن الأحـاديث عن أهـل الهـوى سمري

5 ـ رائية ثانية من الكامل، وهي للشيخ الفقيه الكاتب الأكمل أبي سالم إبراهيم القرشي بدأها بقوله :

أدلـج بهـا عجـلان واجتنب الكرى
فـالشوق أقلقهـا إلى خير الـورى

وتتكون من واحد وثلاثين بيتا.

6 ـ يائية لبعض كتاب أمراء الأندلس سنة أربع وستين وسبعمائة، وهي في أربعة وثمانين بيتا من الطويل، مفتتحها :

مغـاني اللـوى حـاد الربيـع المغـانيـا
منى النفس لـو تعطي النفـوس الأمـانيـا

وبعد هذا البيت الأخير :

أحـدث بـالإخلاص فيـك ضمائري
وأنطـق بـالمـدح البليغ لسـانيـا

ورد هـذا التعليـق «**انتهى النظم، ولا أدري هـل كمل أم لا، والحمد لله**».

7 ـ رائية من الطويل، عدد أبياتها سبعة وعشرون، تنسب للإمام القطب السيد أبي مدين ومطلعها :

أيـا من تعـالى مجـده فتكبرا
وجـل جـلالا قـدره أن يقـدرا

وقد أضيفت إليها أبيات ثلاثة كملت بها ثلاثين.

8 ـ رائية من المتقارب. مبتورة المؤخرة بحيث لم يبق منها غير سبعة وعشرين بيتا، وهي لعبيد ربه محمد بن محمد بن عبد العزيز بن عبد المالك بن أبي محلي كان الله له وليا ونصيرا. ومطلعها :

تعلّم وبـادر أيـا غـافـلا
لفهم العقـائـد قبـل القبـور
فجهـل العقـائـد كفر... فـل
ولا تلهينـك دنيـا الغرور

9 ـ رائية أخرى من الطويـل، مبتورة المؤخرة كذلك، وهي للفقير إلى الله محمد الحمدي عفا الله عنه، الموجود منها واحد وأربعون بيتا مستهلة على هذا النحو :

أبرق بـدا نحـو العقيـق وزمـزم
غـدا بسنـاه مهتـدى كـل حـائر ؟
أم البـدر... أم وجـه الحبيب محمـد
تـلألأ أم سر العنـايـة نـاشر ؟

10 ـ وللدلائي من بحر الكـامـل قصيدة ميمية مبتورة المؤخرة بحيث لمّ يتبق منها غير اثني عشر بيتا ومفتتحها :

قف بـالطلـول وبُثّ بعض هيـامي
وسـل المراسم عن بـدور خيـامي

---

2) راجع أخباره عند المقري في النفح، ج. 2 ـ ص.535 وما بعدها، وقد أورد من هذه اللامية سبعة أبيات في ص. 581 (تحقيق الدكتور إحسان عباس ـ دار صادر ـ 1968).

وإذا الريـــاح بـــدت فعرج بـــالحمى
وأذع بـــــلابـــل لـــــوعتي وغرامي

11 - ثلاث قصائد لأحمد الجكني في مدح الرسول عليه السلام.

- الأولى لامية مبتورة البداية، وقد بقي منها نحو من خمسين بيتا من الرمل وبدايتها هكذا :

بشر المـــومن بـــالفـــوز لـــه
أنـــذر الكـــافر بـــالخـزي الطـويـل

- الثانية همزية من الوافر تتكون من واحد وعشرين بيتا ومطلعها :

مبلـــغ القصـــود بـــلا دعـــاء
ومنـــــزل الشفـــــاء لكـــل داء

الثالثة همزية تبلغ واحدا وخمسين بيتا من الخفيف، مفتتحها :

إن حب النبي حـــــل عظـــــامي
ونمـــا الشـوق فيـــه قبـل الفطـــام

12 - رائية من الطويل للشاعر اليلمعي الأريحي اللوذعي أحمد الهيبة يمدح بها سيد الوجود. وقد بلغ بها مائة وخمسين بيتا افتتحها بالآتي :

كففت انسجـام الـدمـع فـانسل وانتثر
وعـاد عقيقـا بعـدمـا كـان كـالـدرر

وأبـــدل مني من جـــوى البين والأسى
سبـــات الكرى والنـوم بـالسهـد والسهر

وقد ذيلت القصيدة بأبيات من نفس البحر والروي ارتجلها بعض الأدباء الذين حضروا مجلس الإنشاد، وهم بالتتابع الشيخ سدي وأب بن عبد الإله ومحمد محمد البيضاوي وعبد الله بن الأدب ثم الشاعر يمدح الجماعة ببيتين.

13 - تخميس قصيدة الإمام العلامة سيدي إبراهيم الرياحي للسيد محمد بن حمدوش المكناسي رحمهما الله ومطلعه :

حـديث أحبـاب قلبي دمـع إليـاس
بـــذكرهم أرتجي تطهير أدنـــاسي
عن غيهم لم أزل ذاهـــلا نـــاسي
صـاح اركب العـزم لا تخلـد إلى اليـاس
واصحب أخا الحزم ذا جد إلى فاس

14 - ومن الرمل، قصيدة لامية للأديب البليغ سيدي عبد الله جسوس رحمه الله تعالى، بقي منها نحو من اثنين وثلاثين بيتا مع لازمتها :

صـل يـــا رب على طـــه الـــذي
ســـاد كـل الخلـق مجـــدا وعـلا

أما مطلعها فهو كما يلي :

مـــالـــدمعي كـــالغـــوادي أرسـلا
ولطرفي بــــالكرى مــــا اكتحـــلا

أسنـــا البرق من الغـــور سرى
أم حـــدا الحـــادي وغنى زجـــلا

كلمـــا هب نسيم من قبـــا
خلتني من فرط شـــوقي ثمـــلا

☆ ☆ ☆

ونعود بعد هذه الجولة الإحصائية لقصائد مغربية وأندلسية بارعة فارهة، جلها في مديح الجناب النبوي، إلى قصيدة مالك بن المرحل لنثبتها من غير ما تدخل فيها بتحليل أو نقد أو تعليق إلا أن نذكر أنها أيضا من المدائح النبوية وأنها تدعى **«نظم السير في مدح سيد البشر»**. وقد قدم لها ناسخها وأظنه أبا القاسم الفكيكي. بالآتي بعد البسملة والتصلية :

«من نظم شيخ الجماعة، الأديب البارع : أبي الحكم مالك بن المرحل المالقي عفا الله عنا وعنه بجاه نبيه ﷺ، وتدعى بنظم السير في مدح سيد البشر».

★ ★ ★

رأيتَ الفتى لا يَمَلُّ الأمــل ... وإن عمـل الخير مـل العمـل
ويـــأمن دهرا يرى مكره ... ويمــع عن فتكـه بـالأول
وهـل طرر الصبـح إلا ظبى ... وهـل غرر الشهب إلا الأسـل
أتحسب دنيـاك هـذي عروسـا ... تهـادى إليـك وتهـدي الجذل
وأن النجـوم عليهـا حـلا ... وأن الـديـاجي عليهـا حلـل
وإن أطلعت شفقـا خلتــه ... على وجنتيهـا احمرار الخجـل
ومـا شفـق الأفـق لـو أشفقت ... سـوى مهـج سفكهـا لم يـزل
وذاك الغمـام، وتلـك البروق ... دروع تشـق، وقضب تسـل
إذا أحسن الـدهر يـومـا أسـا ... إليـك وإن جـد يـومـا هـزل
نحب الـزمـان ولا نتقي ... سطـاه. وآبـاءنـا قـد قتل
رمـاهم عن القـوس رمي النجـوم ... بنبـل مطيـح بهـا من نبـل
ومـا حمـل الرمح هـذا السماك ... إلا لقـوم عليهم حمـل

☆ ☆ ☆

خليلي أين زمـان الصبـا ؟ ... وأين الغـزال... وأين الغـزل ؟
وهـل كـان إلا كطيف الكرى ... ألم، ومـا حـل حتى رحـل !
تـذكرت أيـا منـا بـالمروج ... وقـد غفـل الـدهر فيمن غفـل
وقـد طرح الحلم عنـا العصـا ... فصـارت لقى ورعيـا همـل
وإمـا نـزلنـا فبين الظـلال ... وإمـا مشينـا فتحت الظلـل
نراوح بين قيـان الغصـونِ ... نِ ممعـا، وبين قيـان الكلـل
ونهصر قضب الأمـاني اعتنـاقـا ... ونقطف زهر القبـول قبـل
وقـد كنت أخشى الوغى خشيـة ... على بـاذل الـود أن يبتـذل
ومـا كنت أحـذر سمر القنـا ... كمـا كنت أحـذر سمر المقـل
وأين قـدود لهـا نـاعمـات ... إذا قـويست من قـدود النخـل
قطعت الـزمـان بـوصـل الحسـان ... فليت زمـانـا قطعت اتصـل
وقلت لعـاذلتي في التصـابي ... محب التصـابي عـدو العـذل

☆ ☆ ☆

فلمـا بـدا الشيب نبهني ... بـإعراضهن على مـا نـزل
فتـاركتهن لأني رأيت ... خـلال المـودة فيهـا خلـل
كـذاك الحقـوق إذا لم تـوف ... فـدعهـا ولا تقتنـع بـالأقل
وصرت أعـاف الصبـا والمجـون ... ورب طبـاع تعـاف العسـل
ومـا زين اللهـو إلا الشبـاب ... ولا حسن الغي إلا الثمـل

يدور الزمان كدور الرياح ... فطورا جنوبا وطورا شمل
فيوما يعز، ويوما يذل ... فكم قد أعز، وكم قد أذل...!
وما الناس إلا كمثل النجوم ... وما طلع النجم إلا أفل
وما المرء إلا كمثل النبات ... إلى النقص يرجع مهما اكتمل
فإن قلت هل للشباب ارتجاع ؟ ... فخلف من القول إن قلت هل ؟
تعود الدياجي إلى لونها ... وليس يعود شباب نصل
ويبلى على الروض ثوب الربيع ... ولكن يجدد من ذي قبل
أجل أجل الروض مستأنف ... وما للصبا بعد فوت أجل

☆ ☆ ☆

وآمرة بطلاب الغنى ... ولم تدر أن الغنى قد حصل
أبعد القناعة أرضى القنوع ... فجل، فالقناعة حسبي فجل
وما ذاك إلا لبخل الزمان ... فرب اقتناع جناه البخل
فإن قيل ذا كسل قل : نعم ... إذا غلب اليأس كان الكسل
وما نكلت همتي إنما ... تبين لي أن حظي نكل
وما كل سائلة أعطيت ... مناها، ولا كل معطى سأل
ففي الرزق ساوى الذكي البكي ... وفي الحين ساوى الجبان البطل
ولكنه لو تكون الحظوظ ... بقدر العقول إذا لم أبل
على أنه إن تكن ناظرا ... فدعوى العقول كلام معل
يعرى عن العقل خلق كثير ... ...؟؟ الصنائع شتى الحيل
وتعزى العقول إلى الناطقين ... وبالله أكثرهم ما عقل
فكم قايس منهم لم يقس ... وكم ناقل منهم ما نقل

☆ ☆ ☆

ولو لا النبوة ضل الورى ... ومن لم ير النجم بالليل ضل
وأحمد أحمد آت أتى ... بخير، وخير خيار الرسل
هو المرتضى. وهو المجتبى ... هو المصطفى. وهو المنتخل
فأعظم بملته في الملل ... وأكرم بدولته في الدول
لقد كان مولده رحمة ... سقينا بها كل وبل وطل
لقد كان مولده رحمة ... أقمنا بها بين نهر وظل
له المعجزات التي بينت ... لعين البصير المزاح العلل
فمن قمر شق حتى استبان ... ن من بين شقيه جرم الجبل
وإسراء روح وجسم معا ... إلى حضرة القدس ذات الأزل

إلى حيث لا فلك يستدير ... إلى حيث لا ملك يستقل
ولا سبق الدلو فيه الرشا ... ولا تبع الثور فيه الحمل
ولا المشتري في ذراه اشترى ... ولا زحل في مداه زحل
وقابله بالسلام الجماد ... وأقبل يشكو إليه الجمل
وحن إليه غداة ارتقى ... على المنبر الجذع حتى انتقل
وصدقه الذيب لما دعاه ... وقال : أتشهد ؟ قال : أجل
وأهدت إليه عجوز اليهود ... د شاة شوتها فلما قبل
نهته الذراع وقالت له : ... سممت. فما ضره أن أكل
وجادله المزن لما دعا ... ودر له الضرع لما نزل
وراع قتادة من عاره ... بأزرق زاحم منه الكلل
فسالت على خده عينه ... ولكنه ردها في عجل
فكانت كما ذكر الواصفون ... ن أحسن عينيه لما استقل
وأعطى عليا لواء الفتوح ... وأبرأ عينه لما تفل
وفي الغار كانت له آية ... بنسج عناكبه إذ دخل
وقد سبلت عنه تلك الفجاج ... وقد نهضت عنه تلك السبل
ومر سراقة في إثره ... فساخ، وما في الثرى من وحل
وما أنقذته سوى دعوة ... دعاها له بعد عهد وإل
وحسبك أن له معجزات ... تزيد على الألف فيما نقل
ومسين ؟ قبل ميلاده أخبرت ... بذاك قريش وعبد الأشل
فقوم بمكة قالوا عسى ... وقوم بيثرب قالوا لعل
فمن قائل نجمه قد بدا ... ومن قائل عصره قد أطل
وقد كان في الفرس من قبله ... على عهد كسرى حديث جلل
وأخبر سيف به جده ... وأكرم مثواه حتى انفصل
وكانوا إلى وجهه شيقين ... يقولون ياليته قد أظل
فلما أتى كذبته قريش ... وآذته في نفسه فاحتمل
وجاءهم بالكتاب المبين ... فقالوا افتراه، وقالوا انتحل
فقل فيهم يوم بدر وقد ... جزاهم بضرب الطلى والقلل
وجدل فيهم أبا جهلهم ... وعقبة والنضر أهل الجدل
وسل فتح مكة عنهم وقد ... أتاهم فماتوا لفرط الوجل
وقالوا هبلنا ولو شاء لم ... يغن عنهم هبل ؟؟
ولكنه من من الكريم ... وأعطاهم الأمن بعد الوهل
وسل عن هوازن إذ خادعوه ... بوادي حنين وضاق المسل
فجالت رجال بها جولة ... وزالت بها أرجل من زلل

قليلا وهبت من النصر ريح   لتسنيم في حافتيها بلل
ونادى... فحف به الصابرون   ومر النداء فعالت ثلل
قد اقتحموا عن ظهور المطي   ي وازدحموا في صدور الأسل
وطاروا إليه بشهب الرماح   كمثل الرياح تطير الشعل
وعاق الزحام فألقوا بها   وسلوا السيوف، وعقوا الخلل
فكم ممتط تارك ما امتطى   ومعتقل تارك ما اعتقل !
وجاؤوا إليه قليلا فلم   يكن لهم بهم من قبل
كما صوبت أعصب أبصرت   بضاح من الأرض سرب الحجل
وأقبل جبريل في لمة   يصك وجوههم من قبل
جنود بهم نصر المسلمون   فأمسى عدوهم قد خذل
فمن هارب بات يخشى البيات   ومن هالك ظل تحت الأظل
وخلوا ذراريهم للسبايا   هناك، وأموالهم للنفل
وطاف بطائفهم جيشه   وفلهم في الذرى قد وقل
فباتوا وقد سمر السيف من   ذيولهم حيث بات الوعل
وأصبح دين ا الهدى ظافرا   يثير التراب بذيل رفل
ومن بعدها أقبلوا مسلمين   وقد أملوه فنالوا الأمل
ورد إليهم ذراريهم   ولولا المقاسم رد الإبل
فعال، عطوف، رؤوف، رحيم   كريم، إذا قال قولا فعل
صفوح إذا أذ نبوا، واصل   إذا قطعوا، محسن لا يمل
جواد، جرئ، تهون عليه ال   ألوف إذا ما التقى أو بذل
وليس يجادل من مبطل   وليس يجالده من بطل
وكم من غزاة وبعث له   أذل بها الله من قد أضل
فأما اليهود فلم تأل في   أذاه ولا قصرت في حيل
فأنزل منهم بني قينقاع   بقاع وكانوا بأسنى محل
وأجلاهم فجلوا آمنين   لأجل شفيعهم المقتبل
وأما النضير فلا نظرت   وجوههم، أهل كيد وغل
فدموا إلى قتله عازمين   فعاجلهم بعد طول المهل
وأنزلهم من صياصيهم   وأزعجهم في هوان وذل
وبالقرظيين حل البلا   وحق له بهم أن يحل
لأنهم ألبوا المشركين   عليه، فشدوا إليه الرحل
وجاؤوا إلى الحرب من أجل ذلـ   ـك، فوق الصعاب، وفوق الذلل
ففضهم الله بعد اجتماع   وبدد جمعهم المحتفل
وجازى قريظة بالسيف لم   يفت من رجالهم من رحل

وأخبـــار خيبر معلـومــة وإني خبير بهـــا إن تسـل
تـوالا هم بـالحصـار الشـديـد فحلت بهم عقـــدة لم تحـل
فقـــالــوا نقر على أننـــا لكم عـــاملـــون ولا ننتقـل
ومن بعـد هــذا خـلا وجهـه لمكـــة إذ كـــان فيهم شغـل
فطـــاع لـــه الشرك طـوع الشراك وصـــارت يهـود لـــه كـالخـول
وأنجـــز ربـــك ميعـــاده وأصبـح دين الهـدى قـد كمـل
ولم يبـق في الأرض شرك بعهـد سـوى السيف، أو سنـــة تمتثـل
وبلـــغ عن ربـــه منـــذرا وفصـــل للفهم تلـــك الجمـــل
ولم يبـق للنـــاس من حجـــة على من براهم تعـــالى وجـــل
فحينئـــذ خصـــه ربـــه بتخييره في رحيـــل وحـــل
فمـــا اختـــار إلا رفيقـــا عـــلا ولا اعتـــام إلا جـــوارا فضـــل
فيـــا حسرة حسرت عن ذراع وصـــارعت الصبر حتى انجـــدل
ويـــا كربـــة كربت أن تـــذوب لهـــا الراسيـــات بحر الفلـــل
ويـــا لـوعـــة أولعت بـــالقلـوب ولا قلب إلا بهـــا يستقـــل
ويـــا سيـد النـــاس أنت الشفيـع وأنت العمـــاد إذا العبـــد زل
وأنت الرجـــاء غـــداة المخـــاف وأنت الأمـــان غـــداة الـوجـل
فصلى عليـــك إلاه المـــا صـــلاة مضـــاعفـــة تتصـــل
وصلى عليـــك إلاه المـــا صـــلاة مـــدى الـــدهر لا تنفصـــل
صـــلاة تطيب بهـــا الشرقـــات إذا نفحت وتطيب الأصـــل

☆ ☆ ☆

تلك كانت مديحية مالك بن المرحل البالغة ثلاثة وأربعين ومائة بيت من المتقارب. انتخبتها من المجموع المشار إليه بالمطالع آنفا. وعنده نقف الآن. على أن نعود إليه مستقبلا، وإلى مجموع خطي آخر بحوزتي يشكل ديوانا مغربيا مستقلا بمدح نبينا وحبيبنا وشفيعنا محمد ﷺ إلى يوم الدين.

فكَيكْ : بنعلي محمد بوزيان

محمد صلى الله عليه وسلم

كما يراه مفكرو الغرب المنصفون

منذ البعث المحمدي والعلماء والمفكرون المنصفون في الغرب يركزون على شخصية الرسول ﷺ يحاولون تلمس نواحي العظمة فيها، والتعرف على مظاهر القوة التي حباه الله سبحانه وتعالى بها.

□ **كارليل :**

من هؤلاء المفكرين المنصفين الكاتب الإنجليزي كارليل، الذي أحب البطولة وقام بتتبع أصحابها في كل المجالات، ثم ألف كتابا بعنوان «الأبطال»، أفرد فيه فصلا كاملا عن رسول الإسلام، حذر فيه الناس من تصديق ما يشاع عن الإسلام من أكاذيب، وما يذاع عن نبيه من أباطيل وتعديات. وقال : لقد ظلت الرسالة التي جاء بها محمد سراجا منيرا لملايين كثيرة من الناس أربعة عشر قرنا... فهل يعقل أن تكون هذه الرسالة التي عاشت عليها تلك الملايين وماتت أكذوبة أو خديعة ؟؟

ثم سألهم : (هل رأوا رجلا كاذبا استطاع أن يخلق دينا، وأن يتعهده بالنشر على الصورة التي انتشر بها الإسلام ؟). ثم يقول : (ما الرسالة التي أداها محمد إلا الصدق والحق، وما كلمته إلا صوت صادق صادر من العالم المجهول... وما هو إلا شهاب أضاء العالم كله... ذلك أمر الله... وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء).

ثم يتحدث عن رسول الله ﷺ فيقول : (لقد أحببت محمدا لخلو نفسه من الرياء والنفاق، وبراءتها من التصنع والطمع وحب الدنيا، لقد كان منفردا بنفسه العظيمة وخالق الكون والكائنات، وقد رأى سر الوجود يسطع أمام عينيه بأحواله ومحاسنه.

لقد كان صوت محمد آتيا من قلب الطبيعة الصحراوية النقية الطاهرة. ولهذا دلف من الآذان إلى القلوب، واستقرت كلماته فيها... ولم يكن محمد متكبرا ولا ذليلا، ولم يرض بالأوضاع الكاذبة، ولم يتحرك خوف الأوهام الباطلة. ومن مكانه المتواضع وثوبه المرقع خاطب الملوك والقياصرة، موجها ومنذرا محذرا أيضا... إنه لم يخش في الحق لومة لائم، ولم يقبل ما عرض عليه من مال وجاه وسلطان، وعاش زاهدا متقشفا مجتهدا في الله، عاملا على نشر دينه، غير عابئ بما يلاقي من أهوال، وما يعترض سبيله من عقبات، حتى مكن الله للدين الحق في الأرض فانتشر وازدهر.

□ **لورد هيدلي :**

ومن الذين درسوا الإسلام وأشادوا به وقالوا قولة الحق في نبيه الكريم : اللوردهيدلي، الذي كتب : (فكرت وابتهلت أربعين عاما لكي أصل إلى الحقيقة. ولابد أن أعترف أن زيارتي للشرق المسلم ملأتني احتراما للدين المحمدي السلس، الذي يجعل المرء يعبد الله طوال مدة الحياة لا في أيام الأحد فقط. وإني أشكر الله أن هداني للإسلام الذي أصبح حقيقة راسخة في فؤادي، وجعلني ألتقي بسعادة وطمأنينة لم ألتق بها من قبل. لقد كنت في سرداب مظلم، ثم أخرجني الإسلام إلى فسيح من الأرض، تضيئه شمس النهار، فأخذت أستنشق هواء البحر النقي الخالص).

ويتحدث لورد هيدلي عن شخصية محمد بن عبد الله باعتباره المثل الأعلى فيقول : (إن للنبي العربي أخلاقا قوية متينة، وشخصية وزنت ومحصت واختبرت في كل خطوة من خطى حياته، ولا نقص فيها على الإطلاق، وبما أننا في حاجة إلى نموذج كامل يفي باحتياجاتنا في الحياة، فشخصية محمد النبي المقدس تسد تلك الحاجة : فهي مرآة تعكس علينا التعقل الراقي، والسخاء والكرم والشجاعة، والإقدام والصبر والحِلم، والوداعة والعفو والتواضع والحياء، وكل الأخلاق الجوهرية التي تكون الإنسانية في أسمى صورها. وإنا لنرى ذلك في شخصيته بألوان وضاءة).

□ **ما يكل هارت :**

وهذا ما يكل هارت... عالم الفضاء الشهير، الذي أغرم بالعظمة في الرجال، وتتبع الخالدين منهم. وقد ألف كتابا بعنوان «الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله». وما يكل ليس مسلما ولكنه باحث أميركي مسيحي. وقد اختار مائة شخصية من الشخصيات التي تركت أثرا بارزا في حياة الإنسانية، واختار الرسول الأعظم محمدا ﷺ على رأس المائة. وهذا اعتراف من الغرب ولا ريب بفضل رسول الله ﷺ، وفضل الإسلام على البشرية والحضارة، ولنسمع ما يقول ما يكل في كتابه :

(إن محمدا عليه السلام هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحا مطلقا في المجال الديني والدنيوي، فهو قد دعا إلى الإسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات. وأصبح قائدا سياسيا وعسكريا ودينيا. ورغم مرور ثلاثة عشر قرنا على وفاته فإن أثره لا يزال متجددا.

وقد استطاع مع المؤمنين بدعوتهم أن يقيموا إمبراطورية واسعة ممتدة من حدود الهند حتى المحيط الأطلسي، وهي أعظم إمبراطورية أقيمت في التاريخ حتى اليوم. وقد نشروا الإسلام في كل بلد دخلوها. والرسول محمد هو المسؤول الأول والأوحد عن إرساء قواعد الإسلام وأصول الشريعة والسلوك الاجتماعي والأخلاقي وأصول المعاملات بين الناس في حياتهم الدينية. كما أن القرآن قد نزل عليه وحده، وفي القرآن وجد المسلمون كل ما يحتاجون إليه في دنياهم وآخرتهم).

□ **دكتور جرنييه :**

ويتحدث دكتور جرنييه عن سبب إسلامه بسعادة كبيرة ثم يقول : (لقد قرأت الآيات التي ترتبط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية، وقمت بعمل دراسة عنها، ثم قارنتها بالمعلومات الطبية والصحية والطبيعية التي درستها بالجامعة، فوجدت الآيات القرآنية منطبقة عليها تمام الانطباق.

ولقد أسلمت لأني تأكدت من أن محمدا ﷺ أتى بالحق الصراح من قبل أن نصل إليه في عصرنا الحديث بأكثر من ألف عام. وأكاد أجزم لو أن كل صاحب فن أو علم قارن بين ما جاء في القرآن الكريم خاصا بعلمه أو فنه وبين معلوماته الحديثة ـ كما فعلت أنا ـ لدخل في الإسلام كما دخلت إلا من كان معرضا أو في قلبه مرض).

□ **رينيه جينيو :**

أو عبد الواحد يحيى كما سمى نفسه بعد إسلامه. إنه يقول : (لقد أردت أن أستعصم بنص إلهي مقدس، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فلم أجد ـ بعد الدراسة الطويلة العميقة المضنية ـ سوى القرآن الكريم. فهو الكتاب الوحيد الذي أقنعني، وأمن على ما جاء في قلبي. ورسول الإسلام هو الرسول الذي أحببته، وسعدت بالسير تحت لوائه، وغمرتني أقواله وأفعاله بالسعادة النفسية والسكينة الروحية. ولولاه ﷺ لغرقت الإنسانية في بحار المادية والإلحاد، والانحلال الخلقي والدمار الروحي).

ثم يقول عن الثقافة الإسلامية وأثرها في الغرب : (لقد كانت الثقافة والعلوم الإنسانية منبع نور وهداية، ولولا علماء الإسلام وفلاسفتهم لظل الغربيون يتخبطون في دياجير الجهل والظلام).

□ **ألفونس دينييه :**

وهذا الفنان المصور العالمي : ألفونس أتيين دينييه، الذي اعتنق الإسلام بعد فترات طويلة من التأمل والتفكير، وتسمى باسم ناصر الدين، وكان ناصر دين الله، لم يدخر وسعا في سبيل الدفاع عنه، وتصحيح المفاهيم التي نشرها المستشرقون عن حقيقة الإسلام.

وقد ألف كتابا في السيرة النبوية أهداه إلى أرواح الشهداء الذين استشهدوا في الحرب الكبرى. يقول ألفونس : (العقيدة المحمدية لا تقف عقبة في سبيل التفكير... وقد يكون الإنسان مسلما صحيح الإسلام وفي الوقت نفسه حر التفكير).

ويقول : (الدين الإسلامي لم يتخذ فيه الإله شكلا بشريا وما إلى ذلك من الأشكال. إن ياهو (إله اليهود) الذي يمثلون به الطهارة ويجعلونه في مظاهر متهالكة مبتذلة. وكذلك نرى الإله في نسخ الأناجيل المصورة. أما الإله في الإسلام فقد حدثنا عنه القرآن، وحدثنا عنه الرسول، ولم يجرؤ مصور أو نحات أن تجري به ريشته أو ينحته إزميل. ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لا صورة له ولا حدود ولا شبيه له أو مثيل. وهو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد).

□ **تولستوي :**

أما تولستوي الكاتب الروسي الكبير فقد ساءه أن يوجه أعداء الإسلام سهامهم إليه وإلى نبيه الكريم، وكتب يقول : (لا ريب أن هذا النبي من كبار المصلحين، الذين خدموا الإنسانية خدمات جليلة، ويكفيه فخرا أنه هدى أمته بأكملها إلى نور الحق، وجعلها تجنح إلى السلام، وتكف عن سفك الدماء. كما يكفيه فخرا أنه فتح الطريق إلى الرقي والتقدم، وهذا عمل جليل لا يقوم به إلا شخص أوتي قوة وحكمة وعلما فوق إمكانيات البشر. ولهذا فهو جدير بالتقدير والاحترام والإجلال).

□ **رجاء جارودي :**

وهذا رجاء جارودي، الذي من الله عليه بالإسلام بعد رحلة طويلة قضاها بين الأديان والعقائد والايديولوجيات المختلفة وعندما درس الإسلام وعرف حقيقته؛ كفر بما عداه، وصاح معلنا أنه لم يعد يستطيع الصمت. ثم قرر أن الإسلام هو الدين الحق، وأن فيه الحل الوحيد لإنقاذ البشرية، التي تحتضر في مواجهة المصير المظلم، الذي أوصلتها إليه أديانها البالية وأيديولوجياتها الخداعة الفاشلة، ويتحدث جارودي باستفاضة عن الإسلام ومستقبل الإنسانية ويقول : (إن الحضارة الجديدة تنبع من الإسلام عقيدة ومنهج حياة).

وينتقل إلى الحديث عن سماحة الإسلام فيقول : (لقد اعترف القرآن بأهل الكتاب ـ أصحاب التوراة والإنجيل ـ وترك لهم حرية الاختيار بين ما هم عليه وبين الدخول في الإسلام. والرسول محمد ﷺ يقول : «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى» فالناس يتمايزون في الإسلام بالتقوى، ويتفاضلون بالعمل الصالح، لا بالغنى والجاه والحسب والنسب ـ والكل أمام الله سواء ـ فلا طبقية ولا أمم مختارة

أو عناصر متميزة. فالإسلام دين الإخاء والتكامل الاجتماعي والمساواة في أجمل صورها.

ولم يكن الإسلام في حاجة إلى القوة أو السلاح لكي ينتشر، لأن طبيعته وأحكامه وسماحته والقدوة الحسنة التي كانها رسوله، قد فتحت الطريق إلى قلوب الناس. ويشير جارودي إلى الحديث النبوي الشريف : «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» - وهو جهاد النفس ضد أهوائها ونزواتها، كالظلم والطمع والأنانية والأثرة، والضعف وحب المال والتكالب عليه. ثم يقول : إن هذا الموقف النبوي العظيم درس هام لأولئك الثوريين الذين يريدون تغيير كل شيء إلا أنفسهم.

ثم يستعرض جارودي عددا من الأحاديث النبوية الشريفة ويبين ما فيها من جمال وإنسانية مترفعة، ويركز جارودي على الحديث الشريف : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه». والحديث الشريف : «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره». والحديث الشريف : «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه». والحديث الشريف : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» ثم يقول جارودي : (هذه الأحاديث دستور عام ينبغي على المسلمين أن يلتزموا به في حياتهم، باعتبارهم أمة ذات أهداف كريمة على أسس قويمة، فهو دستور يصون حقوقهم فيما بينهم، ويرمي إلى قيام صداقة حقيقية ومحبة صادقة قوية توثق علاقة المؤمن بالمؤمن، وتجعلهم بحق كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا).

□ ريون باسورث سميث :

يقول هذا العالم، وهو أستاذ بجامعة أكسفورد في محاضرة ألقاها بعنوان : «محمد والمحمدية» 1874 م : (لا نجد فيما كتبه المؤرخون الأولون عن محمد ورسالته أساطير ولا أوهاما ولا مستحيلات... كل شيء واضح وضوح النهار... وكأنه الشمس في الضحى يتبين تحت أشعتها كل شيء... والعجيب أنه لا يوجد شخصية علمية كتب عنها طول العصور ما كتب عن محمد رسول الإسلام).

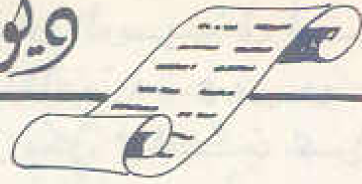
□ مرجليوث :

وذكر مرجليوث في كتابه «محمد» المطبوع 1905م في سلسلة عظماء الأمم : (إن الذين كتبوا في سيرة محمد لا ينتهي ذكر أسمائهم، وإنهم يرون من الشرف للكاتب أن ينال المجد بتبوئه مجلساً بين الذين كتبوا عن سيرة هذا الرسول). وتذكر مجلة المقتبس - التي كان يصدرها محمد كرد علي منذ أكثر من ثمانين عاما - أنها أحصت ما ألف في السيرة النبوية بلغات أوروبا فبلغ ألفا وثلاثمائة كتاب : فكيف بما ألف خلال الثمانين عاما الأخيرة بمختلف اللغات وباللغة العربية ؟؟

سيدي يارسول الله..

يا أشرف المرسلين وخاتم النبيين.. يامن عليك صلى الله والملائكة أجمعون.. كيف السبيل إلى إحصاء وجوه العظمة في شخصيتك ؟

إن لكل عظيم في هذا الدنيا وجها من أوجه العظمة يتميز به.. وأنت قد تميزت بكل وجوه العظمة... فكنت الكمال المطلق في الحدود الإنسانية... وكنت المصطفى والمتفوق على الجميع.. ومهما حاول ويحاول العلماء والمفكرون فلن يستطيعوا إحصاء جونب العظمة في شخصيتك.



ديوان المجلة

قصائد:

وعلّمنا بناءَ المجدِ

أمير الشعراء
أحمد شوقي

نبيّ البرّ، بيّنه سبيلا ... وسنّ خلاله وهدى الشعابا
تفرّق بعد عيسى الناسُ فيه ... فلما جاء كان لهم مُتابا
وشافي النفسِ من نزعات شر ... كشاف من طبائعها الذئابا
وكان بيانه للهدي سبلا ... وكانت خيله للحقّ غابا
وعلّمنا بناءَ المجدِ حتى ... أخذنا إمرةَ الأرض اغتصابا
وما نيلُ المطالبِ بالتمنّي ... ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
وما استعصى على قوم مَنال ... إذا الإقدام كان لهم ركابا

* * *

تجلّى مولدُ الهادي وعمّتْ ... بشائرُه البوادي والقصابا
وأسدتْ للبريّةِ بنتُ وَهْبٍ ... يداً بيضاء طوّقتِ الرقابا
لقد وضعته وهّاجاً منيرا ... كما تلد السّماوات الشهابا
فقام على سماء البيت نوراً ... يُضيءُ جبالَ مكةَ والنقابا
وضاعت يثربُ الفيحاءُ مِسكاً ... وفاح القاع أرجاءً وطابا
أبا الزّهراء قد جاوزتُ قدري ... بمدحك بيد أنّ لي انتسابا
فما عرف البلاغةَ ذو بيان ... إذا لم يتّخذك له كتابا

* * *

مدَحْتُ المالكين فزِدْتُ قــدرًا
فحين مدحتُكَ اقتدتُ السّحابا

سألتُ اللهَ في أبنــــاء ديني
فإن تكنِ الوسيلةَ لي أجـــابا

وما للمسلمين سواكَ حصـــن
إذا ما الضرّ مسّهُمو ونـــابا

كأنّ النّحسَ حين جرى عليهم
أطار بكلّ مملكةٍ غرابــا

ولو حفظوا سبيلكَ كان نورًا
وكان من النحوسِ لهم حجابا

* * *

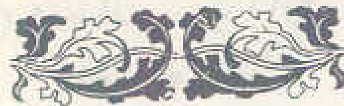
بنيت لهم من الأخلاق ركنــا
فخانوا الرّكن فانهدم اضطرابا

وكان جنابهم فيها مهيبــا
وللأخلاق أجدر أن تهــابا

فلولاها لساوى الليث ذئبًا
وساوى الصّارم الماضي قرابا

فإن قرنت مكارمها بعــلم
تذللت العلا بهما صعــابا

وفي هــذا الزمان مسيح علم
يردّ على بني الأمم الشّبابا



من الشعر الصوفي الوجداني

علامَ النِّفاق ؟

للشاعر محمد بن محمد العليمي

أرى في النفــاق العــذاب المهين، فـلازم أخي نخبــة الســالكين،
وصفـوة أهـل الصفــاء اصطحب، وخف ربـك الحق في كـل حين !
لقــد علم السر دون غمــوض، فما خفيت عنـه كـل الظنـون !
مغـالطـة النـاس ليست تـدوم، فـآذانهم هــاهنـا والعيـون !
وربي على كـل شيء شهيــد؛ رقيب، محيــط، قــوي، متين !
وإن اللطيف الخبير لقـــد تبرأ من كـل غـــدر يهــون !
عـلام النفــاق ؟! وفي عمقنــا وضـوح لجـوهرنــا يستبين ؟!
فمرآتنـــا رسمت ذاتنـــا، أمــام إلــه بــه نستعين !
ومهمـا تكن عنـدنـا من خفـايـا، فســوف تلــوح لمن يبصرون !
وأهــل النفــاق، وإن ربحـوا قليـلاً، فهم دائمــا خــاسرون !
لأن النفــاق ظــلام الضمير؛ وفي بحره غرق الحــاقــدون !
فــإن النفــاق سبيـل الشكـوك وفي الشـك شرك فهـل ينتهـون ؟!
عـلام النفــاق ؟! وأحــلامــه قصـار، يهيم بهـا الغـافلـون ؟!

ونـــــار جهنم يـــوم الحســـــاب، أعــدت مــدى الـــدهر للمشركين !
وللــــــــه نــــــور مبين، يتم ضيـــــاه، ولــو كره الكـــــافرون !
ومهمــــــا نكتم لنــــــا نيــــــة، فـــإن البرايـــــا بهـــــا يعلمـــون !
ولا ترتجى أبــــــدا راحـــــــة، مع النـــاس فيمـــا همو يصنعـــون !
مصــــــالحهم، ومفـــــــاتنهم، لقـــد مجهـــا كـــل من يفهمـــون !
إذا مـــا بنـوا، هـــدمـوا مــــا بنـوا، بمـــــا اجترحــــوه، ولا يشعرون !
فــــإن النفــــاق لهم طــــابــع، لكم يبــــدعون لـــــه من فنـــون !
فرحت بعـــــزلـــــة نفسي، وكم أنست بعشـــق قـــديم دفين !
فمـــــــا من ولي، نصير، حليم، سميـــع لمــــــا اشتكي من أنين !
ســوى اللــــه ربي، ورب الـــورى؛ عليم بحـــــالي، لــــــه أستكين !
لــــــه يطمئن فـــؤادي دومــــاً، وفي الحصــــانـــــة للخــــائفين !
عفــــــو، غفـــــور، رحيم، ودود وفيـــه الهــــدايــــة للحـــائرين !
ووقت التـــــــــلاعب وقت قصير، فيـــا ويحنـــا من هجـــوم المنـــون !
حـــــذار ! فربـــــك مقتـــــدر، لقــد قـــال للشيء : كن، فيكــون !
فــلاتـــك مستهـزئــاً مــؤذيــــا، وإيـــــاك في منهـــج أن تخـــون !
وإيــــاك من حســــد شــــائن ! وإيــــــاك في شــــدة أن تلين !
وفي الشرف الكنـــــز مــــــدخر، فنعم الرصيــــــــد العظيم الثمين !
وإيـــــاك من مغريــــــات الغرور، فــلا فــوز يـأملـــه الجـاهلـون !
ومن بــــاع دينـــا بــدنيـــا فقـــد تقــاعس عن غـــايـــة الـــواصلين !
فبـــــالصــــدق والصحـــوة اتضحت أمـــــــام البصيرة شمس اليقين !
وتـــدبير ربــــك فـــوق النهى، ومـــــا يتـــوهمــــه العـــالمـون !
ومن يتــــوكـــــل على ربــــــه، كفـــاه بمـــــا كـــان أو سيكـون !
قـــد اختــــارنـــا، وهـــو أولى بنـــا، فنعم الــولي، الحميـــــد، الحنين !
ودبر للخلـــــــــــــق أجمعهم، فكـــــان الخبير بكـــل الشـــؤون !

ففي اللـــه كـــل الكفـــايـــة قـــد　　تجلت إذا ســـأل الســـائلـــون !
وفيـــه العنـــايـــة تسبي العقـــول،　　وفيـــه الرعـــايـــة للمخلصين !
وفي الحمـــايـــة فـــوق الحـــدود،　　وفي ضمانـــة من يـــؤمنـــون !
وليس كمثلـــه شيء، فقـــد،　　أحـــاط برحمتـــه العـــالمين !
وليس يخـــاف الإلـــه العظيم،　　ســـوى العلمـــاء، فهم واصلـــون !
ومـــائـــدة الفضـــل يـــدعى إليهـــا　　من اختـــاره اللـــه في الصـــالحين !
فـــلا يقرب الغش أهـــل الحجى؛　　ولا يغـــدرون مع المـــاكرين؛
ولا يكـــذبـــون، ولم يخلفـــوا　　مـــواعيـــدهم، وهمـــو ينصفـــون؛
ولم ينكثـــوا عهـــدهم أبـــدا،　　وأي أمـــان مـــع النـــاكثين ؟!
وأهـــل الصراحـــة، أهـــل العـــلا،　　يعيشـــون في شرف آمنين :
لقـــد بـــايعـــوا اللـــه إذ أعلنـــوا　　ولاء بـــه يسعـــد الطـــائعـــون !
ومن كـــان بـــاللـــه، كـــان لـــه　　أعـــز حبيب، وأقـــوى معين !
هـــو الحـــق ! مـــا دونـــه عبث !　　فـــلا ربـــح في عبث العـــابثين !
لـــه الملـــك، والأمر أجمعـــه !　　فنعم الرجـــاء لـــدنيـــا ودين !
إذا رضي اللـــه عن عبـــده،　　فمـــا من سبيـــل على الآخرين !
فـــذو الفضـــل فـــوق جميـــع الرؤى　　يقينـــاً، ومـــا يصف الـــواصفـــون !
ومنـــه الشفـــاعـــة تشملنـــا،　　ـ إذا شـــاء ـ من سيـــد المرسلين !
ففي الـــواحـــد الأحـــد المرتجى،　　بيـــوم القيـــامـــة خير ضمين !
مـــع اللـــه تصفـــو جميـــع النـــوايـــا،　　ويقترب النصر للمـــؤمنين !
ففي فطرة النفس خـــط قـــويم؛　　وتلـــك الســـلامـــة للمـــلمين !
وإن التصنـــع صنـــو الريـــاء،　　فبئس المطيـــة للجـــاحـــدين !
وإن التشـــدق ليس يليـــق،　　ســـوى بـــالـــزنـــادقـــة المرجفين !
ومن ـــ فتـــوا الحـــدوا، فهمـــو　　شرار، ورهـــط لئيم، لعين !

وفي السر والجهر من أخلصـــــو، يفـــوزون قطعـــا بعـــز مكين !
ففي الخير حســـا ومعنى تجلى لعمـــق البصـــائر نـــور مبين !
ومن كـــان يرجـــو لقـــاء الإلـــه، فقـــد كـــان حقـــا مع الفـــائزين !
ســلام على الصـــدق في الأولين ! ســـلام على الحـــق في الآخرين !
فبئس النفـــاق وأصحـــابـــه ! ونعم التنـــاصـــح في العـــارفين !

○

● ●

عـــلام النفـــاق ؟! ونحن لنـــا بـرب الهـــدى، ثقـــة المتقين ؟!
فمن يعتصم بـــالكريم الجـــواد، يفـــز بـــالفـــلاح مـــع المفلحين !

الرباط - محمد بن محمد العلمي



ملامح من الترجمة العلمية للفقيه

محمد بن بوبكر التطواني

1318 - 1410
1901 - 1989

للأستاذ محمد المنوني

أثارت وفاة الفقيه التطواني موجة من الأسف على فقد عالم يتمتع باحترام عارفيه ومقدري فضله، فكان المصاب به جسيما، والرزء بفقده كبيرا، وذلك ما عبر عنه زمرة من الأساتذة والكتاب المرموقين، في ارتسامات تتابع نشرها خلال فترة الأربعين بعد وفاة الراحل الكريم.

وتحاول هذه المساهمة تبريز جوانب من الحياة العلمية للفقيه محمد بن أبي بكر التطواني، فنشير - أولا - إلى خبرته النادرة بالمصادر الأصيلة، ورصده لمكان الإفادة الخبيئة في ثناياها، ميزة بارزة اكتسبها من ثقافته التاريخية والحديثية، بالإضافة إلى مشاركته في حملة من المواد العربية، فضلا عن عكوفه على المطالعة الفاحصة، لكل كتاب مر بيده، ويا ما أكثر ما وقف عليه من المؤلفات، ومن عادته أن لا يقرأ الكتاب من فهارسه، وإنما يتتبعه - متأنيا - من بدايته حتى نهايته، دون أن يغفل التوقيفات بالهوامش على مواضع الإفادات التي تثير انتباهه، وذلك كله واحد من الاقتباسات التي أفادها من منهجية أستاذه الشيخ عبد الحي الكتاني، وقد كانت كثيرة، كثرة ملازمته له ملازمة الظل للشاخص، مدة تزيد على العشر سنوات.

وتجاوبا مع هذا الاطلاع المصدري للمترجم، صاريته - بلا - قبلة لأصناف المستفيدين : علماء وأساتذة وطلابا، مغاربة ووافدين ومستشرقين، يستطلعونه الإفادة والاستشارة، فيصدرون عنه وقد حدد لهم الكتاب اسما ومضمونا، فضلا عن إعارة سخية عند الاقتضاء، وبهذا كانت مساعداته ثمينة لجمهرة الباحثين المغاربة وسواهم، ومن حقه عليهم أن يدينوا له بالفضل الكبير والإفادة الغنية.

☆☆☆

إن هذه الحياة العامرة بالاتصالات العلمية، قلصت أوقات الفراغ للمترجم، فكان ذلك من أسباب قلة آثاره المكتوبة، على أن هذا القليل أصدره مستكملا لمتطلبات البحث، فيتتبع المصادر والمراجع، ويحلل ويستنتج، ثم يصوغ ذلك في أسلوب يأخذ من محاسن القديم ومباهج الحديث، إلى ما يتخلله من استطرادات ممهدة، واجتماعيات شاهدة، وبين الأونة والأخرى تتناثر من قلم المؤلف التلميحات بعد التلميحات، إلى نكت هادفة ومرحة، وبذلك جاءت كتابات الفقيد في نمط متميز بروعته وطرافته.

1 ـ وسياتي في مقدمة أبحاثه كتابه القيم : «ابن الخطيب من خلال كتبه»، وهو الذي نال بالاشتراك أول جائزة لمعهد مولاي الحسن للأبحاث بتطوان سنة 1948، وبذلك نشره المعهد في قطع صغير، وصدر في جزءين : الأول سنة 1954، والثاني 1959 : 143 × 150 ص، مطبعة كريماديس بتطوان.

2 ـ ومن أبحاثه الأخرى : دراسة «حول القرطاس ومؤلفه ابن أبي زرع» منشورة بمجلة «الثقافة المغربية» على امتداد ثلاثة أقسام : عدد 6 من السنة الثانية ص 163 ـ 166، مع عدد 8 من نفس السنة ص 234 ـ 239، ثم عدد 9 ـ 10 «مزدوج» من السنة الرابعة ص 480 ـ 483، سنة 1943، 1945.

3 ـ ثم دراسة عن «سفارة أبي إسحاق الشيرازي» من المقتدي العباسي إلى الملك شاه السلجوقي، من منشورات مجلة «رسالة المغرب» في ثلاثة أقسام : عدد 10 من السنة الأولى ص 6 ـ 10، مع عدد 1 من السنة الثانية ص 6 ـ 8، ثم عدد 2 من السنة ذاتها ص 27 ـ 28، سنة 1943.

4 ـ دراسة بعنوان «الدولة الشريفة وعنايتها بالقرويين»، مجلة «رسالة المغرب» عدد 11 من السنة الأولى : ص 33 ـ 39، سنة 1943.

5 ـ دراسة بعنوان «ذكرى الزيارة الملكية لمدينة طنجة»، مجلة رسالة المغرب» عدد 8 ـ 9 «مزدوج» السنة السابعة : ص 452 ـ 462، سنة 1948.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الدراسة وسابقاتها، ليست سوى نماذج محدودة من إنتاج الفقيد، وفي هذا الصدد نحيل على مقالاته خلال العشرينيات في جريدة «الشهاب»، كما نشير إلى ما دبجته يراعته في مناسبات عيد العرش خلال الأربعينيات، حيث كانت موضع تقدير رسمي، ونال بها ـ بالتتابع ـ ثلاث جوائز ملكية أعوام 46، 47، 1948، ومن حسن حظي أن كنت زميله في هذه الجوائز، ومعنا ـ في اللوائح ـ نخبة من جلة أدباء المغرب المرموقين.

وفي اتجاه وفائه للعلماء، كتب ـ في نفس الفترة ـ مقالات رثى بها ثلاثة من جلة العلماء : المؤرخ ابن زيدان، والقاضيين : محمد بن أحمد العلوي. ومحمد بن عبد السلام السائح، والأخيرتان من منشورات جريدة «العلم».

وللفقيد خدمات علمية من طراز ءاخر. فكانت له اليد البيضاء في الحصول على نوادر المخطوطات والأصيل من المطبوعات، يقتنيها من المغرب، ويسافر ـ في سبيلها ـ إلى المشرق، ثم يفضل ببيع الكثير منها إلى الخزانة العامة بالرباط وبذلك فإن اسمه في دفاتر مشتريات هذه المؤسسة، يطغى على أسماء المتعاملين معها.

وإذا تجاوزنا خزانة الرباط، فإن الخزانة العلمية الصبيحية بسلا، لن تنسى المساعدات الثمينة التي كان الفقيد يقدمها لها، مما هي جديرة به كمؤسسة فريدة في نوعها عبر العالم العربي من المحيط إلى الخليج.

☆ ☆ ☆

ولمكانة الفقيد العلمية كان من الذين كتبت ترجمتهم في حياتهم، فيترجمه الأستاذ عبد الله الجراري في «التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين» ص 104 ـ 105، ثم كانت حياته موضوع بحث الإجازة من عمل ابنت المرحوم الطالبة السيدة أسماء، وقبل هذين المصدرين ترجمه الشيخ منير الدمشقي، في كتابه «نموذج من الأعمال الخيرية في إدارة الطباعة المنيرية»، وقد نوه به ـ ص 104 ـ ضمن القسم الذي عرض به زمرة من عيون الكتبيين المعاصرين على امتداد البلاد الإسلامية، فيأتي ذكر الفقيد هكذا : «ومنهم الفقيه السيد محمد بن أبي بكر التطواني السلاوي، ولد ءاخر سنة 1318 بسلا، ورحل لطلب العلم إلى فاس سنة 1339، وأخذ عن الشيخ عبد الحي الكتاني، وعبد الله الفضيلي. وأحمد بن المامون البلغيثي. وعبد السلام بن عمر العلوي. والسيد الإمام محمد بن جعفر الكتاني. والراضي الحنش. وابن القرشي. وعبد العزيز بناني.

وشعيب الدكالي. وغيرهم، وأكثر من ملازمة الشيخ عبد الحي الكتاني، وانتفع به في معرفة الكتب والأجزاء، ومن ثم اشتغل بالبحث والتنقيب عن الكتب الغريبة والمخطوطات النفيسة، وصار مشتغلا بالتجارة فيها مع عدم انقطاعه عن الطلب...»، انتهى كلام الشيخ منير بلفظه.

وأضيف له فقرة للمترجم سجل بها شيوخه ـ بسلا وفاس ـ في صحيح الإمام البخاري : «وأرويه ـ ما بين سماع وقراءة من أوله إلى ءاخره ـ عن شيخنا الإمام الزاهد القدوة، سيدي أحمد ابن الفقيه الجرايري السلاوي، لم يفتني منه ولو مجلسا.

وأريه ـ قراءة ـ على شيخنا أوحد المسندين، المحدث المؤلف الراوية : سيدي عبد الحي بن الشيخ عبد الكبير الكتاني : قراءة إلى كتاب الصلاة، وإجازة للباقي.

وأرويه عن شيخنا الإمام العلامة : سيدي أحمد بن المامون البلغيثي الفاسي : قراءة لمواضع منه.

وعن شيخنا سيدي عبد العزيز بناني كذلك.

وعن شيخنا ووالدنا سيدي أبي بكر التطواني كذلك.

وعن شيخنا الخطيب : سيدي علي عواد كذلك.

☆☆☆

وإلى الدراسة أحرز المترجم على عدة إجازات، وكان أولها من جهة الشيخ عمر حمدان المحرسي التونسي الأصل، والمجاور بالمدينة المنورة، وقد وفد على فاس يوم 13 ربيع الثاني عام 1340، واستمر بها نحو ستة أشهر في ضيافة الشيخ عبد الحي الكتاني، وبذلك اتصل به المترجم، وسمع عليه الكثير رواية ودراية، ثم كتب له إجازة مطولة بتاريخ 25 رجب 1340.

وبتاريخ 19 شوال 1344، كتب له الشيخ الكتاني إجازة عامة، وهي التي كرر مضمونها بآخر كتابه «فهرس الفهارس».

☆☆☆

وبعد : فقد سبقني للحديث عن الفقيد العزيز ثلة من الأساتذة والكتاب، فنوهوا بأخلاقه في مجالسه، وفي تعامله مع أصدقائه ومع العموم، فضلا عن سلوكه الإسلامي وكفاحه الوطني.

رحم الله ـ سبحانه ـ الفقيه التطواني، وأسكنه في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وألحقنا به مسلمين مومنين.

وجعل من ذريته ـ سادة وسيدات ـ خير خلف لخير سلف.

الرباط : محمد المنوني



حرب أفغانستان

وتأثيرها على الشعوب الإسلامية وعلى شعوب أوربا الشرقية

للأستاذ عبد القادر القادري

يخطئ من يعتقد أن حرب أفغانستان هي حرب محلية مثل حروب أنغولا وموزامبيق وارتريا والسالفادور وكامبوديا ولم يكن لها تأثير خارجي على الشعوب. والحقيقة التي لا مناص منها أن حرب أفغانستان قد قلبت الأوضاع في أنظمة شعوب الاتحاد السوفياتي وشعوب أوربا الشرقية ذلك أن الخوف الذي كان يسيطر على هذه الشعوب بدأ يزول شيئا فشيئا حيث رأت هذه الشعوب بثاقب نظرها كيف تمكن الشعب الأفغاني من مقاومة الغزو الروسي لبلاده زهاء تسع سنوات بالتمام والكمال 1979 - 1989 إلى أن اضطر الجيش السوفياتي إلى الخروج من أفغانستان والحال انها بلاد فقيرة ومتخلفة ولا يتعدى سكانها 18 مليون نسمة وشتان ما بينها وبين الاتحاد السوفياتي ثاني أقوى دولة في العالم من الناحية السياسية والعسكرية والاقتصادية. وبالرغم من كثرة الدراسات والبحوث والكتب التي صدرت في الشرق والغرب وتناولت حرب أفغانستان جملة وتفصيلا فإنها قد خلت من الجانب التأثيري الذي نحن بصدد بيانه وشرحه خدمة للتاريخ الإسلامي فبمجرد انسحاب الجيش السوفياتي من أفغانستان في يبراير من السنة الجارية بدأنا نسمع في الإذاعات المحلية والخارجية ونرى في التلفزة المغربية والقناة الفرنسية الخامسة لأوربا ونقرأ في الصحف الوطنية والدولية أخبارا عن تحركات ومظاهرات تقوم بها شعوب إسلامية في جمهوريات تاجكستان وعزبكستان وداغستان وقازخستان وتركمنستان وتتاريا وبشكريا وقفقاسيا واذربيجان والقرم مطالبة بتغيير أحوال معيشتها وتحسين أوضاعها السياسية والاجتماعية والثقافية وبدأ المجاهدون الأفغان يدخلون إلى هذه الجمهوريات الإسلامية الداخلة في الاتحاد السوفياتي ويتصلون بشعوبها التي ترتبط بأقوام أفغانستان برابطة العرق والمصاهرة، ويوزعون عليهم كتب سيد قطب والمودودي والندوى كما أن الطرق الصوفية الكبرى مثل النقشبندية والقادرية والكبراوية تتصل باتباعها في الجمهوريات المذكورة تحت جنح الظلام عبر حدود أفغانستان المتصلة بحدود الجمهوريات الآنفة الذكر مما دفع رجال الكرملين إلى إعطاء الأوامر لحراس الحدود بتشديد

الحراسة على الحدود الأفغانية التي تجاور حدود الجمهوريات الإسلامية الداخلة في الاتحاد السوفياتي ولم يقتصر تأثير حرب أفغانستان على شعوب هذه الجمهوريات بل تعداها إلى روسيا نفسها. فالشيوعية التي طرحت نفسها جنة للعمال تعاني اليوم من الاضطرابات العمالية تطلعا إلى تحسين الأوضاع المعيشية. فالزعيم السوفياتي غورباتشوف وصف اضراب العمال في المناجم (على أنه طرح المسألة بطريقة صحيحة ترغم الحكومة على استخراج العبر الضرورية لا زالة كل ما يزعج العمال) وقامت مظاهرات في موسكو تطالب بالحريات العامة وفتح الكنائس. فالشيوعية التي اعتبرت الدين «أفيون الشعوب» بدأت الآن بعد المظاهرات تعود إلى احترام الأديان السماوية الثلاثة وتسمح بحرية وفتح المساجد والكنائس والبيع كما قامت مظاهرات في 18 سبتمبر 1989 الماضي باكرانيا طالب فيها المتظاهرون بإعادة النظام الكنائسي في البلاد ونقلت وكالة طاس السوفياتية في أواخر غشت 1989 عبر خطباء بجمهورية جورجيا السوفياتية ـ موطن ستالين ـ مطالبتهم انشقاق هذه الجمهورية وبإخلاء القوات السوفياتية عنها وإحلال وحدات جورجية محلها. هذا ما حدث بالفعل في روسيا السوفياتية أما ما حدث في أوروبا الشرقية فحدث عنه ولا حرج فجمهوريات البلطيف : (ليتوانيا واستونيا وليتونيا) طالبت بالاستقلال التام غير أن الزعيم السوفياتي غورباتشوف قال لها : نعم للاستقلال الاقتصادي ولا للاستقلال التام ووافق مجلس السوفيات الأعلى بموسكو على إعطاء هذه الجمهوريات استقلالا اقتصاديا ابتداء من العام المقبل 1990. وفي بولندة حققت منظمة التضامن La solidarité ما كانت تصبو إليه من انتخابات حرة وتكوين حكومة وطنية غير شيوعية حيث نصبت هذه المنظمة يوم الثلاثاء 12 سبتمبر 1989 هذه الحكومة وعلى رأسها عضو غير شيوعي هو تادوس مازويكى ولم يتردد البرلمانيون الشيوعيون من التصويت عليها وبهذا تكونت بولندة أول حكومة وطنية غير شيوعية بعد أربعين عاما من الحكم الشيوعي المطلق مما دفع الرئيس الأمريكي بوش الى التصريح بأن سيمنح لبولندة موادا غذائية قيمتها مائة مليون دولار. وفي المجر (هنغاريا) فشل الشيوعيون في الحصول على المقاعد التي كانوا يحتكرونها في الانتخابات السابقة بعد أن سمح بالتعددية الحزبية وفي تشيكوسلوفاكيا ارتفعت الأصوات تطالب بمراجعة برنامج (دوبتشيك) الإصلاحي الذي سحقه وسحق أتباعه في ثلاثة أيام تدخل قوات حلف وارسو العسكري في يودا بست عام 1968 هذا التدخل الذي حمل في التاريخ الحاضر اسم ربيع براغ الدموي وكتب عنه الكثير وأخرجت أفلام عنه رأينا بعضها في الرباط. وصادقت جمهورية السلاف (الصقالبة) مؤخرا على مسودة دستور يعطيها حق الانفصال عن يوغسلافيا ويعطيها سلاما جمهوريا خاصا ونشيدا وطنيا خاصا أخذ عن الشاعر «فرانس برس» الذي أيقظ المشاعر القومية في القرن التاسع عشر إبان سيطرة أسرة «هابسبورغ» النماوية واعترف المسؤولون بيوغسلافيا أن الاضطرابات العرقية (24 قومية في يوغسلافية) تهدد بتفكيك الاتحاد اليوغسلافي. وفي بلغاريا تخوفت الحكومة البلغارية من المسلمين الأتراك وأرادت بلغرتهم فلما رفضوا إرادتها بدأت تخرجهم من ديارهم لأن انتصار المجاهدين الأفغان أقلق راحتها ولا خفاء أن شعوب الاتحاد السوفياتي وشعوب أوروبا الشرقية كانت إلى عهد قريب لا تبدي حراكا غير أنها أثناء حرب أفغانستان وخصوصاً بعد انسحاب الجيش السوفياتي من أفغانستان بدأت تتحرك وتطالب بتحسين أوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية حتى ذهب الحال باندري ساخاروف الفيزيائي السوفياتي والحائز على جائزة نوبل للسلام طالبا في متم غشت 1989 ب (تفكيك الامبراطورية السوفييتية) «وإعطاء القوميات المختلفة حقها في جمهوريات مستقلة ترتبط فيما بينها باتحاد كونفدرالي يعني بالدفاع والخارجية والنقل والاتصالات». وقد أراد الزعيم السوفياتي الأكبر ميكائيل غورباتشوف وأوار حرب أفغانستان مشتعل سبق الأحداث فنادى بفلسفته الإصلاحية

المسماة «البيريسترويكا» - أي إعادة البناء - لتهدئة الأحوال والأفكار غير أن انسحاب الجيش السوفياتي في فبراير من السنة الحالية عجل بتفجير الأوضاع في الاتحاد السوفياتي نفسه : (داغستان عزبكستان اذربيجان - قازاخستان - ارمينيا - جورجيا - اكرانيا - سيبريا مدينة ليتغراد - كييف) وفي أوروبا الشرقية (بولندا - هنغاريا - تشيكوسلوفاكيا - يوغلافيا بلغاريا - ليتوانيا - استونيا - ليتونيا) ويرى المراقبون أن موسكو اختارت إزاء حمى الاستقلال التي انتابت بعض «الدول الشقيقة» في الكتلة الشرقية طريق الاعتدال. فهي حريصة على اسدال ستار النسيان على حقبة التدخلات الفاضحة وفرض إرادتها بالقوة لكنها لا تتردد عند أي علامة مقلقة في التذكير بقوة الروابط بين أعضاء حلف وارسو. والأحداث الأخيرة في كل من بولندا والمجر وألمانيا الشرقية تصور بشكل جيد طريق الاعتدال المتبعة من الكرملين فقد أبدى الحزب الشيوعي السوفييتي استحسانا متحفظا إزاء الخطوات الحثيثة التي قامت بها القيادة الشيوعية المجرية على طريق إطلاق الحريات. وعندما وصلت نقابة التضامن إلى الحكومة البولندية حرصت موسكو على التشديد على أن بولندا تبقى من أعضاء الحلف العسكري الاشتراكي إلا أن ميخائيل غورباتشوف كان اتصل بنفسه بالكرتير الأول لحزب العمال الموحد البولندي الشيوعي ليحثه على الموافقة على حكومة سوية، ورأت وكالة الأنباء المجرية أن من دلائل التغيير في الكتلة الشرقية أنه لم يتم بحث مسألة اللاجئين الألمان الشرقيين هذا الأسبوع (19 - 24 سبتمبر 1989) في موسكو، وقال غورباتشوف في الخطاب الذي ألقاه يوم 19 من سبتمبر 1989 في مجلس السوفيات الأعلى بموسكو أنه يجب إعادة تنظم الحزب الشيوعي.

وتقول صحيفة هيرالد تريبون الأمريكية 1989/9/18 أن الحركات المطالبة بالاستقلال في البلطيق وجورجيا وأرمينيا والنفور في مرشحي الحزب الشيوعي قد أصبحت مشاكل رئيسية لغورباتشوف والسؤال الذي يطرح هو هل يظل غورباتشوف في السلطة بعد ولكن هذا ليس شيئا مؤكدا ومازالت حرب أفغانستان تكشف كل يوم عن جانب من جوانبها الخفية فاسكندر ليفسين المتخصص في تاريخ أسيا الوسطى وشعوبها الإسلامية ومؤلف كتاب الطرق الصوفية بالاتحاد السوفياتي تحت عنوان : الكومسير والصوفي Le Commissaire et le Soufi (توفي في يوليه من العام الماضي) يرى أن سبب هذه الحرب يعود إلى خوف الكرملين من المد الإسلامي قبل شيء آخر. وبالنسبة للخبيرة هيلين ك.دانكوس Hélène Garsère d'Encausse فإنها ترى أن الغزو السوفياتي لأفغانستان لم يكن سوى إبعاد حدوده عن تهديد إسلامي جد مناضل Trop militant. ويرى روبرت ج.نيومان الأمريكي الذي قضى سنوات طويلة في العمل الأكاديمي كما عمل خبيرا للولايات المتحدة الأمريكية في أفغانستان والمملكة العربية السعودية والمملكة المغربية وهو حاليا من أبرز خبراء معهد الدراسات الاستراتيجية بواشنطن أن تخوف الاتحاد السوفياتي من وصول المد الإسلامي إلى الجمهوريات الإسلامية بآسيا الوسطى السوفياتية يشكل أحد الأسباب الجوهرية الكامنة وراء احتلال السوفييت لأفغانستان.

كل هذه الأحداث والهزات تحدث عنها صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني الذي خص الإذاعة والتلفزة الاسبانيتين بحديث صحفي في إطار برنامج : «بين قوسين»، وذلك قبيل الزيارة التي قام بها للمملكة الاسبانية ابتداء من يوم 25 شتنبر الماضي 1989، فقد طرح عليه الصحفي بأن تجري حالياً تغييرات في الدول الشيوعية، فكيف ترون البيريسترويكا والتغييرات في بولونيا وهنغاريا، فكان جواب جلالة الملك :

قبل التطرق إلى بولونيا أو هنغاريا لنتحدث أولا عن الاتحاد السوفياتي. فالسيد غورباتشوف الذي أكن له الكثير من التقدير والاحترام مع أني لا أعرفه وأرغب في لقائه لم يكن له وحي الأنبياء ولا الهام الشعراء قبل تبنيه البيريسترويكا. لقد كان له الوقت الكافي للتفكير والتحليل

والبحث عن الأفضل وتوقع الاسوء ثم أنه من جيل الشباب الصاعد الذي توفر له كل الوقت لتحليل ما يحدث في بلده. وأعتقد أن المجتمع البشري مدين له ببزوغ عالم جديد. ولاشك أنكم تقدرون أنه منذ قرابة قرن 70 سنة تغيرت الأشياء في جهة من العالم. تمتد إلى المحيط الهادئ ونحن مدينون لغورباتشوف ولفريقه بذلك. أن السيد غورباتشوف لم يخض المعركة بمفرده فمن ورائه ولاشك عدد من المثقفين الذي يشاطرونه نفس الرأي ونفس التفكير. ومؤخرا وقبل حوالي ستة أشهر قلت لمساعدي الأقربين لنبحث عما يسعى إلى تحقيقه الرئيس غورباتشوف. ثم أدركت فجأة أنه ربما يريد أن يجعل من الاتحاد السوفياتي فدرالية للدول ولا أدل على ذلك أنه قال مؤخرا خلال انعاد مؤتمر الحزب الشيوعي في معرض حديثه عن الجمهوريات التي ترغب في الاستقلال «نعم للاستقلال الاقتصادي ولا للاستقلال السياسي». والواقع أن الاستقلال الاقتصادي شيء هائل لأن كل ما هو اقتصادي له بالضرورة انعكاسات اجتماعية. فعندما نسمح لها بالشيء الكثير. وأتصور من الآن ـ وقد أكون مخطئا ـ العلم الروسي تتوسطه النجمة الكبرى تحيط بها مجموعة كبيرة من المطرقات والمناجل الصغرى تمثل فيدراليات يكون بإمكانها القيام بكل التجارب التي ترغب فيها على الصعيد الاقتصادي ولكنها ستظل على الصعيد الفدرالي أو المركزي روسية ولا أقول سوفياتية فأنا لست من خبراء شؤون الكرملين وأظن أن ما يقوم به السيد غورباتشوف حاليا هو بمثابة مباراة في الشطرنج ونعلم جميعا مدى تفوق الروسيين في هذه اللعبة.

☆☆☆

إن تلك الأحداث كانت علامة بارزة على تأثير حرب أفغانستان على شعوب الاتحاد السوفياتي وعلى شعوب أروبا الشرقية. وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإن حرب الريف التي كان بطلها المجاهد العظيم محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي انتصر في أول أمرها على إسبانيا ثم على فرنسا إلى أن غلب على أمره بعد كفاح دام زهاء خمس سنوات (1921 ـ 1926) قد أيقظت وعي الشعوب المستعمرة بالفتح التي كانت تظن أن الرجل الأبيض L'homme blanc أي الأروبي لا يقهر فاستعادت ثقتها بنفسها بسبب هذه الحرب حيث اعترف الجنرال الفيتنامي جياب giap أنه تعلم حرب العصا باب من محمد بن عبد الكريم الخطابي وطبقها حرفيا ضد الجيوش الفرنسية والأمريكية في الفيتنام Vietnam كما اعترف الزعيم الروحي الهندي غاندي أنه كان يظن قبل حرب الريف أن الرجل الأبيض لا يقهر غير أن بطولة محمد بن عبد الكريم الخطابي ورجاله الأشاويش فندت اعتقاده باستحالة قهر الرجل الأبيض وكان الاسبان في المغرب واسبانيا يخوفون أولادهم بذكر اسم محمد بن عبد الكريم الخطابي ولم يقتصر تأثير حرب الريف على شعوب المستعمرات فقط بل تعداها إلى اسبانيا نفسها حيث قام الجينرال الاسباني بريمو دو ريفيرا Primo de Rivera بانقلاب عسكري في برشلونة باسبانيا في 13 سبتمبر 1923 وأقام مجلسا عسكريا باتفاق مع الملك الفونس الثالث (1886 ـ 1939) كما أن المغاربة قد أكثروا من تسمية إنشاءهم باسم عبد الكريم ولو كان نظام الحالة المدنية موجودا في تلك الفترة لرفض الفرنسيون والاسبان تسجيل أسماء المغاربة باسم عبد الكريم. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الأمة الإسلامية وأرض الإسلام تؤثر ان في الأحداث العالمية أيما تأثير لا سبيل إلى إنكاره وجحده فقد استفاد الحلفاء في الحربين العالميتين من أرض الإسلام وأمة الإسلام كما استفاد منها قبل قادة عسكريون وقياصرة وأباطرة وملوك مثل جنكير خان وتيمورلنك وبطرس الأكبر وإيفان الهائل قيصر روسيا المسيحية ونابليون بونابارت والجنرال غوردون ولينين وليوطي وغيرهم كثير وما زالت أرض الإسلام وأمة الإسلام تؤثران في الأحداث ولا غنى عنهما في الحرب والسلم.

واليوم والأمة الإسلامية تحتفل في مشارق الأرض ومغاربها بذكرى مولد النبي الأعظم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام يتحتم عليها أن تعرف قدرها وقدر أرضها الاستراتيجية عساها أن تنصهر في بوتقة وحدة إسلامية وحدة الأجناس والألوان واللغات ـ إذ لا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى ـ على نحو ما وحد بينهم الإسلام في العصور الخوالي فكانوا مصابيح هدى ورسل حضارة وعامل سلام وباعث نهضة والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الرباط : عبد القادر القادري



الوجدات

للأستاذ عبد القادر زمامة

(989 - 1000)

989 - وحدثه ستة أحاديث...!

وجدت في كتاب : «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر الأندلسي المتوفى (463 هـ = 1070 م) ج 1 ص 50 «وقال أحمد بن محمد بن يزيد بن مسلمة الأنصاري المعروف بابن أبي الخناجر : كنت في جماعة من أصحاب الحديث على باب محمد بن مصعب القرقساني. وفينا رجل عراقي. بصير بالأدب والشعر فخرج إلينا وقال :

خطر على بالي بيت من الشعر. فمن أخبرني لمن هو حدثته. وهو :

العلم فيه حياة للقلوب كما
تحيا البلاد إذا ما مسها المطر

فقال العراقي :

- هو لسابق البربري.....!

قال الشيخ : صدقت...! فما بعده...؟

قال :

والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه
كما يجلي سواد الظلمة القمر

قال : صدقت...!

وحدثه ستة أحاديث... سمعناها منه...!

990 - من آراء ابن بري التازي في الشعر...!

وجدت في مخطوطة ديوان أبي العباس الهلالي الذي جمعه أبو الربيع الحوات المتوفى (1238 هـ = 1822 م).

«...وقال الشيخ الأديب أبو الحسن سيدي علي بن بري - رحمه الله - :

«الشعر : مطبوع. ومصنوع. فالمطبوع : الجيد الطبع. مقبول السبع. قريب المثال. بعيد المنال. أنيق الديباجة. رقيق الزجاجة. يدنو من فهم سامعه. كدنوه من وهم صانعه...! والمصنوع : مثقف الكعوب. معتدل الأنبوب. يطرد ماذا لبديع على جنباته. ويجول رونق الحسن في صفحاته. كما يجول السحر في الطرف الكحيل. والأثر في السيف الصقيل...!»

991 - يا جميل...!

وجدت في مجموعة شعرية للشاعرة الأندلسية حفصة 586 هـ = 1190 م بها أبيات وقصائد ومقطعات جاء في آخر مقطعة منها :

«وقد أملت أن تظما وتضحى
إذا وافى إليك بي المقيل

فعجـل بـــالجـواب فمـــا جميـــل

إبـــاؤك عن بثينـــة يـــا جميـــل»

992 ـ لو صحت الإجازة...!

وجدت في كتاب «تتمة المختصر» تأليف ابن الوردي (749 هـ = 1349 م) عند كلامه على وفاة أبي الوليد الباجي... ج 1. ص 573.

...وهو أحد أيمة المسلمين....

وكان يقول : سمعت أبا ذر عمر بن أحمد الهروي يقول :

ـ لو صحت الإجازة... لبطلت الرحلة...!».

993 ـ السبكي، يترجم للمهدي.

وينقل عن المراكشي...!

وجدت في كتاب «طبقات الشافعية» للسبكي. ج 6 ص 109. ط. ثانية... يترجم للمهدي بن تومرت...! وينقل عن المؤرخ المغربي : عبد الواحد المراكشي... صاحب كتاب : «المعجب».

994 ـ الرتبة...!

وجدت في كتاب «الابتهاج» لمؤلفه أبي العباس أحمد بن المامون البلغيثي (1348 هـ = 1929) عند كلامه على الرتبة وأحكامها ج 2 ص 17 «رتب الشيء. ثبت ودام. والرتبة (بالفتح) : اسم للطعام المأخوذ... وهي كالميتة. للمضطر مباحة الأكل. لأجل الاضطرار...!!»

995 ـ بيضاء. وحمراء. وخضراء...!

وجدت في نفح الطيب ج 2 ص 611. تحقيق إحسان عباس : عند ذكر قطعة شعرية مدح بها عبد البر بن فرسان. ابن غانية...

«...ومن نظمه لما تعمم مخدومه ابن غانية بعمامة بيضـاء... ولبس غفـارة حمراء... على جبـة خضراء...! (وأنهى القطعة بقوله» :

فـأصبحت بـدرا طـالعـا في غمـامـة

على شفـــق دان. إلى خضرة الأرض»

996 ـ ينادى عليه في الطرق...!

وجدت في كتاب «أحكام القرءان» لأبي بكر ابن العربي المعافري 543 هـ = 1148 م ص 1951 ج 4.

«وإنما أقسم الله سبحانه بالتين ليبين فيه وجه المنة العظمى. فإنه جميل المنظر. طيب المخبر. نشر الرائحة. سهل الجني. على قدر المضغة. وقد أحسن القائل فيه :

انظر إلى التين في الغصـــون ضحى

ممـزق الجلــد. مــائـل العنـق

كـــأنـــه رب نعمـــة سلبت

فعـاد بعـد الجـديـد في الخلق

أصغر مـــا في النهـــود أكبره

لكن ينـــادى عليــــه في الطرق

997 ـ المحراب في المحراب...!

وجدت في كتاب «أحكام القرءان» لأبي بكر ابن العربي المعافري ج 4 ص 1597.

«...المحراب : هو البناء المرتفع. ومنه يسمى المحراب في المسجد. لأنه أرفعه... أنشد فقيه المسجد الأقصى. عطاء الصوفي :

جمع الشجـاعـة والخضوع لربـه

مـــا أحسن المحراب في المحراب»

998 ـ الجارية السوداء...

وجدت في ديوان الشاعر : محمد العيد. محمد علي خليفة. المطبوع بالجزائر. بمدينة قسنطينة 1967 م. ص 564.

«وجـاريـة سـوداء عـز منـالهـا

على البيض. واستعصى عليهم وصـالهـا

تـولت. وصـدت، عنهم فتعـوضـوا

جـواري أخرى. لا يطـاق احتمـالهـا»

يعني (القهوة) إبان الحرب. وانعدامها في الأسواق...!

999 ـ الطربوش...

وجدت في ديوان الشاعر محمد العيد. محمد علي خليفة ص 559 هذا اللغز في الطربوش.

«أســـــود الشعر أحمر الــــــــذات أزهر

ذو علــــــو يسبي العيــــــون ويبهر

أجنبي عن العروبـــــــــــــة أمسى

عربيــــا بـــــه العروبــــة تظهر

ملـــه قــوقـــد وســـامــوه هجرا

ومن الظلم أن يمــــــــــل ويهجره

كيف يقلى بعـــــد الـــــوداد ويلقى

وهــو بنـــد. وجنـــــده ليس يحصره

وهــو غمــــد. وسيفــــه ضم علقـــا

معنــويــــا. لا من نضـــار. وجـوهر

فـــاقبـل اللغـز تحفـــة لـــك مني

وتـــــأمــــل في حلـــــه. وتفكر»

1000 ـ وتعارضنا أبناء الخرفان....!

وجدت في كتاب «التكملة» لأبي عبد الله ابن الأبار القضاعي (ت : 659 هـ = 1260 م). ط. القاهرة 1955 م. ج 1 ص 89 :

عند ترجمته لأبي جعفر ابن مضاء النحوي القرطبي قاضي فاس. ومراكش. على عهد الموحدين. ومؤلف كتاب = الرد على النحاة :... أنه قال حينما بلغه أن أبا الحسن ابن خروف. رد عليه بتأليف سماه = تنزيه أئمة النحو. عما نسب إليهم من الخطأ والسهو :

ـ نحن لا نبالي بالكباش الناطحة...!

وتعارضنا أبناء الخرفان.....!!

فاس : عبد القادر زمامه



بحوث مغربية في الفكر الإسلامي

تأليف : د. عباس الجراري

عرض وتقديم
الأستاذ منير البصكري

صدر مؤخرا عن مطبعة دار المعارف بالرباط، كتاب للدكتور عباس الجراري تحت عنوان «بحوث مغربية في الفكر الإسلامي». ويقع هذا الكتاب في 191 صفحة من القطع المتوسط، ويلاحظ القارئ، وهو يتتبع مختلف الموضوعات الواردة في هذا الكتاب، أن غاية المؤلف تكمن في توضيح بعض الجوانب من الفكر الإسلامي، فيما يرتبط منه بالتراث أو يمس الواقع، وهي جوانب تكشف منظورا مغربيا، انطلاقا من عوامل التأثير البيئية، أو لما له من صلات بمميزات الموروث الحضاري والثقافي.

لقد أراد الدكتور عباس الجراري أن يكشف من خلال كتابه عن الهوية والكيان والشخصية المغربية ويؤكد على مدى حضور الفكر المغربي بكل مقوماته الثابتة والمتحركة، الإبداعية والمتجددة. وقد تميز الدكتور الجراري، مع قليلين جدا، بأمانة الموقف وعلمية المنهج، وعلائية القناعة، وهو يتناول بالدراسة والتحليل التراث الحضاري المغربي، وكذا الفكر الإسلامي، ومن ثم جاءت أحكامه موضوعية، وتمخض عنها الموقف العلمي النزيه الذي تميز به عن غيره. ومن هذا المنطلق واصل الأستاذ رحلته متتبعا لمكامن القوة في الفكر الإسلامي، معززا قناعته بأن للأمة العربية الإسلامية عطاؤها الوفير، وأن العقل العربي الإسلامي له الكثير من الخصوصيات والقدرات على مواكبة العصر، ومن ثم إيجاد الصيغة المناسبة للتزاوج بين التراث والمعاصرة.

ولا شك أن الدعوة الإسلامية تستند إلى منطلقات، وتسعى إلى أهداف تجعلها تجمع بين الرسالة الدينية، وبين تنظيم كيان ينسجم مع هذه الرسالة، وهي بذلك ترتكز على فلسفة متكاملة تتميز بمبادئ قوية، وأداة رابطة، وتنحصر هذه المبادئ في : التوحيد ـ العدل والمساواة بين الناس جميعا ثم الشورى، أما الأداة فتتمثل في الخلافة التي أحدثت لملء الفراغ الذي واجه المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ، فهي واجبة وجوب تطبيق المبادئ.

لكن الجدل القائم حول الخلافة، جعل الفقهاء يضعون أسئلة حول الخلافة نفسها ؟ فبعضهم قال بالجواز بينما رفض البعض الآخر ذلك. ومع هذا، فقد طرح الفقهاء وجوب الخلافة بقولهم : «نصبة الإمام واجبة» وقد استندوا في وجوبها إلى القرآن ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾. وقد أكد ابن حزم على ضرورة إسناد الأمر لمن ينوب عن أفراد الأمة في تدبير شؤونها. فالدولة في الإسلام لابد أن يكون على

رأسها سلطة تأمر وتنهي وتصدر الأحكام وتسهر على تطبيقها وتنفيذها، وذلك في نطاق التعاون على البر والتقوى ومحاربة الإثم والعدوان. (ص 15).

وإضافة إلى هذا كله، تحدث الكاتب عن ارتباط الخلافة بالشرعية، فهي خلافة واحدة غير متعددة، طالما أن الدولة تعيش وحدة متكاملة وتامة، مما جعل فقه السياسة الإسلامي ينتهي إلى أنه «لا يجوز عقد الإمامة لإمامين في بلدين في حالة واحدة» (ص 16).

فالنص على الوحدة يقتضي وجود الكيان ذي النظام المتكامل والمتماسك وفق النموذج الصحيح الذي عرفته الدولة الإسلامية لأول عهودها. (ص 17). فالأساس الذي تقوم عليه أداة الحكم في الإسلام يتجلى في عقد يبرم بين الحاكم والمحكومين، وهذا العقد يعرف بالبيعة، وتعني : «العهد على الطاعة، كأن المبايع يعاهد أميره على أن يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين، لا ينازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه من الأمر على المنشط والمكره...». وعلى هذا النسق ـ يقول الأستاذ المؤلف ـ كانت بيعات المسلمين للرسول ﷺ، وعلى نفس النسق تمت بيعة الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم. وقد ارتبطت البيعة بظاهرة الترشيح للخلافة، ومثل الأستاذ بكتابة أبي بكر البيعة لعمر ابن الخطاب وتشكيل هذا الأخير لمجلس شورى مكون من ستة أعضاء، ومثل هذا الأسلوب سيعرف مرحلة مضبوطة في عهد معاوية حين أخذ البيعة بالخلافة بعده لولي عهده ولده اليزيد، وأمر كهذا، يرى الأستاذ أن دوافعه نابعة من ثقة الأمة في الخليفة. فالبيعة إذن تتم عن رضى واختيار بين طرفين، شريطة رعاية مصالح الأمة والسهر على شؤون أبنائها، والسعي إلى توفير أسباب الأمن والرخاء. وهذا يدل أيضا ـ كما يقول الأستاذ ـ على أن الأمة هي مصدر السيادة، وأن الخليفة إنما يستمد نفوذه من هذا المصدر، وفي نطاق هذا التلاحم بين الخليفة والأمة يكمن إدراك سر الخطاب الجمعي الذي جاءت عليه آيات قرآنية كثيرة. وإذا كان هذا الاختيار مرتبطا بالصيغة الاجماعية، فإنه يقوم على شروط لا بد من توافرها في الخليفة وهي أربعة كما حددها العلماء، وهي : العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء. مما يؤثر في الرأي والعمل (ص 21)، أما واجبات الإمام والتزاماته، وحددها العلماء ـ كما يقول المؤلف ـ في عشرة أمور وهي : حفظ الدين على الأصول وتنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وحماية البيعة والذب عن الحوزة، وإقامة الحدود وتحصين الثغور، وجهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة وجباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصا واجتهادا : وتقدير العطاء وما يستحق في بيت المال من غير تقصير، واستكفاء الأمناء وتقليد النصحاء، وأن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال...» (ص 22 و23).

وهكذا إذا قام الإمام بحق الرعية وجب لهم عليه حقان : الطاعة والنصرة. أما ما يخرج به عن الإمامة فشيآن : الجرح في عدالته والنقص في بدنه، وحتى يؤدي الإمام واجباته كاملة، حدد له الشرع حقوقا تتلخص في السمع والطاعة والامتثال، ومن هنا أحل الله تعالى البيعة مكانة جليلة ومرموقة في قوله عز وجل : ﴿إن الذين يبايعونك، إنما يبايعون الله...﴾. ويعتقد الأستاذ أن إلزامية الطاعة هي التي جعلت النبي عليه السلام يربطها بالاستطاعة وما تطيقه الأمة. وهذه الإلزامية تعني وضوح الرؤية إلى جانب وضوح المبادئ والأهداف... ومثل هذا الموقف ينطلق من الحرص على الوحدة والجماعة، وهذه الوحدة قائمة على أساس ثابت وصحيح. وهو الوضع الذي عرفه المغرب، وميزه عن باقي الأقطار العربية الأخرى، «فالمتتبع للتاريخ الإسلامي في المغرب ينتبه إلى بعض الظواهر التي لازمت نظام الحكم فيه، على الرغم من تعدد الدول التي تعاقبت عليه» (ص 28) وهنا يشير المؤلف إلى ثلاثة من تلك الظواهر وهي :

1 ـ ارتكاز النظام على الإمامة الشرعية وإمارة المومنين.

2 ـ مراعاة شروط الإمامة والعلم منها خاصة.

3 ـ اعتماد البيعة في اختيار الإمام وإسناد الأمر إليه، وتنظيم العلاقة بينه وبين الأمة على أساسها. ومثل المؤلف لأول بيعة قدمها المغاربة للمولى إدريس إلى البيعة الأخيرة التي تمت في نطاق استكمال الوحدة الترابية. فضلا عن تجديد هذه البيعة في المناسبات، وخاصة في حفل الولاء الذي يقام في اليوم الثاني من عيد العرش. بعد هذا يتحدث الكاتب عن الكيفية التي تتم بها البيعة، «فهي تكون مكتوبة وعليها إمضاءات المبايعين، وربما وثقت بالإشهاد العدلي» (ص 30). فهي إذن ليست مجرد عقد صوري، ولكنها تثبت على العكس من ذلك مدى تحمل المسؤولية... فالتزام المغاربة بالبيعة هو التزام بالشريعة، وهو هدف لا يقوم إلا إذا توفرت روابط متينة يشد عراها وعي اجتماعي ينطلق من قيم كامنة في العمق بإيمان، ويحث على الانضباط والانتظام في كيان له مصداقيته ومرجعيته» (ص 36).

ولم يفت الكاتب أن ينبه في نهاية هذا العرض إلى تمثل صحيح لفلسفة الحكم في الإسلام، وإلى تحليل علمي لواقع المسلمين اليوم، انطلاقا من تفكير اجتهادي حر، وتوفيق عقلي بين مبادئ الشرع ومقتضيات العصر، وذلك من أجل حياة إنسانية يسودها العدل والمساواة والعزة والكرامة والسعادة...» (ص 37).

☆ ☆ ☆

وتناول الأستاذ في الموضوع الثاني من الكتاب : «أسباب انتشار المذهب المالكي في المغرب» وهو نص الدرس الذي ألقاه بأمر من صاحب الجلالة إبان الدروس الحسنية الرمضانية لسنة 1985 في الرباط. وقد انطلق فيه الكاتب من الحديث النبوي الشريف «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم، فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة». تناول الأستاذ هذا الموضوع من خلال قسمين اثنين مع تمهيد توضيحي. وهكذا أوضح في البداية أن إجماع المغاربة على المذهب المالكي يعتبر ظاهرة متميزة في الفكر المغربي، طالما أن المغاربة ميالون إلى التوحد الذي يترجم ميلهم إلى الاتصال والالتقاء، وإلى التجمع والانصهار والاندماج بسبب الاستقرار السياسي والفكري، وهذا الاختيار للمذهب المالكي ـ يقول الأستاذ ـ قد تم على مرحلتين لا تتمثل الأول في اختيار الخط السني، بينما الثانية فتكمن في اعتناق المغاربة للإسلام عن اقتناع، حيث «وجدوا فيه الحل لمشكل عقدي مزمن، طالما عانوا منه منذ الديانات الأولى التي عرفوها في المراحل البدائية وما شاع فيها من معتقدات».

أما أسباب اختيار المذهب المالكي، فيطرحها الأستاذ المؤلف من خلال زاويتين اثنتين : أسباب وعوامل داخلية، وأخرى خارجية ذات صبغة تاريخية سياسية. فالأسباب والعوامل الداخلية تنسجم مع الكيان الذهني المغربي الميال إلى الاعتدال والنزوع إلى العمل أكثر من القول، وحدد الأستاذ في هذا المحور خمسة أسباب هي ـ مكانة الإمام مالك العلمية وانتماؤه للمدينة المنورة ـ الأمانة العلمية التي كان عليها الإمام مالك، وهي صفة جبل عليها المغاربة فضلا عن ضبطهم وما عرفوا به من تحرز وتورع ـ طبيعة المذهب الذي يعتمد على الأثر والرواية، وهو بذلك يوافق مزاج المغاربة الميال إلى اليسر والوضوح إضافة إلى ما يتسم به المذهب من اعتدال وتوسط ـ نضالية المذهب التي تتجلى في التحام فقهائه مع الجماهير وقضايا الوطن والأمة والمسلمين ـ تجدد المذهب باستمرار، خاصة ما يتعلق بالذرائع والمصالح المرسلة وما تعطيه من مرونة وقابلية للتكيف مع أية بيئة وفي أي عصر.

أما العوامل الخارجية، فقد حصرها الأستاذ في خمسة محاور هي :

1 ـ رحلة المغاربة إلى الحجاز بغية أداء فريضة الحج أو طلب العلم، ولعلهم بذلك، كانوا يستحضرون الحديث النبوي الشريف : «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم، فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة».

2 ـ تبادل الوفود والبعثات بين المراكز الثلاثة المهمة في مجال العلم والحضارة بالمغرب الإسلامي، وقد سار هذا التبادل في اتجاهين اثنين : الأول من المغرب إلى الأندلس والقيروان، والثاني من الأندلس والقيروان إلى المغرب.

3 ـ توقيت اختيار المغاربة للمذهب المالكي، إذ إنهم عرفوا ظروفا تاريخية عاش فيها المغرب مخاضا تمثل في وجود الخوارج والاعتزال ومذهب أبي حنيفة ومذهب الأوزاعي ولم يتخلص المغاربة من تعدد هذه التيارات إلا بعد مجيء المولى إدريس، إذ رحبوا به وبايعوه وتم الاختيار، ويعود سبب ذلك إلى أن المولى إدريس من آل البيت، والمغاربة معروفون بحبهم لآل البيت، فضلا عما يوجد من تعاطف بين الأدارسة والإمام مالك، وهو تعاطف يتخذ مظهرين هما :

أ ـ أن مالكا يروي في موطاه عن عبد الله الكامل والد المولى إدريس.

ب ـ أن مالكا له موقف من العباسيين، وهو موقف كان لصالح أخ المولى إدريس المعروف (بالنفس الزكية).

4 ـ تقوية المذهب في ظل المرابطين الذين اعتمدوه واتخذوه حركة تقود نضالهم نحو تحقيق الإصلاح وتصحيح أوضاع المسلمين.

5 ـ استمرارية مساندة الدولة المغربية للمذهب المالكي وحمايته من الانحرافات والتيارات المتطرفة قضاء يوسف بن تاشفين على البورغواطيين؛ وقضاء المولى إسماعيل على العكاكزة... ولا شك أن الهدف من هذه الحماية ـ يقول الأستاذ ـ وهو الحفاظ على نقاء العقيدة وصفائها وعلى وحدة المغرب وكيانه....

وفي الموضوع الثالث، تحدث الأستاذ المؤلف عن الدين في وسطيته وتجديده وسياق الشخصية المغربية، انطلاقا من قول الرسول ﷺ، «لا يزال أهل المغرب ظاهرين حتى تقوم الساعة...» وهو نص المحاضرة التي شارك فيها الأستاذ في الدروس الحسنية في شهر رمضان لعام 1986. وقد تناول المؤلف موضوعه هذا من خلال محورين :

أولهما : عن الشخصية في سياقها مع الدين...

ثانيهما : الميل عند المغاربة إلى الوسطية والاستعداد للتجديد.

فالشخصية تعني عند الكاتب، الكيان القائم على مجموعة من العناصر المادية والمعنوية تتصل بالجسم والعقل والروح، والإرادة والشعور، (ص 62) وهي أيضا كيان ذهني يرتكز على قيم ومقومات قادرة على إبراز الخصوصيات المميزة للناس عن غيرهم، وهي خصوصيات تتسم بالثبوت لارتباطها بعوامل تارة، وبالتطور والتغير لخضوعها لعناصر متحركة، إضافة إلى هذا أن الشخصية ـ كما يقول الأستاذ ـ تنبثق من مكونات تلتقي على صعيد البيئة، وتنصهر في بوتقة العوامل الفاعلة فيها حضاريا وثقافيا، (ص 63). ويرى الأستاذ أن هذه البيئة بعنصريها الطبيعي والبشري أفرزت أوضاعا اقتصادية وظروفا إنمائية ونظما اجتماعية.. (ص 64) ثم ما لبث الكاتب بعد ذلك أن أبرز مختلف مقومات العنصر الثقافي، وهو عنصر تتعدد منابعه وتتنوع مصادره وملامحه الأصيلة القديمة والمستمرة سواء ما يتعلق بالتراث الشعبي أم المدرسي، ويضيف الأستاذ إلى هذا كله، اللغة العربية، وتأتي طليعة هذه المكونات الثقافية.

وهنا يكشف عن «هوية مغربية عربية إسلامية متماسكة لا تعرف التمزق أو التصدع منذ الفتح الإسلامي إلى المرحلة الحديثة؟؟. وعن هذه الشخصية في سياستها مع التدين، يلاحظ الأستاذ أن هذا التدين يدل على ميل فطري إلى الوحدانية. «فالإسلام احتوى الشخصية المغربية احتواء كاملا وأعاد تكوينها بالتصحيح والتقويم...» ومن ثم تتحدد جملة خصائص حصرها الأستاذ المؤلف في خمس نقط هي :

1 ـ الاعتدال وعدم التطرف.

2 ـ التقرب إلى الله وخشيته والاحتراز في العمل والسلوك.

3 ـ تهذيب الغرائز والطبائع وتقويم الضمير الفردي، وتقريبه بوعي للضمير الجمعي.

4 ـ الرضى والقناعة والقدرة على تجاوز تناقضات الواقع.

5 ـ عدم الانشغال بالغيب في اطمئنان لما أخبر الله به، مع الاستعداد للعالم الآخر ويوم الحساب.

فالعقيدة الإسلامية كانت دائما نبراسا للمغاربة، وقاعدة لسلوكهم وعلاقاتهم، ومقياسا يميزون به الفاسد من الصالح، ومن هنا عمل المغاربة على تحقيق التوازن والشمول.

أما عن ظاهرتي الوسطية والتجديد ـ باعتبارهما من أبرز نتائج التفاعل القائم بين الإسلام والشخصية المغربية ـ فتتجلى يقول الأستاذ في عدة مظاهر ذكر منها ثلاثة وهي :

1 ـ التمسك بالاعتدال المذهبي ورفض التطرف.

2 ـ الوسطية بين العقل والنقل في مسائل العقيدة.

3 ـ التوازن بين الشريعة والحقيقة...

وقد فصل الكاتب القول في هذه النقط الثلاث مستنتجا في النهاية أن التزام المغاربة بالإسلام في وسطية واعتدال «أتاح لهم أن يكونوا على مر التاريخ مهيئين للحفاظ على الدين، مستعدين لتجديد أمره» على الرغم من اقتران التجديد بالاتباع «الذي يعني أنهم يتبعون الحق ويقتنعون بالدليل».. من غير جرح ولا تعديل، متحملين في ذلك مسؤوليتهم كاملة. وهذا هو الذي حدا بهم للأخذ بالمذهب المالكي الذي أجمعوا عليه وتوحدوا في ظله..

☆ ☆ ☆

أما الموضوع الرابع فهو «موقف الغزالي من إشكالية التوفيق بين الحكمة والشريعة». وقد قدم الأستاذ الجراري هذا البحث في الدورة الثانية لأكاديمية المملكة المغربية لسنة 1985.

اعتبر الأستاذ أن عصر الغزالي من أغنى عصور الفكر الإسلامي وأخصبها، إلى جانب ما عرفه هذا العصر أيضا من صراع بين تيارات ومذاهب، «وهكذا ظهرت عدة إشكاليات فكرية احتد حولها النقاش، واتخذت فيها مواقف متباينة، وتأتي إشكالية التوفيق بين العقل والنقل في طليعة ما كان يشغل فكر المسلمين في ذلك العصر». وهي قضية قديمة ظهرت مع بداية احتكاك الفكر الإسلامي بالفلسفة اليونانية، أدار النقاش حولها أبو يوسف يعقوب الكندي، و«كان أول الذين اتخذوا موقف الملاءمة بين الدين والفلسفة»، إلى أن اتسع نطاق هذا البحث التوفيقي على يد جماعة من الفلاسفة أبرزهم أبو نصر محمد الفارابي وأبو علي الحسين بن سينا. أما الغزالي فقد تعامل مع هذه الإشكالية من موقع يتسم بالرفض الفلسفة والإعراض على العقل ومعارضته، وهذا لا يعني إنكار أبي حامد الغزالي للفلسفة، بقدر ما يعني سعيه إلى عملية توفيقية يتناول فيها القضايا الفلسفية من منظور إسلامي، وبمنهج نقدي متميز، وقد تأثر الغزالي في ذلك بعوامل ثلاثة :

أولها : يتمثل في المراحل التي مر منها تكوينه العلمي، ومدى تطور تفكيره.

الثاني : تكشف عنه نوعية القضايا التي شغلت فكر المسلمين.

الثالث : يكمن في طبيعة تفكير الغزالي وهو يتعامل مع تلك القضايا بموضوعية انتقادية من غير تصلب في الرأي، ودون لجوء إلى أحكام مسبقة، وهذا التعامل مع إشكالية التوفيق ـ يقول الأستاذ ـ يظهر من خلال محورين اثنين هما :

1 ـ رد الغزالي على الفلاسفة الذين حاولوا التوفيق قبله.

2 ـ تأثره ببعض النظريات الفلسفية الدخيلة.

ويبرز المؤلف أن منهج الغزالي كان يقوم على الشك، «من لم يشك لم ينظر. ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال».. فقد تخلى الغزالي عن التقليد، وانتقل منه إلى الحس، ليلجأ فيما بعد إلى العقل قبل أن ينتهي إلى الذوق والكشف المؤديين إلى المعرفة

القلبية، فهو يعتمد في منهجه على مقاييس متكاملة. فشكه كان منهجيا، توسل به للوصول إلى اليقين، على أنه في تناوله لقضية التوفيق بين الدين والفلسفة، كأن يجمع بين الشرع والعقل مشبها هذا الأخير بالبصر والقرآن بالشمس.

لقد كان الغزالي ـ يقول الأستاذ يسعى إلى تحقيق ثلاثة أهداف :

الأول : مراجعة الفلاسفة المسلمين في تناولهم لقضية التوفيق بين الدين والفلسفة..

الثاني : تحصين عقيدة العوام..

الثالث : إزالة ما كان للفلاسفة من مكانة في نفوس البعض...

أما محاولته التوفيقية وما فرضت عليه من انتقاد الفلاسفة، فقد سلك في ذلك الموضوعية؛ حيث بدأ بالتعرف إلى مختلف المسائل المطروحة والتعريف بها.. وما كان للفلاسفة من آراء ونظريات فيها، ظهر ذلك واضحا في كتابه (مقاصد الفلاسفة) الذي يعتبر تمهيدا لـ (تهافت الفلاسفة). وقد اقتصر الغزالي في انتقاده للفلاسفة على ثلاثة من علومهم هي : المنطقية والإلهية والطبيعية، لما فيها من تعارض مع الدين، وهنا يقف الأستاذ المؤلف عند أهم القضايا التي ناقش فيها الغزالي الفلاسفة، يتتبع أقوالهم وردودهم، يفند أدلتها التي اعتبرها قائمة على مسلمات ظنية، «والغزالي في مناقشته لهذه المسائل الفلسفية بالبراهين العقلية والرياضية، يعتمد كذلك على النصوص النقلية». وعلى الرغم من انتقاد الغزالي للفلاسفة والرد عليهم، فإنه لم يكن ـ كما يؤكد الأستاذ ـ يسعى إلى التشكيك في الفلسفة وتحطيمها، بقدر ما كان يسعى إلى إزالة ما كان مطروحا في سياق يتعارض مع الدين، وهو بذلك يقدم محاولة عميقة للتوفيق بين الحكمة والشريعة.

ولا شك أن الغزالي تأثر بالأفلوطينية «التي يبدو في جوانب من تأملاته الصوفية الذوقية، وكأنه يحاول الملاءمة بينها وبين الإسلام.. ولعل أبرز تلك الجوانب، إشادته بالعقل.. فقد قرنه بذات ملك من الملائكة.. كما فسره بالنور معتمدا في ذلك على بعض النصوص من القرآن والحديث. وهكذا يعتبر الغزالي أن الإيمان والمعرفة أنوار تتفاوت في البشر. بعد هذا يعتبر الغزالي أن النور الحق هو الله تعالى، وأن اسم النور لغيره مجاز محض لا حقيقة له..» ويضيف الأستاذ قائلا بأن الغزالي «لم يكن يجد كبير عناء في التوفيق بين النظرية الأفلوطينية وتأملاته الصوفية الذوقية، وما قادت إليه من التوسل ببعض النصوص للاحتجاج بها..» لقد فتح الغزالي الباب لفكر إسلامي جديد، يجمع بين الفلسفة والتصوف، مما جعل البعض يأخذون عليه اتجاهه التوفيقي وينتقدونه فيه من أمثال معاصره محمد بن الوليد الطرطوشي وتقي الدين أحمد بن تيمية وغيرهما. ويرى الأستاذ المؤلف في نهاية هذا الموضوع أنه «مهما يكن، فقد عمل الغزلي على إقامة كيان فكري فلسفي إسلامي...» وهو في كل هذا لم يكن متعسفا ولا متحازا ولا راغبا في أن يثبت التوفيق.. ولكنه قام بهذا العمل من منطلق العالم المسلم المسلح بتجربة فكرية عميقة، والمتمكن من علوم الفلسفة وأدواتها المنهجية، والمعتز بشخصيته ودينه..» ولم يخف الأستاذ مدى التوفيق الذي صادف الغزالي وهو يطرح على محك البحث النقدي مجموع العناصر التي تناولها في التوفيق، وأعاد تأملها ودراستها. ولا شك أن العصر الذي عاش فيه الغزالي كان أحوج إلى توضيح الأفكار وكشف الزائف منها. والصحيح، وهو ما قام به الغزالي في عمله التوفيقي بين الحكمة والشريعة.

☆ ☆ ☆

وفي موضوع «استخلاص التصور السليم لمعاملة غير المسلمين في ديار الإسلام في الوقت الحاضر»، الذي كتبه الدكتور الجراري باقتراح من المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن عام 1984، حدد الأستاذ في البداية مختلف المفاهيم الواردة في العنوان، ليخلص فيما بعد إلى نقطة الارتكاز في «التصور» تكمن في «مواطنة تراعي جدلية الدولة والإنسان في ظل الإسلام، من حيث أن لكل منهما طبيعة ذات خصوصيات»، فالدولة الإسلامية

لا بد أن تقوم على نظام يستمد روحه وأحكامه من الشريعة، اعتبارا من كون الإسلام «رسالة إنسانية سامية تبدأ من الدعوة إلى التوحيد، وتنتهي إلى التبشير بالوحدة التي ينصهر داخل بوتقتها كل الناس تحقيقا للعدل والمساواة والحرية والطمأنينة والسعادة والكرامة». وفي هذا الإطار - يقول الأستاذ - تشمل الدولة الإسلامية كل الأفراد والجماعات التي تعيش في كنفها، والتي ترتبط ليس بآصرة الجنس أو العنصر أو العصبية؛ ولكن برابطة الروح والفكر والثقافة والقيم والتقاليد وأساليب الاستثمار والإنتاج وأنماط العيش والسلوك». ويعتبر الإنسان يضيف الأستاذ المؤلف، المنطلق في هذه الرابطة الإنسية باعتباره مجموعة من القدرات والطاقات التي من أهمها غريزته، ثم روحانيته وعقله الذي «يتدخل ليعمل في الوعي والإحساس والإرادة والفكر، فيوجه ويخطط وينقد ويضبط حركية الإنسان؛ وهذا ما يعطي المواطنة مفهومها الحق». وهي مواطنة شريفة ومسؤولة، يقول الأستاذ - وتستمد شرفها ومسؤوليتها من تكريم الله تعالى للإنسان. ويرى الأستاذ أن هذا التكريم، له عدة مظاهر أبرزها القرآن الكريم، واكتفى المؤلف منها بذكر مظهرين اثنين :

الأول : القدرة على حمل الأمانة، ويرتبط ذلك بتحمل المسؤولية.

الثاني : القدرة على التعايش والتساكن، وقبول المخالفة في العقيدة على أساس التسامح الذي دعا إليه الإسلام وهو نتيجة اعترافه بالديانات الأخرى، وبالحقيقة التي تمثلها فضلا عن «إيمانه بالحوار، وتفتحه على مجالات الإنسانية في حريتها وحركيتها وسعيها الدائب نحو التطور والتقدم.. ثم اعتماده على البحث الدائم في الكون، لإمكان استثمار معطياته وخبراته لصالح البشرية.. وهو في النهاية. نتيجة ارتباطه بالمشكلات التي يعانيها الناس في واقعهم المحسوس..». وهكذا يرسم الإسلام المواطنة كما ينبغي أن تكون في دياره. فهذه المواطنة حسب اعتقاده الأستاذ الجراري تقتضي أسسا أربعة وهي المساواة والحرية والهوية والتنمية. وبعد أن فصل الكاتب القول في هذه الأسس، خلص إلى «أن مواطنة تقوم على هذه الأسس الأربعة، كفيلة بضمان الوحدة في ديار الإسلام، بدءا من الفرد إلى الدولة مرورا بالأسرة والمدرسة وغيرهما من الأجهزة والمؤسسات وما يلهم بينهما من علاقات وروابط قائمة على قواعد وقوانين وأعراف..» أما عن الأقلية في المجتمع، خاصة تلك التي تكون على صعيد العقيدة والدين، «فلا تكفي وحدها للتميز عن هذا المجتمع..» بل إنها «لا تكفي لخلق كيان مستقل.. فالإرادة المستمرة لجميع أفراد الدولة هي الإرادة الجماعية، وبها يكونون مواطنين أحرارا..» وفي نهاية هذا الموضوع ينبه الأستاذ إلى المؤامرات التي تدبر للمسلمين، وهي مؤامرات تسعى إلى تجريد الفكر الإسلامي من مفاهيم الدولة والوحدة.. وترسيخ الانفصالية والعرقية والطائفية والعشرية.. حتى يسهل فرض الهيمنة على ديار المسلمين.. «كما ينبه إلى أن الاستعمار يوم كان يلقي بظله على الدول العربية والإسلامية، حاول أن يركز على الأقليات الدينية والجنسية واللغوية لعزلها وضرب الأغلبية بها»، علاوة على هذا، نبه الأستاذ أيضا إلى «أن القوى العالمية.. تتجه اليوم إلى إحياء النزاعات القبلية والنعرات العنصرية والخلافات الدينية، لتكريس التشتت والتمزق داخل الكيانات الوطنية..» فموضوع الأقليات - يقول الأستاذ - «يمكن أن يكون مصدر قوة ورخاء إن نظر إليه بروح وطني جماعي وفكر متفتح متعقل، ويمكن في نفس الوقت أن يكون وبالا وخسرانا إن ترك للعابثين بمصير الشعوب يستغلونه..» ومن هنا، يرى الأستاذ أن على المسلمين توجيه هذا الموضوع انطلاقا من تقوية الإيمان وتثبيت السلم، ونشر القيم الخلقية، ومحاربة التمزق، ومواجهة التخلف، حتى تعيش الأجيال القادمة حرة موحدة وكريمة.

☆ ☆ ☆

أما آخر موضوع في هذا الكتاب، فتناول فيه الأستاذ المؤلف «خطبة الجمعة وقضايا الفكر الإسلامي»، قدمه في

الملتقى العالمي الأول لخطباء الجمعة في المغرب الذي انعقد بفاس سنة 1987. في البداية تحدث الكاتب عن الخطابة كفن من فنون القول، شاع عند اليونان والرومان، وازدهر عند العرب نظرا للمكانة التي حظي بها في المجتمع العربي، كما أبرز الكاتب أن فن الخطابة كثيرا ما كان وسيلة الدعوة إلى السلم وإلى إصلاح ذات البين، إضافة إلى هذا، تحدث المؤلف عن الخصائص المميزة في العصر الجاهلي كالقصر والإيجاز والاستشهاد بالشعر، وشيوع السجع، أما في ظل الإسلام، فقد شهد فن الخطابة مزيدا من الازدهار، عملت على إذكائه عدة أسباب تأتي في طليعتها ما كان عليه المجتمع الإسلامي من حرية وشورى وعدل ومساواة، مما أكسب الخلفاء مكانة فاقت منزلة الشعراء، وهكذا تطور هذا الفن، «وكانت فعاليته قوية في نشر الدعوة الجديدة، وبذلك اشتهر كثير من الخطباء يأتي على رأسهم الرسول ﷺ، وخلفاؤه الراشدون. وفي ظل هذا الازدهار، ظهرت أنواع متعددة من الخطابة، ومن أبرزها وصايا الخلفاء للولاة وقادة الجيش ومن ينوب عنهم. أما عن خصائص هذا الفن في العهد الإسلامي، فهي نفسها التي عرفت في العصر الجاهلي، إلا ما كان من السجع الذي بدأ يختفي. «واختفاؤه أو تحقيقه لم يحل دون العناية بالخطب وتنقيحها..» ومن السمات الجديدة التي اكتسبتها الخطابة الإسلامية، الطول بخطبة الرسول في حجة الوداع وغيرها، إلى جانب افتتاح الخطب بالتحميد وبالصلاة على الرسول الكريم، واعتمادها على آيات قرآنية وأحاديث نبوية فضلا عن الدعاء.

إن لخطبة الجمعة، يقول المؤلف، كيانا متميزا طالما أنها تتوسل بالكلمة. وهذه الخطبة لم تتوقف لارتباطها بالصلاة رغم تعرضها لمختلف مراحل المد والجزر «وهي من أجل ذلك تتطلع اليوم إلى أن تسترجع مكانتها» تبعا لواقع المسلمين المتحرك وما ينهض به الخطيب من دور فاعل في المجتمع، وأيضا ما يعرفه الفكر الإسلامي من تطور وسط إيديولوجيات وتيارات تسعى إلى نسف هذا الفكر، وبث روح التشكيك والإلحاد في نفوس الشباب، ومن هنا يقول الكاتب : «كان على خطيب الجمعة أن يعرف بحقيقة الفكر الإسلامي في مختلف قضاياه ـ أصولا وتاريخا وواقعا وآفاق مستقبل ـ مع الإلحاح على خصوصياته ومميزاته..» وذلك حتى يتسنى له رصد كل المشكلات التي تتحدى الفكر الإسلامي، وقد اكتفى الأستاذ بذكر اثنين تقوم كل منهما على أسس مغلوطة ومزيفة، وهما :

الأول : أن الدين متجاوز، وهي مقولة يروجها الفكر الإلحادي.

الثانية : أن الفكر الإسلامي عاجز عن حل المشكلات التي تواجه المسلمين اليوم..

وهكذا، يدحض الأستاذ المؤلف هذه الآراء، ويرد عليها بوعي عميق متبصر، وفهم صحيح؛ مستندا في ذلك على كثير من الحقائق التي تبين إلى أي حد أعمى الحقد قلوب الملحدين وغيرهم ممن ساهموا في ممارسة الضغط على المسلمين مما ترتب عنه تعطيل البحث العلمي وتخلي المسلمين عن أسبابه ومناهجه، وشيوع التقليد، وانتشار الشعوذة والتزييف، وتأخر التعليم..» بعدها أشار الأستاذ إلى المهمة الصعبة التي تقع على عاتق الخطيب والتي تتمثل في كونه مطالب بإلقاء الأضواء الكاشفة على الإسلام ومبادئه وبراهينه وقضاياه، لمزيد من الإقناع به..» فمسؤولية الخطيب تكمن في أنه يواجه مرة كل أسبوع جمهورا من المسلمين.. مما يجعل هذا الخطيب مطالبا بالتنويع والتجديد، «وهذا ما يفرض عليه العناية بخطبته موضوعا ومحتوى وصياغة وإلقاء..» فإذا حقق نجاحا في مهمته، فسيكون ذلك عاملا فعالا على تشجيع الناس لحضور الجمعة والمواظبة عليها. وحتى يستطيع الخطيب يقول الأستاذ القيام بعبء الخطبة الثقيل، فإن شروطا كثيرة ينبغي أن تتوفر فيه ليكون قدوة يحتذى. ومن هنا كان لا بد من تأطير الخطباء وتزويدهم بكل ما يمكن أن يفيدهم في مهمتهم.

منير البصكري





تعلن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية أنه في إطار العناية التي يوليها أمير المومنين لكتاب الله العزيز، وسعياً منها في نشر مصحف مرتل يساعد القارئين والمستمعين على حفظ القرآن الكريم، وإجادة قراءته وتلاوته وإتقانها تجويداً وترتيلاً، أصدرت المصحف الحسني المرتل بقراءة ورش، وأخرجته في عشرين شريطاً مصونة في محفظة، وهو الآن موجود بمكتبة الأوقاف الكائنة بـ 6 شارع بيروت ساحة المامونية - الرباط الهاتف : 229.02 ومتيسر لمن يرغب في اقتنائه بثمن مناسب.

الجنرال مولاي عبد الحفيظ العلوي في ذمة الله

في صباح يوم الجمعة 15 جمادى الأولى 1410 هجرية الموافق لـ 15 دجنبر 1989 ميلادية انتقل إلى رحمة الله خديم الأعتاب الشريفة الجنرال مولاي عبد الحفيظ العلوي، وقد جرت مراسم تشييع الراحل حيث أديت صلاة الجنازة على جثمان الفقيد بمسجد السنة بالرباط بعد صلاة الظهر.

وكان في مقدمة مشيعي الجنازة صاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد وصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد.

كما حضر هذه المراسيم الوزير الأول الدكتور عز الدين العراقي، ورئيس مجلس النواب السيد أحمد عصمان، ومستشارو جلالة الملك وأعضاء الحكومة والحاجب الملكي والأمراء وأصهار جلالة الملك وأعضاء الدواوين الملكية ووالي صاحب الجلالة على الرباط وسلا وكبار ضباط القيادة العليا للقوات المسلحة الملكية وعدد من العلماء والشرفاء وزعماء الأحزاب السياسية والمنظمات النقابية وتشكيلات من القوات المسلحة الملكية الثلاث وبعض أعضاء السلك الديبلوماسي المعتمد بالمغرب وشخصيات تنتمي لعالم التجارة والصناعة والفن وأكاديميون ورؤساء المؤسسات العمومية والخاصة.

كما حضرها أعضاء الوفود المشاركة في المؤتمر المغاربي الأول لأمراض القلب الذين أبوا إلا أن يشاركوا في مراسيم تشييع جنازة الفقيد.

ومن مسجد السنة توجه الموكب الجنائزي الذي تقدمته العربة العسكرية التي كانت حاملة لنعش الفقيد الملفوف في العلم الوطني إلى ضريح مولاي الحسن بالمشور السعيد حيث ووري الفقيد مثواه الأخير.

وقد أبى صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني أطال الله عمره وبقاءه محفوفاً بصاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد وصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد إلا أن يلقي نظرة الوداع الأخيرة على خديم أعتابه الشريفة الراحل مولاي عبد الحفيظ العلوي بباب ضريح مولاي الحسن.

وساعة دفن جثمان الفقيد تليت آيات من الذكر الحكيم.

واختتمت هذه المراسيم بالدعاء للفقيد بالمغفرة والرضوان وبالدعاء الصالح بموفور الصحة وطول العمر لأمير المومنين صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني أطال الله بقاءه وأن يقر عينه بصاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد وصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد وكافة أفراد الأسرة الملكية.

رحم الله الفقيد برحمته الواسعة، ورزق ذويه الصبر الجميل..

وإنا لله وإنا إليه راجعون..

s'adonner-d'après Al-Awârif à une lecture prolongée, même s'il s'agit de hadiths ou d'anecdotes véridiques où il trouve des loisirs pour se distraire capricieusement, se délasser d'une persévérance dans les lithanies et les pratiques cultuelles. Il éprouve, par contre, un vif plaisir à lire et à dialoguer. Il doit éviter, dans ce cas, de se laisser entraîner dans un aval qui prendrait, plus qu'il ne faut, de son temps précieux. J'ai eu l'occasion de voir certains personnages des plus honorables, s'inspirer de ces principes, en répartissant rationnellement le cours de leurs jours et nuits, selon un critère pratique, réservant minutieusement leur dû à l'enseignement, à la lecture, aux lithurgies et au repos. Tous les actes devant se suivre consécutivement ont alors leurs parts respectives qui en ménagent soigneusement les besoins, sans empiéter les uns sur les autres. C'est là un signe de la Providence qui inspire le choix le plus judicieux dans le processus des options. Dans un même ordre d'idées, nous nous référons aux dires de certains imams qui définissent l'échelonnement du potentiel auditif chez les gens.

Cette graduation est comparée d'abord à un semis qui atteint le sol, mais qui est vite ramassé par un essaim d'oiseaux ; ensuite à des graines qui retombent sur la pierre lisse recouverte d'une légère couche de terre et de gouttelettes de rosée. Ils s'y fixent superficiellement, mais finissent par se dessécher, quand les nervures touchent le dur de la pierre. Une partie de la semence peut choir sur un sol riche et fertile, mais jalonné d'épines qui tuent les jeunes pousses dès leur apparition. Enfin, quelques semis qui ont pu entrer en contact avec un sol fécond, loin des grès et des épines, ont la chance de croître et fleurir. Un parallèle est donc établi entre une semence recueillie sur une terre riche et une bonne parole. A l'instar de cette série de semences, un homme peut entendre des propos auxquels il ne prête nulle attention. Ils s'évaporent et sont vite oubliés. Le semis recueilli par la pierre est assimilé à une personne qui entend bien et apprécie, mais sans qu'il y ait un impact quelconque sur son cœur indécis qui n'en retient guère la fruition. Au sol épineux correspond le cas de l'individu dont l'audition est accompagnée d'une intention d'agir, vite ligotée par des caprices qui le figent, l'ankylosent et anéantissent, en lui, tout désir effectif d'agir. Le quatrième cas du sol dégagé de tout handicap est similaire à un croyant attentif qui conçoit, cherche à bien comprendre, assure une bonne exécution, tout en s'écartant des suggestions et des fantaisies maléfiques. C'est là la fruition spontanée d'une prédisposition qui, sans être nécessairement innée, est sciemment développée, grâce à un effort soutenu tendant à éliminer tout écart capricieux. les élans vicieux et les exigences excentriques ont une douce saveur que l'âme dégénérée déguste et apprécie. Cet épicurianisme dégradé est la source de tous les maux. En illuminant les recoins de la conscience, en les dépurant de toute pollution malsaine, grâce à une regénération qui tend à insufler, par le dhikr, dont la lecture du Coran, une vie réconfortante qui oppose à l'attirance matérielle, l'attrait sublime de l'amour divin, reliant l'âme revivifiée au Plenom de la Présence Sacrée. L'esprit hautement idéalisé savoure cette douceur transcendante à laquelle un désir terre-à-terre ne saurait guère résister.

---

anecdotes extraits des textes sacrés sont aussi une source d'orientation illuminée. Il faut savoir choisir ses sources d'inspiration. Une option judicieuse est l'apanage d'un bon « sourcier ». Les lectures préférées évitent le gaspillage du temps et épargnent les efforts inutiles. L'auteur des Awārif insiste sur la nécessité de s'assurer un bon choix, grâce à une analyse pondérée ou à un recours à Dieu, dans toute actuation inopinée. La prière de l'Istikhara où le croyant invoque Dieu, en l'appelant à son aide, l'inspire et fait naître en lui des idées et des sentiments qui orientent son choix. Allah libère pour lui le meilleur accès de la compréhension, dans un temps record et avec un moindre effort. Doué d'un tel génie initiateur, l'image de la connaissance se présente spontanément à son esprit, pour se décalquer sur le miroir de son âme. C'est l'esquisse ésotérique de ce symbole qui dépure l'intellect et clarifie la compréhension. On cite le cas d'Avicenne qui consacre plus d'un mois à tenter de déchiffrer en vain les secrets de certains textes de la Métaphysique d'Aristote. Après s'être recueilli, à la Mosquée le quarantième jour, à la suite de la grande prière du Fajr, le mystère finit par se clarifier et l'énigme par s'éclaircir. Avicenne en fut sidéré ; mais il eut la preuve tangible de l'infaillibilité d'une inspiration divine[1].

Grâce donc à cette divine inspiration, l'acte devient compréhensible et l'acteur compréhensif. « Nous l'avons bien fait comprendre à Salomon » précise Allah dans un verset coranique. « Dieu fait entendre à qui Lui plaît », souligne un autre verset. Quand Allah est le promoteur d'un tel entendement, Sa révélation s'effectue tantôt par l'intermédiaire de Ses Messagers ou de leurs héritiers, tantôt à travers les œuvres et les écrits de la charia. En s'inspirant des uns et des autres, l'initié est d'autant plus édifié que son acte procède d'un bon entendement et d'une bonne audition. Il peut alors tester la valeur de son état et être le digne receptacle des dons sublimes de Dieu. Ses connaissances s'en ressentiront ainsi que leur adaptabilité éthique. Les grands maîtres en esquissent des élaborations magistrales dans l'invocation de la Miséricorde et de la grâce divines. L'Imam Ghazali, qualifié de « Preuve de l'Islam », eut l'amabilité de prodiguer de bien heureux conseils à un de ces disciples : « O, disciple qui entreprends la recherche de la connaissance, la lecture des ouvrages divers, qui tends à sonder les propos de tous et notamment les œuvres de la sagesse ! Que ton regard englobe toutes ces données par l'aide de Dieu et pour Son amour, sinon Il t'abandonnera à toi-même ou te délaissera à la merci de ce qui t'a obnubilé. Si ta vision ne se limite guère à lui, ton œuvre sera pour autre que lui dont tu auras alors confirmé l'existence et la véracité, si tu espères rencontrer Allah, fais le bien et n'associe personne à Son adoration ; au cas où ton regard se porterait sur les paroles émises par ceux qui jouissent d'une certaine renommée dans le domaine de la science, abstiens-toi de tout mépris et de toute décision à la légère, positivement ou négativement ; aie bonne opinion de tout le monde et ne déconsidère personne jusqu'à preuve du contraire ; les bonnes actions, tâche d'en faire état et de les divulguer, en cherchant des excuses pour les mauvaises. Tout Alem a son excuse, trouvant des arguments pour se justifier, ne serait-ce que partiellement. Que d'enseignements dans les tiraillements survenus entre Khadir et Moïse ! Si, à ton avis, une problématique vient de surgir, paraissant absurde et inconcevable, prends-en ce qui te semble plausible et délaisse ce que tu n'arrives pas à comprendre, en confiant à Dieu la réelle conscience. « On rappelle, en l'occurrence, à l'intention de tout lecteur qui cherche à mémoriser, de confier à Dieu, le cas échéant, la réminiscence des fruits de ces lectures. Il en sera pleinement édifié. D'autre part, un esprit averti ne doit guère

(1) Al-Akkad cite cette anecdote dans son ouvrage sur Avicenne.

mouvement d'esquive de Dieu vers Dieu : subtile finalité d'une Ethique supérieure, mue par une initiation gnostique agissante. Le lot qui échoit au Prophète, dans ce processus de transcendance, est hautement préférentiel. L'auteur des Awarif en fait une minutieuse analyse, en se référant à l'exégète Sahl Ibn Abdillah, dans l'interprétation du Verset coranique qui dépeint la perception conceptionnelle du Prophète, s'inspirant exclusivement des approches sublimement inculquées. Les qualifications éminentes qui en découlent impriment à l'âme une ferme constance. On en tire, pour le moumin, la nécessité de se raffiner, de s'armer de dignité, de crainte révérentielle, dans le concert de la grande gnose. Son esprit ne saurait, en l'occurrence, être envahi par des visions et des combinaisons imaginatives. Sur le double plan exotérique et esotérique, il ne doit guère sombrer dans une intellectualisation excentrique, une obnubilation capricieuse et un emportement passionnel irréfléchi. Une lucidité objective est seule susceptible d'imprimer à l'esprit une nette distinction entre le faux et le vrai, le bien et le mal. Tout un flux d'impondérables, de qualifications indicibles, émane ainsi d'un Esprit purifié dont la fine Ethique « policée » est une marque indélébile d'une parfaite et inimitable connaissance épiphanique. « Si vraiment Allah avait décelé du bien en eux – dit le Coran – Il les aurait dotés d'une bonne audition ». Quelques exégètes traduisent ces éléments bénéfiques qui jalonnent le cœur, par des prédispositions innées ou inculquées qui rendent l'initié capable de se dégager des conjectures maléfiques. Le Coran met les deux approches en étroite corrélation en disant : « Il y a là une heureuse réminiscence pour ceux qui ont un cœur et qui prêtent une fine oreille, avec un esprit présent ». Dans son Commentaire du Livre, Ar-Râzi définit ce genre de cœur comme une âme consciente susceptible de concevoir et de saisir. Yahia er-Râzi précise l'ampleur du double aspect du cœur, accaparé d'une part par les attraits mondains et incrusté, d'autre part, de profondes empreintes qui renforcent leurs prédispositions à sonder le fond et les intimes secrets de la connaissance. Le cœur doit donc être sain, c'est à dire dépourvu de tout malaise, trouble ou simple impression de gêne de nature à en perturber le flux courant. L'islam s'étend longuement dans l'esquisse de fresques émouvantes sur les péripéties d'enchevêtrement de la conscience et des phases qui jalonnent l'échelonnement de la marche du cœur. Un trio doit, pour Ibn Sam'oun, imprimer les élans du cœur fortement marqué par un raffinement comportementiel. A ce trio correspond un triple élément constitutif de la masse ou de la structure consciente : déguster la saveur enivrante de l'adoration respectueuse d'Allah, c'est se libérer de ses caprices ; grâce à cet affranchissement des exigences charnelles, l'initié réalise le premier tiers de l'éthique policée ; en deuxième stade, ce même moumin ainsi armé, éprouve le douloureux sentiment de ce qui lui manque ; en comblant ce vide, il aura parcouru les deux tiers du chemin. Une certaine plénitude sera alors assurée par la saturation du cœur. Pour le fameux Mohhamed Tirmidhi, un cœur qui se détache de ses fantaisies et élans capricieux, réalise autant de vitalité dans la voie de Dieu. En d'autres termes, quand un serviteur développe ses prédispositions à une vertueuse audition et éprouve, en conséquence, la vivacité qui le met en mesure de faire entendre ce qu'il a bien assimilé, il atteint le grade spirituel qui lui permet de réserver au Verbe Divin et à la tradition apostolique une audience adéquate. Il reçoit alors de Son Seigneur l'insigne honneur de parfaire, dans tous ses comportements, le plus sublime des états d'obédience. Sa soumission à l'ordre supérieur est alors pleine et entière ; sa résignation est totale.

C'est à ce genre de serviteurs qu'Allah fait allusion en disant : « Ceux qui reçoivent la parole de Dieu, en se conformant à Ses meilleurs commandements, sont les mieux orientés et les mieux doués de sagacité et de clairvoyance ». Cette perspicace subtilité constitue un noble privilège et le plus fin exploit qui donne accès à une sublime transcendance. Tous les adages et

Le Coran et la morale du Prophète

Abdelaziz Benabdellah
membre de l'Académie du Royaume du Maroc
et des Académies Arabes

Dans cette étude nous essayons d'analyser les attitudes et comportements du moumin, tendant à lui assurer une parfaite adaptabilité à l'ordre divin, grâce à une modulation appropriée de l'acte cultuel.

Les prophètes, sublimes élus de Dieu, sont les êtres les plus hauts placés dans l'échelle des valeurs éthiques. La psychologie du comportement apostolique, vis-à-vis de la Présence Divine, cette immanence prophétique est actuée par le souci constant d'une observance, éminemment adéquate des exigences supérieures du Droit Divin. Dieu n'a-t-il pas couvert d'éloges, dans son Livre Sacré, le caractère Magnanime de Son Messager Sidna Mohamed ? Cette magnificence dont Allah exalte les mérites Mohammadiens englobe l'ensemble des structures psychosomatiques, à savoir la haute manière d'être et d'agir. Al-Hassan Al-Basri interprète ce verset coranique, en mettant l'accent sur une confortation divine qui immunise l'Elu contre toute indélicatesse humaine. C'est le summum de l'Ethique transcendante du Prophète. Le propre de cette grandeur suprême est d'éluder avec adresse tout mobile de confusion et de malentendu. Un autre aspect de cette morale majestueuse, chez le croyant par excellence, Sidna Mohamed – que Dieu le bénisse – se cristallise dans la concentration de son cœur, la puissance de sa volonté et son attachement à Dieu et à Dieu seul. Le verset fait donc allusion à ce raffinement subtil qui est une marque de prééminence des principes de la conscience, de la pureté des mœurs et de l'efficience socio-culturelle des impératifs du bien. En l'occurrence, l'éminent Messager atteint un stade de transcendance où la vue – précise un autre verset coranique – ne saurait souffrir « ni déviation ni débordement ». C'est là un des secrets de cette suprématie sans-pair, vers laquelle le prophète transcende avec aisance, grâce à l'équilibre accompli de sa transconscience, dégagée de toute velléité de fluctuation. Les élans chez le grand messager se contrebalancent : une propension transcendante vers Dieu doublée d'un mouvement élusif qui tend à esquiver ou tourner le dos à tout ce qui éloigne de l'Etre Suprême. Le regard ne doit guère se porter ailleurs dans une déviance ou détournement. Le cœur se doit d'éviter tout repentir ou regret de ce dont on s'est sciemment et sincèrement détourné, pour l'amour de Dieu. Le Prophète s'ingénie à se remémorer, par évocation révérencieuse, les faveurs, les grâces et les touches divines de la Nuit de l'Ascension. Ce sont là des dons providentiels que l'intellect ne saurait ni imaginer ni valoriser. Dans sa sublime transconscience, le Messager de Dieu ne se permet nulle transgression des convenances de la Présence. Cette sublimité de l'âme est un

فهرس

○ دراسات إسلامية :

○ ديوان المجلة :

○ معرض الكتب :

